طرائف وفكاهات

من تراثنا العربى

بقلم
محمد شوقي أمين
عضو مجمع اللغة العربية



دار الثقافة الجديدة

بسم الله الرحمن الرحيم

طرائف وفكاهات

من

تراثنا العربي

طرائف وفكاهات

من

تراثنا العربى

محمد شوقى أمين

الطبعة الأولى

١٩٩٠

اهداءات ١٩٩٨

مؤسسة الاهرام للنشر والتوزيع
القاهرة

الناشر

دار الثقافة الجديدة

٣٢ ش صبرى أبو علم

القاهرة/ ت: ٣٩٢٢٨٨٠

صف بوحدة الماكنتوش بالدار

صف: هاله سعيد

غلاف: محمد عزام



طرائف ونكاهات

من

تراثنا العربي

بقلم

محمد شوقي أمين

عضو مجمع اللغة العربية

دار الثقافة الجديدة





تعـريف

فى سنة ١٩٥٣ دعانى صديقى المرحوم الأستاذ/ طاهر الطناحى - رئيس تحرير مجلة الهلال - إلى أن أزود المجلة كل شهر بما أتخيره من الطرائف والنوادر والفكاهات التى يتاح لى الاطلاع عليها فى التراث العربى على مر العصور - فاستجبت له خلال سنوات متواصلة - وكان ما أعده ينشر فى المجلة بعنوان «سلطة أدبية» ثم بعنوان «أدب وفكاهة».

وفى كل شهر كنت أحرص على أن أملأ صفحتين فى الغالب بموضوعات أفانين، فيها دين وتربية - وفيها أدب ولغة - وفيها خلق واجتماع - وفيها طرائف وأعاجيب - وفيها نوادر وفكاهات وكلها مستمد من جولاتى فى المكتبة العربية، قديمها وحديثها، وذلك فى حرص شديد على ألا أنتقى الا ما هو غير متعارف ولا متناقل - ولم تخل الموضوعات من إشارات وتوجيهات نقدية فى اللغة والأدب وغيرهما - مما توحى به مناسبة المادة المعروضة.

وقد مضت السنون وهذه الموضوعات مطوية فى بطون الأجزاء التى توالت من مجلة الهلال - وطالما سؤلت من الأصدقاء الذين اطلعوا على ما نشرته فى هذا الصدد: متى تجتمع هذه الموضوعات فى كتاب أو فى أكثر من كتاب - وكانت الشواغل تصرفنى عن الاستجابة لهذه الرغبة حتى ألحَّ علىَّ خاصة أصدقائى فى أن آذن بجمع هذه الموضوعات وعرضها للنشر.

وإنى إذ أقدم هذا الكتاب محتوياً على ما تم نشره من سنة ١٩٥٣ إلى سنة ١٩٦١ أرجو أن يكون فى الاطلاع عليه فائدة أو ترويح، يوليو ١٩٨٩.

محمد شوقى أمين
عضـو
مجمع اللغـة العربيـة

«هيلا هب»

تدور على ألسنة العامة عبارة تقترن فيها كلمة «هيلا» بكلمة «هب» كأنهما كلمة واحدة. ويجرى استعمالها فى مقام الاستعانة على حمل ما يثقل حمله، ونقل ما يصعب نقله، حثا على الهمة، وبعثاً للنشاط. ولذلك يتناشدها العمال منهم فى ترنيم وإيقاع.

وقد سجل الشعر العربى تلك العبارة فى صور شتى، فقال «مسكين الدارمى»:

لا تلمهـا إنهـا من أمـــة ملحها موضوعة فـوق الركب

كشموس الخيل يبدو شغبهـا كلما قيل لها: «هال وهـب»

وقال «قصى بن كلاب»:

عنـد تناديهم بـ «هـال وهبى» أمهتى خنـدق والياس أبـى

وقال«الكميت»:

نعلمها «هبى وهلا» وأرحـب وفـى أبياتنـا ولنـا اقبلينـا

ومعنى العبارة فى هذه الأبيات جميعاً هو الدعاء والحث والإهابة والتنبيه.

الأدب المكشوف

تناول «ابن قتيبة الدينورى» - من أئمة العلماء فى القرن الثالث الهجرى - ما يسمى الآن «الأدب المكشوف» فى مقدمة كتابه «عيون الأخبار» فقال:

«... وسينتهى بك كتابنا هذا إلى باب المزاح والفكاهة، وما روى عن الأشراف والأئمة فيهما، فإذا مر بك - أيها المتزمت - حديث تستخفه أو تستحسنه، أو تعجب منه، أو تضحك له فاعرف المذهب فيه، وما أردنا به.

«واعلم أنك إن كنت مستغنياً عنه بتنسكك، فإن غيرك ممن يترخص فيما تشددت فيه، محتاج إليه. وإن الكتاب لم يعمل لك دون غيرك، فيهيأ على ظاهر



محبتك، ولو وقع فيه توقى المتزمتين لذهب شطر بهائه، وشطر مائه ولأعرض عنه من أحببنا أن يقبل إليه معك «وإنما مثل هذا الكتاب مثل المائدة، تختلف فيها مذاقات الطعوم، لاختلاف شهوات الآكلين».

إلى أن قال: «ولم أترخص لك فى ارسال اللسان بالرفث على أن تجعله هجيراك على كل حال، وديدنك فى كل مقال، بل الترخص منى فيه عند حكاية تحكيها، أو رواية ترويها تنقصها الكناية، ويذهب بحلاوتها التعريض.

«وأحببت أن تجرى فى القليل من هذا على عادة السلف الصالح فى إرسال النفس على السجية والرغبة عن لبسة الرياء والتصنع. ولا تستشعر أن القوم فارقوا وتنزهت، وثلموا أديانهم وتورعت!»

سر الغيلان

لم يكن العلماء الأولون يؤمنون بما شاع بين العرب فى شأن وجود الغيلان، ولكن الفيلسوف إبراهيم بن سيار النظام – من أئمة القرن الثانى الهجرى– أبى أن يقف عند حد الانكار لهذه الظاهرة، فعنى بتعليلها، فقال:

«... كان الاعراب قد نزلوا بلاد الوحش المقفرة، فاستوحشو فيها، وقل أنيسهم، وفعلت فيهم الوحدة فعلها، وكان الواحد منهم لا يقطع أيامه إلا بالمنى والتفكير. وإذا استوحش الإنسان، مثل له الشىء الصغير فى صورة الكبير، وارتاب، وتفرق ذهنه، وانتفضت أخلاطه، فيرى مالا يرى، ويسمع مالا يسمع، ويتوهم على الشىء الصغير أنه عظيم جليل.

«ثم إن العرب جعلوا ما تصور لهم من ذلك أشعاراً وأحاديث تناشدوها وتوارثوها، فزاد إيمانهم بها، ونشأ عليها أبناؤهم، فصار أحدهم إذا توسط الفيافى، واشتملت عليه الليالى المظلمة، فعند أول وحشة أو فزعة، أو صياح بومة، أو مجاوبة صدى، يرى كل باطل، ويتوهم كل زور. وربما كان فى أصل الطبيعة أو الجنس نفاجاً كذاباً، وصاحب تشنيع وتهويل، فيقول فى ذلك من الشعر على حسب هذه الصفة، فعند ذلك يقول: رأيت الغيلان، وكلمت السعلاة. ثم يتجاوز ذلك إلى



أن يقول: قتلتها، ثم يتجاوز ذلك إلى أن يقول: رافقتها ثم يتجاوز ذلك إلى أن يقول: تزوجتها!».

ماء.. بلا باذنجان !

كان محمد بن يحيى بن خالد البرمكى متهما بالبخل لأنه أقل من أخويه إنفاقاً وسخاءً، وكان «أبو الحارث» أحد ظرفاء العصر العباسى يكثر من ترديد ذلك الاتهام والمبالغة فيه، حتى ضاق بذلك محمد البرمكى، ورأى أن يكيد له ليثأر لنفسه منه. وكان يعلم أنه لا يكره شيئا كراهيته للباذنجان، فدعاه يوماً إلى مأدبة، وأمر الطباخ بأن يجعل الباذنجان فى جميع الطعام.

وحضر «أبو الحارث» المأدبة وكلما قدم لون وهم بالأكل منعه مايراه من وجود الباذنجان فيه، الى أن ضاق بأمره ذرعا، فأخذ يأكل الخبز ويجعل عليه دقة المائدة، وسرعان ما عطش لغلبة الملح عليها، فنظر إلى «محمد البرمكى» متضرعا وقال: «اسقونى ماء لا باذنجان فيه!»

أشعب يحب !

أليس عجباً أن يقع فى شباك الحب رجل مثل «أشعب» كان مضرب المثل فى البخل والطمع؟.. ولكن لعل حبه كان لونا من طمعه فى الاستئثار بالغيد الحسان .. وأياما كان الأمر فهو لم ينس البخل والطمع حتى فى الساعة التى يسخو فيها المحب بكل نفيس!... فقد سألته صديقته التى يهواها خاتماً، وقالت له «هبنى إياه لأذكرك به».

فأجابها: «اذكرينى بأنك سألتنى فمنعتك ...!»





بالة القطن

الناس جميعاً فى مصر يستعملون كلمة «البالة» فى معنى «الكيس»، ويخصون استعمالهم لها بالقطن، ويجمعونها على «بال».

وأما الصحف فربما كتبت كلمة «البالة» فى هذا المعنى، ولكن تجمعها على «بالات» غير أن المتحفظين من الكتاب يعدلون عن هذه الكلمة إفراداً وجمعاً، يقيناً بأنها عامية، مؤثرين عليها كلمة «الكيس» ونحوها.

والحق أن كلمة «البالة» معربة منذ أقدم عهود العربية، وردت فى شواهد الشعر، وسجلتها معجمات اللغة، وذكرت أنها تجمع على «بال».

وقصارى ما انتهى إليه بحث اللغويين فيها أن معناها: وعاء الطيب، أو: وعاء المسك، أو: القارورة، أو: الجراب الضخم، أو: الجراب الصغير.

ويبدو من البحث أن تعدد هذه المعانى راجع إلى أن «البالة» لها فى اللغة الفارسية أصلان، الأول: بيله، ومعناه: وعاء المسك والآخر: باله، ومعناه: الجوالق، وهو الغرارة أو الكيس .. فلنقل مع الناس:

بالة، ولنجمعها كما يجمعونها على: بال.

تقاوى الزرع

يستعمل الزراع من أهل الريف كلمة «التقاوى» للبذور التى ينثرونها فى الأرض، فيكون منها النبات .. وقد عثر على هذه الكلمة فى بعض الأوراق الرسمية للحكومة المصرية فى القرن التاسع عشر، فى معرض الإشارة إلى كميات البذور التى توزع على الفلاحين «تقوية للأرض».

وكان المرحوم «محمد صفوت» وزير الأوقاف - منذ خمس عشرة سنة - يتحدث فى مجلسه بأنه وجد كلمة «التقاوى» مشروحة هذا الشرح فى حجة من حجج الوقف



يرجع تاريخها إلى نحو مائة عام .. على أن «الزبيدى» فى مستدركه على القاموس يثبت هذه الكلمة، ويشرح معناها بأنها«ما يعزل من الحبوب لأجل البذر»، ويقول إنها كلمة عامية. ومن هذا يخلص لنا أن كلمة «التقاوى» يرجع استعمالها بين الزراع فى «مصر» إلى نحو ثلاثة قرون على الأقل، فإن «الزبيدى» ألف كتابه فى القرن الثانى عشر الهجرى.

و«التقاوى» كأنها جمع «تقوية» على شىء من التجاوز، مثل: تجربة وتجارب .

والعامة يقولون فى مثل هذا الجمع: «تسالى يا لب» جمع «تسلية» ويقولون «الدنيا تلاهى» جمع «تلهية»

رفع عقيرته

يقول الكتاب: « رفع فلان عقيرته»، أى: رفع صوته وصاح، وهو استعمال فصيح لاشائبة فيه، سواء أكان رفع الصوت بالتكلم والقراءة، أم بالبكاء، أم بالغناء.

إلا أن التعبير برفع العقيرة عن إعلاء الصوت بالبكاء: كناية لها أصل طريف ..

ذلك أن أعرابياً عُقِرَت رجله، فوضع الساق العقيرة على الصحيحة، وبكى عليها بأعلى صوته، فقيل «رفع عقيرته».

وثمة أصل طريف أيضاً للكناية برفع العقيرة عن إعلاء الصوت بالغناء .. ذلك أن رجلاً أصيب عضو من أعضائه، وله إبل اعتادت حداءه، فتفرقت عنه، وانتشرت عليه. فرفع صوته بالأنين، لما أصابه من العقر فى بدنه، فتسمعت إبله، فحسبته يحدو بها، فاجتمعت اليه، فقيل لكل من رفع صوته بالغناء: «قد رفع عقيرته».

وإذن فالعقيرة هى الرجل المعقورة أو العضو المعقور، وليس فى معانيها ما يتصل بالصوت من قريب أو بعيد، وإنما التعبير برفع العقيرة عن رفع الصوت على اختلاف دواعيه نوع من التشبيه والتمثيل.



رائحة الأماني

جلس رجل من أهل «بغداد» في داره، يتحدث مع بعض أصحابه، وقد بلغ منهم الجوع كل مبلغ، وهم سواء فيما يعانون من عسرة وضنك، فجعل صاحب الدار يذكر ألوان الطعام، ويقول: «قاتل الله الحاجة، فلو أن لنا اليوم مالا لطعمنا شواء» ...

فتصايح أصحابه يقولون: «الشواء! ... ما أطيب الشواء!»

وما هى إلا أن طرق الباب طارق، فعجل إليه صاحب الدار يسأله: «ما يبغى؟» فقال: «إنى رسول جارتكم إليكم، ولعلكم لا تعلمون أنها ذات حمل، وأنتم تدرون ما يكون من أمر الوحمى حين تشتهى، وقد انتهت إليها رائحة شوائكم الساعة، فبعثت بى اليكم عسى أن تردوا شهوتها بقليل من الشواء، والنفس يردها اليسير!».

فرجع صاحب الدار إلى أصحابه، وقد أخذ منه الدهش، وهو يضرب كفاً بكف، ويقول: «جيراننا يشمون ريح الأمانى!».

فول رمضان

للفول فى شهر رمضان صيت بعيد يعلو على صيته فى كل آن.

إنه الطعام السائغ الشهى، فى الفطور والسحور على السواء، يتصدر موائد الصائمين على اختلاف طبقاتهم وتفاوت حظوظهم من الغنى واليسار. وهم يتأنقون فى إعداده، ويتفننون فى تجويده، ليكون لوناً فاخراً طيب المذاق.

وقد كان هذا الفول الرمضانى معروفاً نحو ألف سنة باسم «الباقلاء» بتخفيف اللام ممدوداً، أو«الباقلى» بتشديد اللام مقصوراً. وفى «دمية القصر» للباخرزى بيتان لأبى العباس الخوازنى من شعراء القرن الرابع الهجرى، يودع فيهما «شهر رمضان»





فيقول:

أقول لشهر الصـــوم لما قضيتـــه عليك ســـلام الله بـوركت راحلا

وقد كنت من «سحبان» أفصح لهجة فصير طبعى باقـــلاؤك: «باقلا»

والطريف أن هذه التهمة التى يلحقها الشاعر بالفول، ما برحت تحيا بين الناس إلى عصرنا الحاضر، فالشائع عندنا أن هذا الفول يكسر حدة الفهم، ويطفىء جذوة الذكاء.

وروى صاحب «عيون الأخبار» - فى القرن الثانى الهجرى - أن رجلا من قدماء الأطباء قال: «إن الفول إذا أدمن أكلّ البصر، وأحال الأحلام أضغاثاً، ولا يجد عابر الرؤيا إلى تأويلها سبيلا!». وكذلك ينقل صاحب «العقد الفريد» - فى القرن الثالث الهجرى - «أن الفول من الأطعمة الغليظة، لأن اليبس فى طبيعته» ويوضح الحكيم الفيلسوف «ابن رشد» - فى القرن السادس الهجرى - أثر الفول فى الأذهان بقوله فى كتابه «الكليات»: وزعموا أن خاصته الإضرار بالفكر». ويزيد على ذلك «ابن الجوزى» - فى القرن السادس الهجرى - فيقول فى كتابه «صيد الخاطر»: «إن من يأكله تحدث له قراقر...» وهى أصوات فى الأمعاء!

التراويح

«التراويح»: صلوات يؤديها المسلمون - بعد أداء فريضة العشاء - فى «شهر رمضان» خاصة، ركعتين، ركعتين إلى عشر مرات أو تزيد. وكلمة «التراويح» لا تمت إلى «الصلاة» بأى صلة، فهى جمع «ترويحة»، مرة واحدة من الراحة، مثل التسليمة من السلام.

ويرى بعض الباحثين أن الأصل فى اشتقاقها قول الرسول لمؤذنه «بلال»: أرِحنا بالصلاة، أى أذن للصلاة، وأقمها، فنستريح بأدائها من اشتغال قلوبنا بها.

ويرى آخرون أن «الترويحة» سميت بذلك لاستراحة القوم بعد كل أربع ركعات،



أو لأنهم كانوا يستريحون بين كل تسليمتين. وهناك رأى ثالث فيه توفيق بين الرأيين، يقول بأن «التراويح» مشتقة من الاستراحة بإقامة الصلوات، لأن الترويحة أربع ركعات، فالمصلى يستريح بعدها.

وعلى أية حال فهذه «الترويحة» كلمة طيبة ... تصلح أن تكون مقابلا فصيحاً للكلمة الأجنبية: «أنتراكت» التى نعبر عن معناها بكلمة «استراحة» وهى الفترة بين الفصول فى المسارح والملاهى ونحوها، أو بين أجزاء البرامج فى الحفلات ....

قبعات عربية !

اتجهت الأنظار فى هذا العهد الجديد - عهد التحرير والتنظيم - إلى اتخاذ القبعة لباسا للرأس بدلا من الطربوش. ويسأل بعض الناس: أتصلح القبعة للزى القومى؟ ووصفها بعضهم بأنها غريبة لا يعرفها الشرق.

وقد جاء فى المذكرات التى نشرها المرحوم الأستاذ «فؤاد حمزة» وزير الخارجية السعودية السابق عن رحلته «فى بلاد عسير» باليمن سنة ١٩٣٤ لمهمة سياسية، أنه نزل فى مدينة «أبها» عاصمة تلك البلاد، فرأى فى سوقها الأسبوعية نساء من قبيلة «ربيعة اليمن» يغطين رؤوسهن بقبعة من الخوص تسمى «طفشة» وهى إما ذات إطار عريض غير بارزة الوسط، وإما ذات إطار رفيع تتوسطها اسطوانة بارزة تجعلها أقرب إلى القبعات الإسبانية. كما وجد نساء«عسير» من «أهل تهامة» الذين يقطنون الربى والسفوح الغربية، يتخذن قبعة الخوص ذات الإطار العريض، ولكن بناتهن يتخذن قبعات مصنوعة من النسيج، على شكل مثلث مفتوح القاعدة، وقد يضعن فوقها خماراً أو نقابا.

وهكذا يبدو أن القبعة ليست عربية وحسب، بل إنها بدوية ...!



حداء الإبل

الحداء للإبل، هو التغنى لها، حتى تنشط للسير ..

وقد عرف العرب أثر الحداء فى تنشيط الإبل، من طريق المصادفة والاتفاق فقد ضرب أعرابى غلامه، وعض أصابعه، فمشى الغلام، وهو يقول: «دى، دى» يعنى: «يايدى يايدى!» ... فسارت الإبل على صوته مسرعة، فقال له أبوه: «الزم هذا...»

وفى رواية أخرى أن أول من سن الحداء رجل سقط عن بعيره، فأصيبت يده، فوجعته وكان أحسن الناس صوتاً، فكان يمشى خلف الإبل ويقول: «وايداه!» فجعلت الإبل تمشى نشيطة قد ذهب عنها الكلال ..

فكان هذا أصل الحداء عند العرب!

المرأة والقضاء

فى هذا الوقت الذى تطالب المرأة المصرية فيه بالنص على حقوقها فى دستور الدولة، سعياً إلى تحقيق المساواة بينها وبين الرجل، نشير إلى حق من هذه الحقوق، وهو ولاية المرأة للقضاء، ونذكر أن أئمة الفقه الإسلامى - بل فلاسفة الفكر الاعلام - درسوا هذه الناحية، وحسبنا أن نذكر هنا فقرة وردت فى كتاب الأقضية من المدونة الفقهية المعروفة: «بداية المجتهد، ونهاية المقتصد» لمؤلفها الفيلسوف الفقيه «ابن رشد» إذ يقول: «اختلفوا فى اشتراط الذكورة فى القضاء، فقال الجمهور: هى شرط فى صحة الحكم، وقال أبو حنيفة: يجوز أن تكون المرأة قاضياً



فى الأموال، وقال الطبرى: يجوز أن تكون المرأة حاكما على الاطلاق فى كل شىء ... ومن رأيه أن حكمها نافذ فى كل شىء قال: إن الأصل هو أن كل من يتأتى منه الفصل بين الناس فحكمه جائز ...». ومن هذا يتبين أن حق المرأة فى ولاية القضاء يستطيع أن يستند إلى آراء فلاسفة التشريع الإسلامى منذ ثمانمائة سنة بل يزيد ...

من عبث الملوك

يقص علينا الوزير الأندلسى «لسان الدين بن الخطيب» قصة ملك من ملوك الأندلس دانت له أغلب أقطارها، أسرف فى اللهو واللعب، وأفرط فى حب القيان والزمر والرقص، وكان له يومان فى كل جمعة: يوم الاثنين ويوم الخميس، فيشرب فيهما مع ندمائه، وقد دعا يوماً أحد قواده فشرب معه فى مجلسه وقد كساه بأحمر الوشى والآنية من الفضة، وتمادى فى لهو وشراب عامة اليوم فلما كمل نهاره معه وهبه الآنية وكل ما كان فى المجلس...!

وأعجب من كان من أمره أنه كان له فتى اسمه «حسن» ذو رقبة سمينة، وقفا كثيف عريض، فإذا شرب الملك جعل يصفع الفتى على قفاه مسروراً مبتهجاً، ويعطيه عطاء جزيلا ...

ومن الطريف أن «لسان الدين بن الخطيب» يقول فى بيان ذلك: «فإذا شرب كان يرزّه» فهو يستعمل كلمة الرز لمعنى الضرب على القفا، وذلك الاستعمال معروف فى العامية المصرية، يقولون: أعطى له «رزة» أى صفعة. وكلمة «الرز» فى اللغة الفصحى معناها: الطعن، ولكن استعمالها لهذا المعنى الخاص لم تثبته معجمات اللغة، فأثبتته كتب التاريخ...!



كاليفورنيا .. أصلها عربى

تتبادل اللغات الكلمات والعبارات، كما يتبادل الناس العادات والأزياء وشتى مرافق الحياة ... ولكن القول بأن أصول هذه الكلمات ترجع إلى لغة بعينها قول محفوف بالشكوك لا يخلو من عثرات ... فقد تتشابه الألفاظ فى لغات شتى، وقد تتلاقى اللغات فى وجهة واحدة كما تتوارد الخواطر، على أن البحث فى اشتقاقات الأسماء ومصادر الألفاظ يمتاز أحياناً بالطرافة والظرف، ولا شك أن من المباحث الظريفة ما أثبته صاحب كتاب «الواسطة فى أخبار مالطة» حين تحدث عن «كاليفورنيا» فقال ان لفظها محرف عن لفظتين فى الأسبانية معناهما: الفرن الحامى، ولا يبعد أن يكون ذلك عربياً، فإن «كالى» محرف عن «قالى» من: «قليت اللحم» ونحوه، و«فورنيا» من «الفرن». فهل انتقل ذلك من العربية إلى الأسبانية، ثم أصبح علماً أطلقه الفاتحون الأسبانيون على تلك الولاية الأمريكية؟!

يحتفل بعيد ميلاده..

أخذ الشرقيون يحتفلون بأعياد ميلادهم محاكاة لما يصنع الغربيون... ولكن يظهر أن الشرق أسبق من الغرب إلى هذا التقليد، فقد سجلت حياة «سعيد بن سلم» أحد ولاة الخليفة «هارون الرشيد» - وكان والياً على أرمينية والموصل والسند وسجستان وطبرستان والجزيرة... - أنه كان إذا استقبل السنة التى يستأنف فيها عدد سنيه - أى على رأس كل عشرة أعوام - اعتق رقبة وتصدق بعشرة آلاف درهم ... وهكذا يحتفل الرجل بعيد ميلاده احتفالا كريما طالعه الخير والبر فيتصدق



بألف درهم عن كل سنة يعيشها فضلا عن اعتاق رقبة كل عشر سنين ومن يدرى؟ فلعل الرجل كان يضيف إلى ذلك ألواناً من المباهج والاحتفالات، ولكن مؤرخى حياته لم يعنوا إلا بتسجيل الجانب الاجتماعى العام من حفاوته بعيد ميلاده، تاركين الجانب الذى لا يعنى إلا صاحبه!

الترسـانة

يطلق اسم «الترسانة» فى مصر على الدار التى تشمل أنواعا من الصناعات كالنجارة والحدادة والبرادة وغيرها، فهى مصنع الدولة الذى يقوم بما تتطلبه المرافق العامة من صنوف العتاد المدنى أو الحربى. وهذه الكلمة على ما يبدو من غرابة صورتها عربية الأصل، وقد مرت بمراحل تتلخص فيما يأتى:

أطلق العرب اسم «دار الصناعة» أو «دار الصنعة» على المكان الذى تصنع فيه المراكب البحرية، وقد وردت كذلك فى كتب التاريخ، وأوسع مكان اشتهرت فيه هذه التسمية: الأندلس. وانتقلت إلى الإفرنج كلمة «دار صنعة» فأصبحت عندهم تكتب: «دارسنا» ثم لحقها التحريف بكثرة الاستعمال، فصارت «آرسنا»، وأضيف إليها حرف اللام المستعمل للنسبة، فكتبت «آرسنال».

وعمد الترك إلى كلمة «دار صناعة» أو «دار صنعة» فأسموها «ترسانة» فقالوا عن دار الصناعة التى فى خليج استنبول: «ترسانة عامرة».

ومن الترك أخذت مصر كلمة «الترسانة» كما يلفظونها.

ومن حق هذه الكلمة فى عهدنا الحاضر أن ننصفها، فننفض عنها صبغتها الأجنبية، ونردها إلى عروبتها الأصيلة، فنقول: «دار الصنعة» أو: «دار الصناعة».



الاكتتاب.. فى موسم الحج

شاعت كلمة «الاكتتاب» فى هذا العصر تعبيراً عن المعونات التى يشترك فيها الجمهور لتحقيق غرض من أغراض البر والخير والإصلاح... وهى كلمة مولدة فى اللغة العربية لهذا المعنى، لكن مدلولها ليس بالجديد على الأمة العربية، فقد عرف العرب ذلك النظام فى مواسم الحج قبل الإسلام، وكانوا يسمونه «الرفادة». وذلك أن قبائل «قريش» كان تفرض على نفسها أن يخرج كل إنسان مالا بقدر طاقته، حين يتوافد الناس على بيت الله الحرام، فيتجمع من ذلك مال عظيم أيام الموسم، ويهيأ به طعام للحجاج، حتى ينقضى الموسم.

والأقوال شتى فى نشأة هذه «الرفادة»، فقيل إن أول من قام بها «هاشم بن عبد مناف» وقيل إنه «عبد المطلب» الذى حفر بئر زمزم لسقاية الحجاج، وقيل إن الذى فرض «الرفادة»، على «قريش» هو «قصى» - الجد الخامس لنبى الإسلام - وكان من زعماء الإصلاح الاجتماعى فى عصره، فقد عمل على جمع شتات «قريش» وسن سنة الاجتماع يوم «الجمعة» والخطابة فيه. ويؤثرون عنه أنه خطب فى قومه قائلا: «يا معشر قريش: إنكم جيران الله، وأهل بيته، وأهل الحرم، وإن الحجاج ضيوف الله، وزوار بيته، وهم أحق الضيف بالكرامة، فاجعلوا لهم طعاما وشرابا أيام الحج، حتى يصدروا عنكم» فامتثل القوم ...

وكلمتا «الرفادة» و«الرفد» معناهما: العون. والمرافدة: المعاونة والترافد: التعاون. وأما «الاكتتاب» فله معان متنوعة، منها: طلب الكتابة، وتعليمها، والاستملاء والخط، وتسجيل الاسم فى ديوان الأرزاق، أو فى قائمة المجندين للحروب.







يمشي .. على الذهب

ازدهرت الموشحات فى الأندلس، فاجتذبت إليها العلماء والحكماء، فنافسوا فيها الأدباء والشعراء.

و ممن برعوا فى التوشيح: «أبو بكر محمد بن يحيى الصائغ» المعروف «بابن باجة»، وهو من أعلام المتمرسين بصناعة الطب، وله القدح المعلى فى الفلسفة، وقد شرح كتب «أرسطو» وعلق عليها، وكان مع ذلك متقنا لصناعة الموسيقى، جيد اللعب بالعود، متميزاً فى العربية والأدب.

ومما روى عنه أنه حضر مجلس أمير «سرقسطة»، وألقى إلى إحدى القيان موشحة له يمدح بها الأمير، فلما أنشدتها القينة اهتز الأمير وصاح: «واطرباه!» ثم شق ثيابه وقال «لابن باجة»: «ماأحسن ما بدأت وما ختمت» ... وأخذته نشوة الطرب، فأقسم بالأيمان الغليظة: لا يمشى «ابن باجة» إلى داره إلا على الذهب!

وكان مأزقا ... وخاف الحكيم الفيلسوف سوء العاقبة إن نفذت إرادة الأمير، فاحتال لذلك، بأن جعل ذهباً فى نعله، ومشى عليها إلى داره. وبهذا برت أيمان الأمير، وخلص الحكيم من المأزق!

نأنأ في بيتك

من الفكاهات التى يتناقلها الناس، أن رجلا ذهب إلى بعض إخوانه، فألفاهم على مائدة الطعام يأكلون، فاتخذ مجلسه من المائدة وهو يقول: «لقد أكلت فى بيتى، ولكن لا مانع من النأنأة معكم».

وكان أشدهم التهاماً، فأصاب من الطعام أكثر مما أصابوا، فقالوا له: «عليك فى



المرة الآتية أن تتأنىء فى بيتك، ولا بأس بأن تأكل معنا!».

وعامة الناس يستعملون كلمة «النأنأة» لمعنى الخفة والفتور، فهم يقولون: نأنأ فى الأكل، أى تناول قليلا قليلاً. ومن المواقف التى تستعمل فيها هذه الكلمة: بداءة المرض، فيقال: هذا الصبى منأنأ، يعنون أنه ليس موفور النشاط، وأن صحته معتلة شيئاً.

وقد روى الخليفة «أبى بكر الصديق» أنه قال: طوبى لمن مات فى النأنأة، أى فى أول الإسلام، قبل أن يقوى ويكثر أهله، والداخلون فيه.

وينقل عن الإمام «علىّ» أنه قال لبعض المتخلفين عن واقعة الجمل: تنأنأت وتراخيت واللغة تقول: نأنأت، أى: فترت وقصرت، والنأنأة: الضعف، وتنأنأ: استرخى فالكلمة فصيحة فى معناها كما يستعملها الناس.

شرف العمر

الحافظ «عبد الرحمن بن الجوزى» من أكثر العلماء تأليفاً، وقد ترك للدارسين والباحثين - ذخيرة علمية يتساءلون: كيف انفسح عمره لتأليفها ؟ وكيف اتسع وقته لتدوينها ؟ ولكن «ابن الجوزى» نفسه يكشف عن سره، ويجيب عن هذا التساؤل حين يشرح لنا كيف كان يضن بوقته، إذ يرى أن العمر شرف يجب أن يصان من الضياع.

يقول: «رأيت خلقاً كثيرين يجرون معى فيما اعتاده الناس من كثرة الزيارة. فلما رأيت الزمان أشرف شئ ، كرهت ذلك، وبقيت معهم بين أمرين: إن أنكرت عليهم وقعت وحشة، لموضع قطع المألوف. وإن تقبلته منهم ضاع الزمان. فصرت أدافع اللقاء جهدى، فإذا غلبت قصرت فى الكلام، لأتعجل الفراق، ثم أعددت أعمالا لأوقات لقائهم، لئلا يمضى الزمان فارغاً، فجعلت من المستعد للقائهم قطع الكاغد



«الورق»، ويرى الأقلام، وحزم الدفاتر، فإن هذه الأشياء لابد منها، ولا تحتاج إلى فكر وحضور قلب، فأرصدتها لأوقات الفراغ زيارتهم، لئلا يضيع شىء من وقتى، نسأل الله أن يعرفنا شرف أوقات العمر ...»

«لوبيا» .. وليست «ليبيا»

أصبحت «ليبيا» مملكة عربية مستقلة، ومنذ نودى بوضعها الجديد، واسمها يتردد فى عشية وصباح، ولا أذكر أنى رأيت اسمها فى صحيفة، أو سمعت فى حديث، على وجهه الصحيح الذى عرفته الأمة العربية منذ القرون الخالية.

لقد طرأ التحريف على اسم «ليبيا» حين كتب فى اللغات الأجنبية، ثم نقل منها بعد ذلك إلى العربية العصر الحديث، ومن حقه أن يرجع إلى تعريبه القديم الصحيح شاعت فى الكتابة «ليبيا» بالياء، والصواب: «لوبيا» بالواو، أو «لوبية» بالتاء المربوطة.

قال «ابن القطاع» فى كتابه الأبنية: «ولوبيا: اسم».

وقال «ياقوت»: «لوبيا بالضم ثم السكون وباء موحدة وياء مثناة من تحت: مدينة بين الإسكندرية وبرقة ..»

وقال «أبو الريحان البيرونى»: «ما مال عن أرض مصر وعن بحر الروم نحو الجنوب فاسمه «لوبية» ويحدها بحر أوقيانوس المحيط الأخضر من جانب المغرب، وبحر مصر من جهة الشمال، وبحر الحبش من جهة الجنوب، وخليج القلزم من جانب المشرق، وهذا كله يسمى «لوبية»...».

ولا ريب أن من الخير لهذه المملكة الناشئة الناهضة أن تحرص على أن يكون اسمها على الوجه الذى سجله التاريخ العربى ... إذ لا مسوغ لقبول التحريف والتغيير.



سخرية الألوان فى الأحزان

تاريخ الإنسان على ظهر الأرض مسرح لعجائب الأطوار وتباين الأوضاع. ومن طريف ما يتمثل فيه اختلاف الأذواق - بل تناقضها - موضوع الألوان ودلالتها على الفرح أو الحزن ... فإنها فى الحق سخرية!

يتحدث إلينا «ابن بطوطة» أنه شاهد أهل الصين يتخذون البياض لونا لملابس الحداد، وكأنما يحسب أنه يروعنا بشىء جديد ... ومن ينعم النظر فى النبذ التاريخية التى جمعها العلامة «أحمد تيمور» خاصة بالألوان فى الحداد يستطيع أن يستخلص منها أن التعبير عن الحداد لم يكن مقصوراً على السواد، وإنما كان مثله البياض والخضرة والصفرة والزرقة.

هنا فى «مصر» ... كان البياض لباس الحزن فى بعض العصور، عند الرجال والنساء. ولا سيما فى عهد الأيوبيين، فقد اتخذه أهل الدولة والأمراء والملوك فى أحزانهم على «الصالح أيوب» و«العاضد» و«الظافر» وكذلك ابن «الظاهر بيبرس».

وفى «بغداد» لبس البياض فى أحزانهم أثناء فترات من العصر العباسى، فاتخذوه حداداً على «المتوكل» و«المستنصر» وبنت «المقتفى».

وفى «الأندلس» ... كان «بنو أمية» يلبسون البياض فى الحداد، وقد استخدم «الحصرى» ذلك فى معنى شعرى لطيف، فقال:

إذا كان البياض لباس حزن   بأندلس، وذاك من الصواب
فها أنا قد لبست بياض شيبى   لأنى قد حزنت على شبابى

وأما الخضرة فقد كان من عادة الفاطميين أن يلبس ولى العهد حلة خضراء عند موت الخليفة، وهى لباس الحزن، ثم يبدلها عند مبايعته بثياب الخلافة.



وأما الصفرة فقد أثبت «الديرى» فى أوراقه أن علامة الحزن كانت وضع مئزر أصفر على الرأس.

وأما الزرقة فقد حدثنا «ابن الخطيب» مؤرخ «غرناطة» الأندلسية أن لباس الحزن فيها كان أزرق اللون.

قاضٍ ينطح الخصوم !

امتلأت خلافة «الحاكم بأمر الله» فى مصر بالغرائب ... ومن غرائبها ما يروى «ابن إياس» أنه كان فى زمنه قاضٍ يقال له «النطاح»، وسبب ذلك أنه كان له طرطور فيه قرنان من قرون البقر إلى جانبه. فإذا جاءه خصمان يتحا كمان عنده، وجار أحدهما على الآخر لبس القاضى الطرطور وجعل ينطحه، فاشتهر أمره بين الناس، وبلغ الحاكم فأحضره يسأله فقال القاضى: «يا أمير المؤمنين، أشتهى أن تحضر مجلسى يوماً وأنت من خلف ستارة انظر ما أقاسى». فلما أصبح «الحاكم» أتى إلى مجلس ذلك القاضى، وجلس خلف ستارة. فأتى إلى القاضى خصمان، فادعى أحدهما على الآخر بمائة دينار واعترف المدعى عليه بالدين وقال: «إنى معسر فى هذا الوقت، فقسطوا علىَّ ذلك على قدر حالى» فجعل القاضى يتدرج فى التقسيط، والمدين يقول: «لا أقدر على ذلك». وأخيراً سأله القاضى: «وما القدر الذى تستطيعه فى كل شهر؟» فقال المدين «أنا لا أقدر على أكثر من ثلاثة دراهم كل سنة، بشرط أن يكون خصمى فى السجن، لئلا يتجمع معى هذا القدر ولا أجد خصمى فيذهب منى». فلما سمع «الحاكم» ذلك لم يملك عقله، وخرج من خلف الستارة يقول للقاضى: «انطح هذا الشيطان وإلا فأنا أنطحه!».



دفاع عن البخل

ما أكثر ما يدافع به البخلاء عن أنفسهم، وربما كان «عبد الله بن كاسب» - وهو من أبطال البخل فى القرن الثانى الهجرى - أقواهم حجة، وألطفهم تعليلا، كما يتجلى ذلك فى المحاورة الآتية التى يرويها «الجاحظ» عنه ويقول إنها دارت بينهما:

- كيف رضيت أن يقال أنك بخيل؟

- لا أعدمنى الله هذا الاسم، فلا يقال «فلان بخيل» إلا وهو ذو مال، فسلم إلىّ المال وادعنى بأى اسم شئت!

- ولا يقال أيضاً: «فلان سخى» وإلا وهو ذو مال، فقد جمع هذا الاسم الحمد والمال، ثم البخل يجمع المال والذم ...

- بينهما فرق ... لأن فى قولهم: «فلان بخيل» تثبيتاً لإقامة المال فى ملكه، وفى قولهم: «فلان سخى» إخبارا عن خروج المال من ملكه. واسم «البخيل» فيه حفظ وذم، واسم «السخى» فيه تضييع وحمد. والمال نافع مكرم لأهله، والحمد ريح وسخرية، والاستماع له ضعف وفسولة. وما أقل غناء الحمد إذا جاع البطن، وعرى الجلد، وشمت من كان يحسد!

عرائس المولد

فى مناسبة إحياء الذكريات الدينية - كالمولد النبوى والمولد الحسينى والمولد الزينبى ومولد السيد البدوى - تقام حوانيت مؤقتة على جوانب الطرقات تعرض



فيها أنواع الحلوى، مصورة على هيئة العرائس، وأنواع الحيوان وغيرها، فى ألوان زاهية.

وقد روى لنا التاريخ أن هذا الصنيع متوغل فى القدم، وأنه كان فى مصر وفى سواها من البلاد الشرقية منذ قرون .. يقول الرحالة «ابن جبير» - منذ نحو ثمانمائة سنة - فيما يصف به أسواق مكة: «وأما الحلوى فتصنع منها أنواع غريبة من العسل والسكر المعقود فى صفات شتى، يصنعون بها حكايات جميع الفواكه الرطبة واليابسة وفى الأشهر الثلاثة: رجب وشعبان ورمضان، تتصل منها أسمطة بين الصفا والمروة، ولم يشاهد أحد أكمل منظراً منها، لا بمصر ولابسواها، قد صورت منها تصاوير إنسانية وفاكرية، وجلبت على منصات بها العرائس ونضدت بسائر أنواعها المنضدة الملونة، فتبدو كأنها أزهار حسناً، فتقيد الأنظار، وتستنزل الدرهم والدينار».

ويقول المؤرخ الإجتماعى «المقريزى - منذ نحو ستمائة سنة - فى خططه يصف سوق الحلاويين بالقاهرة ... كان هذا السوق فى موسم شهر رجب من أحسن الأشياء منظراً، فإنه كان يصنع فيه من السكر أمثال خيول وسباع وقطاط وغيرها تسمى. «العلاليق» واحدتها علاقة يرفع بخيوط على الحوانيت، منها ما يزن عشرة أرطال إلى ربع رطل، تشترى للأطفال، فلا يبقى جليل ولا حقير لا يبتاع منها لأهله ولأولاده.

لماذا لا يدعى النبوة ؟

كان للعالم: «ابن سينا» تلميذ مختص به، اسمه «بهمنيار»، قال لشيخه ذات



يوم: «لماذا لا تدعى النبوة ، وأنت على هذا القدر من سعة العلم والمعرفة بكل شىء؟!» فسكت ابن سينا عن جوابه، حتى كانت ليلة من ليالى الشتاء، اشتد فيها البرد، وقد صعد المؤذن عند الفجر داعياً الى الصلاة، فأيقظ الشيخ تلميذه، وقال له: «اخرج فأتنى بقدح ماء» فقال التلميذ: أتشرب الماء الآن، وما كدت تستيقظ، وشرب الماء عند اليقظة يضر بالأعصاب والعروق؟» فقال الشيخ: «كيف تجادلنى، وأنا رأس الأطباء؟».

فقال التلميذ: «وإنى فى دفء تحت أغطيتى، يسيل العرق على جسدى، فإذا خرجت الآن أصابنى ضررا».

فقال «ابن سينا»: «الساعة أشرح لك يا بنى لماذا لا أدعى النبوة فقد توفى نبى الإسلام منذ أربعمائة سنة، وما برح أثره فى النفوس باقياً، ولا يزال الناس مع شدة البرد يدعون باسمه إلى الصلاة من فوق المآذن فى مطلع الفجر. أما أنا فعلى الرغم من أنى على قيد الحياة، وأنت أقرب الناس إلىّ، وأعرفهم بى، فلم أستطع أن أجعلك تأتمر بأمرى، وتنيلنى الماء الذى طلبته منك. فكيف كنت تريدنى أن أدّعى النبوة؟!».

رأسان فى جسد

حدث هذا سنة ٣٧٧هـ. أن منذ ألف سنة، فى مدينة «تنيس» بالقرب من «دمياط»:ولدت امرأة جارية لها رأسان ووجهان فى عنق واحد، وكان أحد الوجهان أبيض، والآخر أسمر، وكل وجه منهما كامل الخلقة، وهذان الوجهان فى جسد واحد. فكانت الأم ترضع كل واحد منهما على انفراد، وقد حملت هذه المولودة العجيبة إلى «مصر» حتى يشاهدها الخليفة الفاطمىّ، فوجه لأمها شيئا من المال



وأعادها إلى «تنيس» فعاشت مدة يسيرة.

ويسجل المؤرخون عجباً عن أمر هذه المدينة المصرية القديمة، فيذكرون أنه كان بها طريق يابس مسلوك إلى جزيرة «قبرص» طغى عليه البحر، ويدل على حضارة هذه المدينة أنه كان بها ما يأتى: ١٩ باباً مصفحاً بالحديد، ٦٠ مسجداً وبكل مسجد منارة، ٣٦ حماماً، ١٠٠ معصرة للزيت والقصب، ١٦٠ طاحوناً، ٢٥٠٠ حانوت للبضائع، ٥٠٠٠ منسج للثياب، وكان ينسج بها أثواب تسمى «البدنة» تنسج بالذهب، يباع الثوب منها بمائة دينار.

الطعام .. والغذاء

ينادى الطب الحديث بأن الشبع العلمى أو الصحى غير الشبع الشعورى أو الاحساسى.فربما تناول المرء كثيراً مما يؤكل، ولكنه يعد فى العرف الطبى جائعاً لم يستوف حاجته، وذلك لأنه لم يأكل ما يفتقر اليه بناء الجسد.

وإذن فقد أصبح لزاما أن يكون فى اللغة كلمتان للتعبير بواحدة منهما عن المأكولات على وجه عام، وللتعبير بالأخرى عن المفيد الناجع من هذه المأكولات على وجه خاص.

ويحسن بنا أن نجعل كلمة «الطعام» لكل ما يؤكل، وأن نخصص كلمة «الغذاء» للطعام الذى يشبع الجسد إشباعاً صحياً فتكون «الأغذية» هى «الأطعمة» التى تكثر فيها العناصر المطلوبة لتقوية البنية وسلامة الأعضاء.

وفى اللغة ما يؤيد هذا التخصيص، فمن النصوص: غذا الطعام الصبى: نجع فيه وكفاه. والغذاء: ما يغتذى به من الطعام والشراب وطعام غذىّ: قوى الغذاء.



بلاص .. من الذهب

من أروع مشاهدالريف المصرى مشهد القرويات فىالأصائل، ساعيات إلى الغدير، وعلى جوانب رءوسهن الجرار، يتهادين بها فى لباقة وحسن اتزان. وقد فتن بهذا المشهد الفنانون فى الكتابة والتمثيل والتصوير، فامتلأت به القصص والمسرحيات والألـواح الفنية.

والطريف أن هذا المشهد يسجله التاريخ فى عصر من أزهى عصور الأندلس، فى القرن الخامس الهجرى، ويسجل مع ذلك أنه فتن جارية من جوارى القصور فى ذلك العصر، تلك هى «اعتماد» التى كانت أميرة الحظايا فى قصر «المعتمد بن عباد» صاحب «إشبيلية».

وقع نظر «اعتماد» هذه على الفتيات الإشبيليات يحملن الجرار، ويمضين بها إلى النهر، ليملأنها منه، وفى أقدامهن أثر الطين. فاشتهت أن تمشى على الطين كما يمشين، وأن تحمل جرة كما يحملن، فكاشفت «المعتمد» بهذه الرغبة، وأراد هو أن يستجيب لها، فاحتال لذلك بأن أمر بأن تصنع لها جرة من سبيك الذهب، وأن يفرش الطريق إلى النهر بالمسك المعجون بماء الورد ومختلف أنواع الطيب .. وهكذا حقق «المعتمد» لحظيته ما نزعت إليه نفسها من حمل الجرة، والسير على الطين كما تفعل فتيات «إشبيلية»!

هذه هى الكيمياء ..

يقول ابن «الرومى»:



إن للحظ كيمياء إذا ما مس كلباً أحاله إنسانا

وكانت الكيمياء عند الأقدمين مزج المعادن الخسيسة، ومعالجة تحويلها إلى معادن نفيسة، وقد نشأ عندهم علم يسمى علم «الإكسير» أو حجر الفلاسفة، وهى مادة يتخيلون أنها تجعل النحاس فضة، وتجعل الفضة ذهباً ..

ويروى عن الفيلسوف «مسكويه» قوله: «إن الأمر حق وصحيح ، والطبيعة لا تمنع من إعطائه، ولكن الصناعة شاقة، والطريق إلى الاصابة عسرة، وجمع الأسرار صعب!..»

وممن اشتغل بهذه الكيمياء الفيلسوف «أبو زكريا الرازى». كان فى بدء أمره صائغاً، ثم اشتغل بعلم «الإكسير»، فرمدت عيناه، بسبب أبخرة العقاقير المستعملة فى مزج المواد، فذهب إلى طبيب يعالج عينيه، وكان الطبيب يعلم اشتغال مريضه بالكيمياء التى تحيل المعادن إلى ذهب، فقال للفيلسوف الكيميائى: «لا أعالجك حتى آخذ منك خمسمائة دينار...»

فلم يجد «الرازى» بداً أن يدفع ما طلب، فقال له الطبيب ساخراً وقد قبض المال: «هذا هو الكيمياء، لا ما اشتغلت به». وما إن شفى الفيلسوف الكيميائى من رمد عينيه، حتى ترك صناعة الإكسير ... واشتغل بالطب!

الكسكسى

من الأطعمة الطريفة التى يتخذها المصريون، ولا سيما فى ولائم الأعراس فى الأحياء الشعبية، الطعام المسمى «الكسكسى». وقد وصفه الحكيم «داود الأنطاكى» فى تذكرته وأبان فوائده، فقال:

«كسكو: اسم بالمغرب لما يرطب من الدقيق بنحو السمن، ويفتل مستديراً، ثم



يعطى فوار الماء، ويضاف إليه مرق اللحم. وأجوده المأخوذ من خالص دقيق الحنطة المجفف بعد تقويره. وهو حار رطب، كثير الغذاء، إذا أكل بالعسل أو السكر، سمن الأبدان الضعيفة، وولد الدم الجيد ..»

وفى بعض الأقاليم المصرية يسمى «المبروم» ، وفى بعضها يسمى «الكسكاس». وهذه التسمية الأخيرة قديمة يسجلها السيد مرتضى فى كتابه «التاج» منذ نحو مائتين من السنين.

ويرى صاحب «التاج» أن لهذه الكلمة وجهاً فى العربية، فالكسكسة لها معنى الدق الشديد فى رأى بعض اللغويين.

وإذن فاسم هذا الطعام مشتق من تلك المادة، وإن أظهر صفة فيه هى أنه مثل الفتات، فكأنه قد دق دقاً شديداً. ولا يزال المغاربة حتى اليوم أكثر الناس إجادة لصنعه، كما كانوا فى القديم هم الذين ابتدعوه وأشاعوه.

قيمة الوقت..

عرف علماؤنا الأولون قيمة «الوقت» فاعتزوا به، وحرصوا على أن يستنفدوه فيما ينفع، وعبروا عن ذلك فى صور شتى من البيان الرائع. ونثبت هنا كلمات لعالم جليل من أئمة العلماء فى القرن الخامس الهجرى، ذلك هو «أبو الوفاء بن عقيل» الذى عاش حتى تقدمت به السن، وتخرج فى حلقته فحول من الفقهاء والعلماء، فقد كتب بخطه:

«ان أجل محصول عند العقلاء باجماع العلماء: الوقت، فهو غنيمة تنتهز بها الفرص، وأنا أقصر بغاية جهدى أوقات أكلى، حتى أختار سف الكعك واحتساءه بالماء على الخبز، لأجل ما بينهما من تفاوت المضغ، توفرا على مطالعة، أو تسطير فائدة لم أدركها ... وإنى لا يحل لى أن أضيع ساعة من عمرى، حتى إذا تعطل



لسانى عن مذاكرة ومناظرة، وبصرى عن مطالعة، أعملت فكرى فى حال راحتى، وأنا مستطرح، فلا أنهض إلا وقد خطر لى ما أسطره، وانى لأجد من حرصى على العلم وأنا فى عشر الثمانين أشد مما كنت أجده وأنا ابن عشرين سنة!».

القيام لا يؤكل ...

دخل أحد الشعراء على ابن رشد، وهو قاضى القضاة، فتلقاه قائما كما هى عادته فى استقبال زواره، فقال له الشاعر:

قد قام لى السيد الهمام   قاضى قضاة الورى الامام

فقلت: قم بى، ولا تقم لى   فقلما يؤكل القيام ....!

صادق فى دعواه ...

خرج المهدى متنكرا يسير وحده، وترك عسكره فى ناحية، ومر برجل على ماء، فسأله: هل معك طعام؟... فقدم له الرجل طعاما أكل منه، فقال له ومعى شراب أيضا.. فهل لك فيه؟ .. فقال المهدى: نعم. ولما شرب القدح الأول قال للرجل إنى صديق لوزير الخليفة، وسأسأله أن ييسر لك أسبابا تنتفع بها. ثم شرب قدحا ثانيا، وقال: إنى وزير الخليفة، وسأكلم الخليفة، فى شأنك ليكفيك مئونة العيش، ثم شرب قدحا ثالثاً، وقال: أنا نفسى أمير المؤمنين ... فلم يملك الرجل إلا أن يرفع اناء الشراب ويسده، فسأله المهدى: لماذا تضن على بالمزيد؟ .. فقال الرجل: أخاف إن شربت القدح الرابع أن تدعى النبوة؟ .. وهنا جاءت الخيل بالعسكر، وأدرك الرجل أنه بين يدى أمير المؤمنين حقاً، وخشى أن يعاقبه، فمال على الخليفة يقول : لقد



عرفت أنك صادق فى دعواك ولو ادعيت النبوة لكنت أول مؤمن بك! .. فضحك المهدى وأجزل للرجل العطاء، وضمه إلى الندماء.

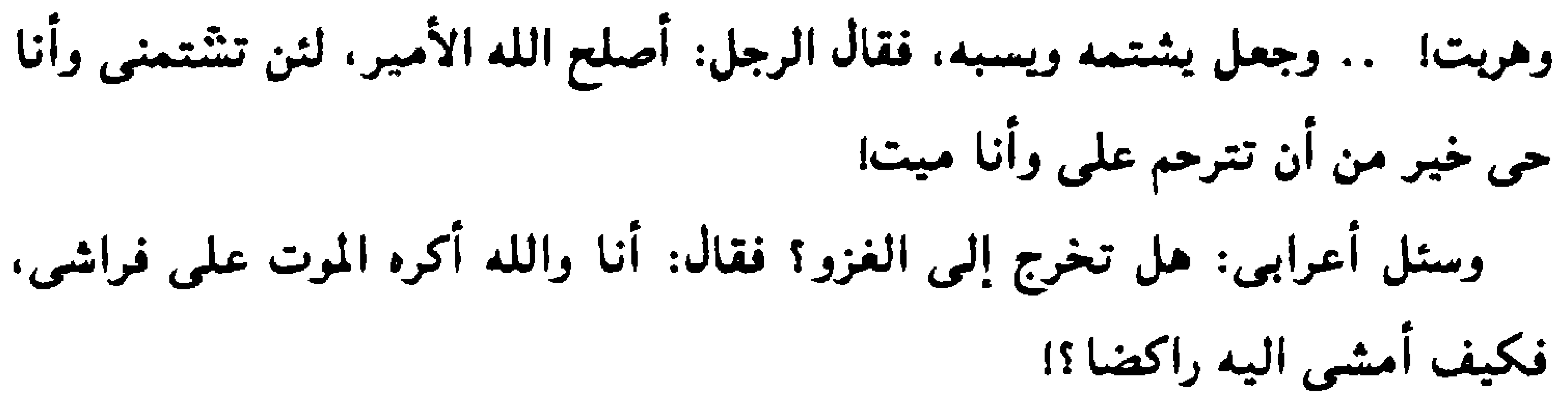
فلسفة الرؤوس

اشتهرت حكاية «سهل بن هارون» - أحد أعيان البخلاء - فى لومه لخادمه على أنه أحضر له الديك دون أن يحضر الرأس معه، فقد أطنب فى مزايا الديك أيما أطناب.. وهناك بخيل آخر هو «أبو عبد الرحمن الثورى» كان يؤثر الرؤوس، ولا يأكل اللحم إلا فى عيد الأضحى أو إذا دعى إلى مأدبة ... مع أنه كان من كبار الاقطاعيين فى عصره!

كان «الثورى» يسمى الرأس: الجامع، وأحيانا يسميه الكامل، ويقول فى تبرير تفضيله: «الرأس شىء واحد، وهو ذو طعوم مختلفة، وألوان عجيبة، وكل طعام فإنما هو شىء واحد، الا الرأس ... فيه الدماغ وطعمه على حدة، وفيه العينان وطعمهما على حده، وفيه الشحمة التى بين أصل الأذن ومؤخر العين وطعمها على حدة، على أن هذه الشحمة خاصة أطيب من المخ، وأنعم من الزبد، وأدسم من السمن، وفى الرأس اللسان وطعمه شىء على حده، وفيه الخيشوم، والغضروف الذى فى الخيشوم، ولحم الخدين، وطعم كل شىء من ذلك على حده!»

فلسفة الجبن

روى الحصرى أن رجلا دخل على أميره منهزما، فقال له الأمير: استسلمت


وهربت! .. وجعل يشتمه ويسبه، فقال الرجل: أصلح الله الأمير، لئن تشتمنى وأنا حى خير من أن تترحم على وأنا ميت!

وسئل أعرابى: هل تخرج إلى الغزو؟ فقال: أنا والله أكره الموت على فراشى، فكيف أمشى اليه راكضا؟!

«المتنبى» الناثر

«المتنبى» عبقرى الشعراء بغير منازع، وإذا كان من الشعراء من نبغ فى الكتابة إلى جانب الشعر، فإن «المتنبى» لا يكاد يؤثر عنه شىء من المنثور إلا أن هذه الرسالة القصيرة التى نسجلها له تثبت أنه كان خليقا أن يبلغ فى الكتابة مبلغه من الشعر ... ومن الطريف أن رسالته هذه من وحى «مصر». فإنه لما نزل بها نالته علة، فكان بعض اخوانه المصريين يكثر الالمام به، فلما تماثل وأبل من علته، قطع زيارته، فكتب المتنبى إليه يعاتبه، ويغريه بأن يزوره: «وصلتنى - أعزك الله - معتلا، وقطعتنى مبلا، فإن رأيت أن تكدر الصحة على، وتحبب العلة إلى، فعلت...».

المتنبى ... لماذا أحب المال؟

كان «المتنبى» يمدح فى شعره الكرم وأهله، وكانت فيه كبرياء وعلو همة، ومع ذلك اشتهر بالبخل، والحرص على المال، وقد قيل له: «إن بخلك ينافى ما تتصف به من خلال، وما تمدح به الناس» فقال أبو الطيب المتنبى:

«إن للبخل عندى سببا .. وردت من الكوفة إلى بغداد فى صباى، ومررت



بفاكهى عنده باكورة بطيخ، فسألته: «بكم يبيع البطيخة؟». فقال غير مكترث: «اذهب فليس هذا من أكلك!». فقلت له: «سألتك عن الثمن، فأجبنى». فقال: «البطيخة بدرهمين». فعرضت عليه خمسة دراهم ثمنا لخمس بطيخات، فلم يقبل.. وإذا شيخ من التجار يسير، فوثب إليه صاحب البطيخ يدعو له ويقول: «يا مولاى، هذا بطيخ باكورة، فهل تأذن لى أن أحمله إلى دارك؟» فساومه الشيخ فى الثمن، وقبل أن يبيع البطيخات الخمس بدرهمين، وحملها إلى داره، ورجع مسرورا بما فعل.. فقلت للفاكهى: «ما رأيت أعجب من جهلك، عرضت عليك خمسة دراهم، فأبيت، وقبلت من ذلك الشيخ درهمين!» فقال لى «اسكت .. ان هذا الرجل يحمل مائة ألف دينار...» فعلمت أن الناس لا يكرمون أحدا إكرامهم من يعتقدون أنه يملك المال الكثير، وأنا لا أزال حريصا على المال حتى أسمع الناس يقولون: أن «أبا الطيب» قد ملك مائة ألف دينار».

وهكذا أثرت تلك الحادثة الواحدة فى نفس «المتنبى» وطبعته بطابع معين فى سلوكه الشخصى لم يفارقه مدى الحياة ..

قصرية وحمارات ...

ليس بدعا ما نشهده اليوم من اختلاف اللهجات بين الأقطار العربية، فذلك قديم متغلغل فى عصور التاريخ ..

ورد «مصر» فى منتصف القرن الثالث الهجرى المؤرخ المعروف «الطبرى» يطلب العلم، وكان وروده من العراق، فلما نزل فى أحد البيوت المصرية قيل له: «انت تحتاج إلى قصرية وزير وحمارين وسدة» فقال «الطبرى»: «أما القصرية فأنا لا ولد لى، وما حللت سراويلى على حلال ولا حرام، وأما الزير فمن الملاهى، وليس هذا



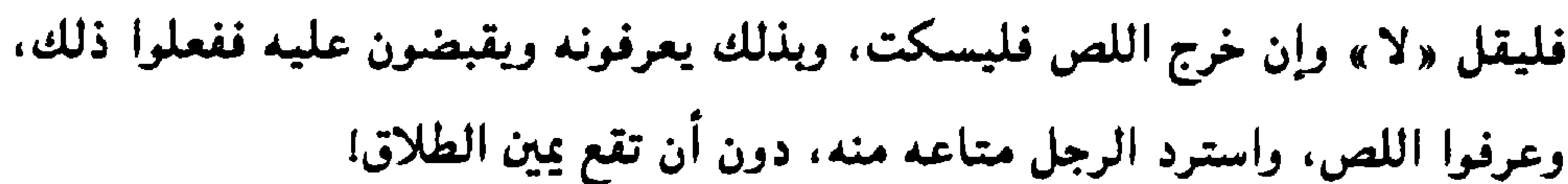
من شأنى، وأما الحماران فإن أبى وهب لى مالا استعين به على طلب العلم، فإن أنفقته فى ثمن الحمارين، فبأى شيء أتعلم؟».

وقد فهم «الطبرى» أن المقصود بالقصرية وعاء البول، وأن الزير هو أحد أوتار العود، وأن الحمار هو الحيوان المعروف ...ولكن المصريين فى ذلك الزمن لم يقصدوا الى هذه المعانى فى مخاطبة «الطبرى» فأفهموه أن هذه الأشياء هى أدوات الاقامة، وأن ثمنها لا يزيد على ثلاثة دراهم، واشتروها له، وجاءوه باناء وطست وأربع خشبات شدوا وسطها بشريط، وقالوا له: «الزير للماء، والقصرية للخبز، والحماران والسدة تنام عليها»!

والعجيب أن كلمة «الحمار» لا تزال تستعمل حتى اليوم فى بعض البلاد المصرية فى معنى القوائم أو الحوامل الخشبية التى توضع عليها الأشياء، وأن كلمة «القصرية» تستعمل الآن للغرض الذى فهمه «الطبرى» ولم يقصد اليه المصريون فى هذا العهد البعيد!

الصمت دليل

دخل اللصوص على رجل من أهل العراق فى الدولة العباسية، فأخذوا متاعه، وأحلفوه بالطلاق على أن يسكت ولا يبلغ أحدا بما صنعوه به، فحلف الرجل وهو صاغر، وفى الصباح كان اللصوص يبيعون متاعه أمام عينيه جهرة وهو لا يستطيع الكلام، حتى لا تطلق امرأته .. فذهب إلى الإمام «أبى حنيفة» يستفتيه فى أمره، فأشار على كبراء قومه وأهل الصلاح منهم بأن يجمعوا كل من يظنون بهم الفساد واللصوصية فى مسجد أو دار، وأن يقف هذا الرجل الذى سرق اللصوص متاعه بالباب، فكلما خرج واحد من هؤلاء سألوا الرجل: أهذا هو اللص؟ فإن لم يكن



فليقل «لا» وإن خرج اللص فليسكت، وبذلك يعرفونه ويقبضون عليه ففعلوا ذلك، وعرفوا اللص، واسترد الرجل متاعه منه، دون أن تقع يمين الطلاق!

العدل ... لا الحب

كان فى مجلس أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان رجل من خصوم الدولة الأموية، فقال الرجل لعبد الملك: «والله إن قلبى لا يحبك أبدا!». فقال له «عبد الملك»: «انما يبكى على الحب النساء، فليكن ما بينى وبينك العدل والإنصاف».

عاشق الربيع

يهتف الناس بالربيع، ويشيدون بعهده، ويظهرون الاستمتاع ببهجة أزهاره، وطيب رياحينه .. ولكن أحدا منهم لم يبلغ من تعشق الربيع والشغف به، بل من عبادته وإظهار النسك له، ما بلغه حائك فى أيام «المأمون» فقد دون «ابن حجة» ان هذا الحائك كان يعمل السنة كلها، لا يتعطل فى عيد ولا فى جمعة، فاذا ظهر الورد طوى عمله، وغرد بصوت عال:

طاب الزمان وجاء الورد فاصطحبوا ... ما دام للـــورد أزهـــار ونـــوار

فإذا شرب مع ندمائه على الورد، غنى:

أشرب على الورد من حمراء صافية ... شهرا وعشرا وخمسا بعدها عددا

ولا يزالون فى شرب الصباح والعشى، ما بقيت وردة ..

فإذا انقضى الورد، عاد إلى عمله، وغرد بصوت عال:

فإن يبقنى ربى إلى الورد أصطبح ... وإن مت والهفى على الورد والخمر



ولما علم الخليفة «المأمون» بأمره، قال: لقدنظر هذا الرجل إلى الورد بعين جليلة، فينبغى أن نعينه على هذه المروءة» ..ثم أمر بأن يدفع لهذا الحائك فى كل سنة عشرة آلاف درهم فى زمن الورد!

نسوى ونسائى

كثيرا ما تكتب الصحف: النهضة النسائية، والمطالب النسائية.

ولكن «وزارة المعارف» المصرية تسمى بعض مدارسها باسم «التربية النسوية» وكانت إلى زمن قريب تسمى بعض مدارسها باسم «الثقافة النسوية» فأيهما أرجح: النسوى أم النسائى؟

يقول جهابذة اللغة: إن« النساء» و«والنسوة» - و«النسوان» أيضا - جموع للمرأة لا واحد لها من لفظها. بيد أن «ابن سيدة» فى «المحكم» يقول: إن النساء جمع نسوة، وأن النسوة جمع امرأة، فالنساء جمع الجمع.

ويبدو أن «سيبويه» زعيم هذا الرأى، فهو يرتب عليه أن النسبة إلى نساء: نسوى، وبذلك يرده إلى مفرده حين ينسب إليه، وفقا للقاعدة الغالبة فى النسب، وهى أن تكون النسبة إلى المفردات لا إلى الجموع .. فمن شاء الا يقض مضجع «سيبويه» فليقل: «نسوى»، بكسر النون وسكون السين!

محاضرات ... فى البيوت

كان «السيد مرتضى الزبيدى» من كبار العلماء فى القرن الثامن عشر، وهو صاحب كتاب «تاج العروس» الذى يعد من أوفى المراجع اللغوية وأكثرها



استفاضة.

وقد مضى «الزبيدى» أكبر عمره فى «القاهره». قدمها شابا، ولبث بها حتى توفاه الله، ولما اشتهر علمه، وذاع صيته، كان الكبراء والأعيان من أهل «القاهرة» يطلبونه فى بيوتهم، ويقيمون له المآدب الفاخرة، ليستمعوا إليه محاضرا فى ألوان المعارف والعلوم.

وكان رب البيت يدعو أصحابه وأحبابه، فيحضر الشيخ مع خواص تلاميذه، ويلقى محاضراته العلمية، فتستمتع اليها أسرة الداعى من بناته ونسائه من خلف الستار، وتدور على الجمع مجامر البخور بالعود والعنبر أثناء القاء الدرس.

وكانت العادة أن يكون مع الشيخ اثنان: المستملى، وكاتب الأسماء، فالأول يكتب المحاضرة التى تلقى فى ذلك الحفل الحاشد، والآخر يسجل أسماء الحاضرين والسامعين، حتى النساء والصبيان، واليوم والتاريخ، ويوقع الشيخ فى ختام المحضر بصحة ذلك.

ساعة ميدان ... فى القرون الوسطى !

كان فى ميدان الجامع الأموى فى دمشق باب يسمى «باب الساعات» وقد وصف الرحالة «ابن جبير» فى القرن السادس الهجرى ساعة عجيبة هنالك، لها هيئة طاق كبير مستدير، وفى الطاق أبواب صغار على عدد ساعات النهار، فيها أدوات وتماثيل من نحاس، وهى مدبرة تدبيرا هندسيا لتعيين الأوقات، فعند انقضاء ساعة يبدو على أحد الأبواب صقران قائمان على طاسين، فيقذفان بندقتين، فيسمع لسقوطهما على النحاس دوى، وينغلق الباب، وهكذا حتى تنغلق الأبواب كلها بانقضاء ساعات اليوم .. ولهذه الساعة تدبير آخر فى الليل، اذ ترى اثنتى عشرة



دائرة فوق الأبواب، وراء كل دائرة زجاجة، وخلف الزجاجة مصباح يدور به الماء، فاذا انقضت ساعة، عم الزجاجة ضوء المصباح، ولاحت للأبصار دائرة حمراء، ويستمر ذلك حتى تحمر الدوائر كلها بانقضاء ساعات الليل.

وبذلك يستطيع السالك بالنهار أن يعرف كم مضى من الوقت حين يعد الأبواب المغلقة من تلك الساعة، أما السارى بالليل فيعرف ذلك حين يعد الدوائر المحمرة!

الأقصوصة ... خدعة لغوية

تواضع الكتاب على استعمال كلمة «الأقصوصة» للدلالة على القصة القصيرة... ويسعنى الآن، بعد سفر طويل فى المصادر والأصول، القول بأن كلمة «الأقصوصة» لم ترد فى فصيح العربية خلال القرون الغابرة، وأن استعمالها فى العصر الحديث ... كان خدعة لغوية!

قالت اللغة حقا: «الأقاصيص» ... فلم يجد الكتاب فى نصف القرن الماضى عناء فى أن يستعملوا المفرد فى هذا الجمع، ووقع فى وهمهم أنه «الأقصوصة» فأشاعوها فى سهولة ويسر.

ليست «الأقاصيص» جمع «أقصوصة»، وإنما جمع العرب القصة على «قصص» و«أقاصيص».

وعلى هذه الصيغة ترد كلمات يتوهم الناس فى مفردها ما توهموه فى «الأقاصيص»، فهناك كلمة «الأباطيل» ومفردها: باطل، و«الأحاديث» ومفردها: حديث، و«الأعاريض» ومفردها: عروض ...

وعلماء اللغة يقولون فى هذا أن العرب لم يراعوا فى بعض الأسماء أن يجمعوها على مفردها المستعمل، بل تحملوا لها لفظا آخر، فجمعوها على ما يستعمل.

ووفقا لهذا قال العرب: الأقاصيص، ولكنهم لم يقولوا: الأقصوصة.



رتل السيارات

تقول الصحف: «أقبل رتل من السيارات»

ويفهم من سياق العبارة أن الرتل هو الطائفة أو الصف .. فهل الأمر كذلك؟

مادة «الرتل» - بفتح التاء - تدل في اللغة على الاستقامة والتناسق والانتظام، فتقول: ثغر رتل، إذ كان مستوى الاسنان، حسن التنضيد، ومنه: الترتيل في القراءة، وهو ارسال الكلام بسهولة وحسن استقامة.

فالرتل من السيارات تعبير مقبول على أنه انتظام ركب السيارات.

الشعر لا يترجم ...

الجاحظ يسجل في كتابه« الحيوان» - الذي الفه في النصف الأول من القرن الثالث الهجري - فقرأت تدل على أن عصره كان يؤمن بالحقائق التالية: أن الشعر لا يترجم، وإذا ترجم فقد روعته، وأن الناس يحتاجون إلى الثقافة الذهنية والمعاشية، لا الشعر، وأن أشعار العرب لو ترجمت لما كانت شيئا! وإليك الفقرات التي تجلو لك هذه الحقائق.

«... الشعر لا يستطاع أن يترجم، ولا يجوز عليه النقل، ومتى حول تقطع نظمه، وبطل وزنه، وذهب حسنه، وسقط موضع التعجب منه.

والكلام المنثور المبتدأ أحسن وأوقع من المنثور الذي تحول من مرزون الشعر ... وجميع الناس يحتاجون إلى الحكم في الدين، والحكم في الصناعات، وإلى كل ما أقام المعاش، وبوب أبواب الفطن، وعرفهم وجوه المرافق، حديثهم كقديمهم، وأسودهم



كأحمرهم، وبعيدهم كقريبهم، والحاجة إلى ذلك شاملة لهم ... ولو حولت حكمة العرب لبطل ذلك المعجز الذى هو الوزن ... فقد صح أن الكتب أبلغ فى تقييد المآثر من الشعر ...».

بلغ أشُده

يقول الكاتب مثلا: «بقى فى وطنه حتى بلغ أشُده».

فما المقصود بهذه العبارة؟ وما تفسير «الأشُد» بضم الشين؟ يدل تعبير «بلوغ الأشد» على ثلاثة أوجه:

الأول: الإدراك والبلوغ، وقد يكون بين العاشرة والخامسة عشرة.

الثانى: أن يؤنس الرشد من الإنسان، وهو سن الثامنة عشرة.

الثالث: اجتماع القوة وازدهار الشباب، أو انتهاؤه. وذلك فيما بين الثامنة عشرة والثلاثين، أو فيما بين السابعة عشرة والأربعين.

وبهذه الأوجه الثلاثة على اختلافها فسرت آيات مختلفة من القرآن، بحسب موقع كل آية، ودلالتها فى الجملة.

أجواز الفضاء

يقول الكاتب مثلا: «حلق الطائر فى أجواز الفضاء». فما هى الأجواز؟ تقول اللغة: الأجواز جمع جوز، وله معنيان:

الأول: وسط الشىء، فتقول: قام من جوز الليل يصلى، أى قام من وسطه، وتقول: أجواز الإبل، تريد أوساطها.



والمعنى الآخر: معظم الشيء فتقول: مضى جوز الليل، أى معظمه، وقطعت جوز الفلاة، أى أكثرها.

فأجوازالفضاء يقصد بها وسط الجو، أو معظم ما يبدو منه للعيون.

خبراء ... فى اللصوصية !

عندنا خبراء فى التشريح الجنائى، وفى مضاهاة الخطوط، وفى شتى النواحى التى يفتقر الكشف عن حقائقها إلى خبرة ومعرفة .. فلماذا لا يكون لدينا خبراء فنيون فى اللصوصية يرشدون رجال الأمن إلى حيل اللصوص التى يتخذونها فى السلب والنهب؟

كان ذلك فى بعض العهود الغابرة للأمة العربية ...

فى كتاب «المسعودى» المسمى «مروج الذهب» أنه اذا تقدمت السن باللصوص، ولم يستطيعوا ممارسة المهنة، رفعوا إلى الدولة رغبتهم فى التوبة، فقبلت الدولة توبتهم، وأطلقت عليهم لقب «التوابين»، ثم جعلت منهم خبراء فنيين، إذا حدثت حادثة من سلب أو نهب أو اختلاس، دعوهم إلى بحث أسرارها، فيعرفون من اقترف هذه الحادثة، ويدلون عليه.

وكان الخليفة العباسى «المعتضد» يعول على هؤلاء التوابين فى كشف السرقات، وله معهم أقاصيص!

وفى كتاب «ألف ليلة» ما يشير إلى أن بعض البلاد العربية - كالقاهرة وبغداد - كانت تتبادل هؤلاء الخبراء الفنيين للاستعانة بهم فى مشكلات اللصوصية!



قصر لمن ينسخ الكتب !

كان الوزير «على بن مقلة» مضرب المثل فى جودة الخط، وكان له أخ يسمى «أبا عبد الله» حسن الخط مثله، وقد أقام «أبو عبد الله» عند «سيف الدولة»، وانقطع لخدمة «بنى حمدان» ينسخ الكتب، واستمر فى عمله سنين.

ويقص «ياقوت» من نبأ هذا الرجل أن الدولة الحمدانية كانت تقوم بأمره خير قيام، فخصصت له دارا واسعة حسنة، وجهزتها بالفراش والرياش، وأعدت فيها مجلسا للكتابة، فإذا ضاق صدره بالنسخ نهض يتمشى فى الدار، وطاف على جوانب البستان، ثم يعود إلى مجلسه، فينسخ ما يخف عليه، وقد اجتمع فى خزائن الحمدانيين من خط «أبى عبد الله بن مقلة» مالا يحصى من الأوراق ...

الست ... فلانة !

تكتب الصحف: السيدة فلانة، ويقول الناس فى لهجتهم الدارجة الست فلانة. وواضح أن كلمة «الست» مُحَرفة عن كلمة «السيدة»، إذ حذفت بعض حروفها بكثرة الاستعمال، طلبا للاختصار.

على أن «الست» قديمة فى تاريخ الأمة العربية، وبها لقبت بعض المشتغلات بالعلم والسياسة، فى عصور سحيقة، وصغرت كلمة «الست» على «ستيتة»، ويستعمل هذا التصغير فى تسمية بعض النساء فى مصر إلى اليوم، ولا سيما فى الصعيد.

وقد أراد بعض اللغويين أن يدلل على أن كلمة «الست» ليست محرفة عن



«السيدة»، وإنما هى ذات معنى خاص، فالذى يقول: يا ستى، يريد أن يقول: يا ست جهاتى، تكريما واكبارا، وكناية عن تملكها له من كل ناحية، فالجهات الست هى: أمام، وخلف، وفوق، وتحت، ويمين، وشمال!

وفى ذلك يقول «البهاء زهير»:

بروحى من اسميها بستى   فينظر لى النحاة بعين مقت
يرون بأننى قد قلت لحنا   وكيف واننى لزهير وقتى
ولكن غادة ملكت جهاتى   فلا لحن اذا ما قلت ستى

ويبدو أن التعبير بالجهات الست عن التملك والسيطرة تعبير قديم، فقد وقفت على بيتين للنظام هما:

حبى لعمرو جوهر ثابت   وحبه لى عرض زائل
به جهاتى الست مشغولة   وهو إلى غيرى بها مائل

ويرى بعض الباحثين أن كلمة «الست» معناها فى الهندية: العفاف... فهل أخذت كلمة «ستى» عن الهندية؟

اقتل الهواء ...

قال «الاسكندر» لأستاذه «أرسطو»:

- لقد أعيانى أهل العراق، ما أجريت عليهم حيلة الا وجدتهم قد سبقونى إلى التخلص منها، فلا أستطيع الايقاع بهم، ولا حيلة لى معهم الا أن أقتلهم عن آخرهم، فماذا تقول؟

فأجابه «أرسطو»:

- لا خير لك فى أن تقتلهم، ولو أفنيتهم جميعا ... فهل تقدر على الهواء



الذى غذى طباعهم وخصهم بهذا الذكاء؟ فإن ماتوا ظهر فى موضعهم من يشاكلهم، فكأنك لم تصنع شيئا! ..

الجاحظ واللغة العامية

مازال النقاد مختلفين يتساءلون: «هل تكتب المسرحيات الشعبية بالعامية أو بالفصحى؟»

وللجاحظ، شيخ الأدب العربى، رأى فى مثل هذه المشكلة، اذ روى فى كتابه «الحيوان» حكاية جاء فيها:

«إن كنت سبع، فاذهب مع السباع، وإن كنت بهيمة فاسكت عنا سكوت البهائم...».

وعلق «الجاحظ» بقوله: «ولا تنكر قولى وحكايتى عنه بقول ملحون، إذ قلت: إن كنت سبع، ولم أقل: إن كنت سبعا ... فإن الإعراب يفسد نوادر المولدين، لأن سامع الكلام إنما أعجبته تلك الصورة وتلك اللغة وتلك العادة، فإذا أدخلت حروف الإعراب والتحقيق والتثقيل، وحولته إلى صورة الفاظ الأعراب الفصحاء، انقلب المعنى، وتبدلت صورته ...».

فلو تخيلنا «الجاحظ» فى عصرنا هذا يناقش مشكلة لغة المسرحيات الشعبية، لكان رأيه أن تكتب بالعامية، حتى لا ينقلب المعنى وتتبدل صورته، أو بتعبير فنى: حتى تدل لغة المسرحية على معالم الشخصيات دلالة واضحة سريعة ...







جواب «مسوجر» ...

يستعمل الناس فى كلامهم الدارج عبارة «الجواب المسوجر» للتعبير عن الرسالة التى تتسلمها إدارة البريد بسند، فلا تسلمها لمن أرسلت إليه إلا بعد توقيعه ..

وأما الكلمات الفصيحة التى تستعمل فى هذا الصدد فتختلف ... الصحف المصرية تقول: البريد المسجل، والدواوين الحكومية المصرية تقول: البريد الموصى عليه، وفى كثير من البلاد الشرقية يقال: البريد المضمون ...

والعبارة الدارجة على ألسنة الناس افصح من هذا كله، وأولى بالاستعمال تقول اللغة: المسوجر: المقيد، وهو اشتقاق من الساجور، ومعناه القيد، فالسجورة إذن هى التقييد.

ومن الاصطلاحات العلمية المتقابلة المقيد والمهمل، وهذا هو الشأن فى الرسائل البريدية، فهى نوعان، أحدهما مهمل لا يسجل له رقم، ولا تترتب عليه تبعة، والآخر مقيد فى سجل خاص تترتب عليه تبعات...

فكلمة «المسوجر» دقيقة فى أداء هذا المعنى ... ولا مسوغ للتحرز من استعمالها على أقلام الكتاب الفصحاء!

ولعل السر فى أن الكتاب لم يستعملوها هو اشتباهها بالكلمة الأجنبية: «السيكورتاه» بمعنى التأمين ... فظنوا أن العامة أخذوها من الكلمات الدخيلة، وفى وسعنا الآن الظن بأن الكلمة الدخيلة هى التى اخذت من كلمة «السوجرة» المستعملة فى اللغة العربية من قديم الزمان!

مطبعة أندلسية ...

لسنا نحن، أبناء هذا القرن، أول من استعمل فى اللغة العربية كلمة «الطبع»



لذلك المعنى العصرى الذى عرفناه باتخاذ «المطبعة» الحديثة ... الاندلسيون قبل نحو ألف سنة، استعملوا هذه الكلمة، لأنهم عرفوا نوعا من الطباعة، واتخذوه فى الأعمال الديوانية...

فى عهد «الناصر» كان وزيره «عبد الرحمن بن بدر» ينفرد بالولايات، فتكتب السجلات فى داره، ثم يبعثها للطبع فتطبع،وتخرج اليه، فتبعث فى العمال، وهم حكام الأقاليم ...

ويحدثنا «لسان الدين بن الخطيب» عن «أبى بكر القدسى الأندلسى» فيقول: أنه الف كتابا فى أنواع المداد وآلة الطبع غريبا فى معناه ...

واذن فقد استعملت كلمة «الطبع» و«آلة الطبع» لنوع من الطباعة فى الأندلس... قبل اختراع المطبعة الحديثة بمئات السنين!

رمـــوز...

قال الجاحظ: «سألنى بعضهم كتابا بالوصية الى بعض أصحابى، فكتبت له رقعة وختمتها، وكان ما كتبته فيها: كتابى إليك، مع من لا أعرفه، ولا يستوجب له حقا عندى، فإن قضيت حاجته لم أحمدك، وإن رددته لم أذمك!

وبعد قليل رجع الرجل إلى وفى يده الكتاب، فقلت له: «كأنك فضضت الورقة».

فقال الرجل: «نعم».

فقلت له: «لا يضيرك ما قرأت، فإنه علامة بينى وبين صديقى هذا اذا أردت منه أن يعنى بشخص»

فقال الرجل: «قطع الله يدك ورجلك ولعنك!».



فقلت له: «لا تسبنى؟».

فقال لا يضيرك قولى، فإن هذا علامة لى إذا أردت أن أشكر شخصا!»

أبو البنات ...

طالما حمل الآباء هم ولادة البنات، وضاقوا بهن، لما كانوا يخشونه عليهن من مكاره الحياة ...

وكان العرب الأولون يكرهون أن يأكلوا طعام صاحب البنات، كأنما يؤثرون أن يرجع به الأب على بناته، فهم لا يكلفونه أن يكون كريما يطعم الناس ..

وفى فجر الإسلام اجتمع الصحابة على أن الأب الذى تكون له بنات ثلاث لا تطلب منه صدقة، ولا يفرض عليه جهاد، وحسبه أن يجاهد فى سبيل بناته ..

ومما يروى عن «الحسين بن على» أنه قال: «والد البنت الواحدة متعب ... فمن كانت له بنتان اثنتان فهو مثقل .. وأما والد البنات الثلاث فعلى الناس أن يعينوه!».

أقدم ناد ثقافى!

منذ ثلاثة عشر قرنا أنشىء فى «مكة» ناد ثقافى، فيه جد وفيه لعب ... يختلف إليه الرواد، فيصيبون فيه علما ومعرفة، كما يرفهون عن أنفسهم ببعض اللعب التى فيها رياضة ذهنية ..

وإليك ما يسجله «الاصفهانى» فى وصف هذا النادى الذى يعد أقدم زاد ثقافى، على أحدث طرازا .. قال فى كتاب الأغانى:





«اتخذ عبد الحكيم بن عمرو بن عبد الله بن صفوان الجمحى بيتا فى مكة، وجعل فيه شطرنجات ونردات ودفاتر من كل علم، وجعل فى الجدار أوتادا، فمن جاء علق ثيابه على وتد منها، ثم جر دفترا فقرأ، وأخذ بعض ما يلعب به، فلعب مع من يشاء من الرفاق».

العائلة ... والأسرة

يتحرز بعض الكتاب من استعمال كلمة «العائلة»، ويضعون مكانها كلمة «الأسرة» .. وليست كلمة «العائلة» من لغة العصر الحديث، فقد استعملت فى عصور قديمة، وممن استعملوها «أبو الفرج بن الجوزى» فى القرن السادس، وذلك فى كتابة «الاحاطة» ...

ويرى استاذ الجيل «أحمد لطفى السيد» اننا محتاجون إلى كلمة «العائلة» وكلمة «الأسرة» معا .. على أن يكون لكل منهما مدلول خاص.

فالعائلة ينبغى ألا تشمل إلا الزوجين وأولادهما فقط، فلا تدخل فيها أخوة الرجل وعمومته وخؤولته. والوحدة الاجتماعية، وهى الرجل وزوجه وأولاده، ينبغى أن تقابلها فى اللغة وحدة لغوية ... وأما الأسرة فتشمل الأهل من الأخوة والأعمام والاخوال وما يتفرع منهم جميعا ...

ولا مانع فى اللغة من استعمال كلمة «العائلة» أى الوحدة الاجتماعية التى تعول نفسها، وفى اللغة: عيل وعيال وعائل، فلنضع لفظ «عائلة» كما صغنا: باخرة وبارجة، وكما صاغ العرب: لابن، أى ذولبن، وتامر، أى ذو تمر ... فالعائلة إذن: وحدة ذات عيال، تعول نفسها.



يخشى على أرنبة أنفه ...

كان «أبو هفان» من الأدباء الذين يزاولون التأليف فى العصر العباسى الأول، وكان «الجاحظ» يتناوله فى كتبه بما يسوء، فقيل «لأبى هفان». «لقد أطال الجاحظ» ذكرك، فلم لا تهجوه، وقد ندد بك وأخذ بمخنقك؟». فأجاب «أبو هفان»:

«أمثلى يخدع من عقله؟ والله لو وضع «الجاحظ» رسالة فى أرنبة أنفى لما أمست الا بالصين شهرة ... ولو قلت أنا فيه ألف بيت لما ظن منها بيت فى ألف سنة!»

وهكذا كان أهل الأدب يخشون شهرة «الجاحظ» ويتحامونه، فلا يبادلونه ما ينالهم به من قوارص القول!

نسائى ... وإن غضب «سيبويه» !

اشرنا فى مقال مضى إلى أن «سيبويه» يرى أن النسبة إلى نساء: نسوى، وقلنا: من شاء ألا يقض مضجع إمام النحويين فليقل نسوى، لا: نسائى ...

ولكننا عثرنا فى تاريخ الدولة الأموية - فى القرن الأول الهجرى - على أسرة تدعى أسرة ابن يسار النسائى، سميت كذلك لأن «اسماعيل بن يسار» كان يصنع طعام الأعراس ويبيعه، فنسب إلى النساء.

وإذن فقد قال العرب الأولون" «نسائى» فى عصر متقدم، صالح للاستشهاد به، والاحتجاج بما يؤثر عنه، وهذا نص لا شك فيه، ولا خلاف عليه. فلنقل «نسوى» إن شئنا ... ولنقل «نسائى» أيضا وإن غضب «سيبويه»!



مرفت ... والحج !

استطرف الناس فى «مصر» اسم: «مرفت»، فتراهم يطلقونه على الإناث، وقد شاع بينهم شيوعا ملحوظا فى هذه الأيام، وان كان معناه غريبا قلما يعرفه الناطقون به، فحسبه عندهم أنه لطيف الجرس، مأنوس الحروف، طريف الصيغة ..

هذا الاسم منقول عن التركية، ولكنه ليس فى لغتهم أصيل المنبع، فما هو الا كلمة عربية وأخذها الأتراك فيما أخذوا، وحرفوها وفق لهجتهم كما يفعلون بسائر الكلمات، ثم أشاعوها بينهم على الوجه الذى ارتضوه، ثم أورثونا إياها على حالتها من التحريف.

هو اسم مقدس، يعرفه حجاج بيت الله الحرام، لأنه علم على أحد الجبلين المشهورين فى مكة المكرمة، أعنى: المروة، والجبل اسمه: الصفا، والحجاج يسعون بين ذينك الجبلين طوعا لشعائر الفريضة.

وقد استهوى الاتراك هذان الاسمان، وكانوا يتبركون باطلاقهما على الأبناء من بنين وبنات، فجعلوا للذكور اسم: صفا، وللإناث اسم: مروة وهم فى لهجتهم ينطقون الواو فاء ويقفون على الهاء بتاء ساكنة، فيقولون: مرفت كما يقولون حكمت .. وقلنا معهم كما قالوا، بيد أن لهم عذرهم فيما حرفوا، فما عذرنا نحن فيما نقول؟!..

أدب

كان «شعيب القلال» ماهرا فى صناعة القلل، فأحب «الرشيد» أن ينظر إليه كيف يعمل، فدعاه إلى القصر، ومعه كل ما يحتاج إليه من آلة العمل، فبينما هو



قد شرع يعمل، إذ دخل «الرشيد» عليه، فنهض «شعيب» قائما، فقال له «الرشيد»:

- اجلس وخذ فيما أنت فيه .. فإنى لم آتك لتقوم لى، بل لتعمل بين يدى ...

فقال له «شعيب»:

وأنا أصلحك الله لم آتك ليسوء أدبى، وانما آتيتك لأزداد أدبا! فأعجب «الرشيد» به ...

أطيب من طعام أمير المؤمنين ...

صنع الخليفة «عبد الملك بن مروان» طعاما، فأكثر وأطيب، ودعا الناس فأكلوا، فقال بعضهم: ما أطيب هذا الطعام وما أكثره! وقال آخر: ما أظن احدا أكل أطيب منه ولا أكثر. فقال أعرابى كان ممن حضروا هذه الوليمة: إنى حقا لم آكل أكثر مما أكلت الآن، وأما أن هذا أطيب ما أكلت فلا ... فإنى أكلت أطيب منه، فانبعث القوم يضحكون من قول الاعرابى، وأشار إليه الخليفة، فدنا منه، فسأله: كيف أكلت أطيب من طعامى هذا! قال: نعم يا أمير المؤمنين، إنى اقيم فى «هجر» وقد أورثنى أبى فيها نخيلا، ومن بين هذا النخيل لم ير تمر قط أغلظ لحما ولا أصغر نوى ولا أحلى حلاوة منها، وكانت أتان وحشية قد الفت تلك النخلة، تأتى إليها، فتثبت رجليها، وترفع يديها، وتميل بفمها، فتكاد تنفد ما فيها من التمر. فحملت قوسى وأسهمى وزندى، وذهبت اتصيدها، حتى إذا كان وقت السحر رأيتها فرميتها فأصبتها، ثم اقتطعت منها بعض لحمها وشحمها، ثم عمدت إلى حطب جزل فجمعته، وإلى حصى غليظ فوضعته، وإلى زندى فاقتدحت منه النار، ثم القيت اللحم على الحطب وفوقه الحصى، ثم ادركنى النوم، فلم استيقظ إلا وحر الشمس



يلسعنى، فقمت اكشف عن اللحم، والقى عليه من رطب تلك النخلة، فأسمع لها غطيطا كصوت النائم، ثم أقبلت أتناول الشحمة واللحمة والتمرة ... وما ذقت أطيب منها!

فقال «عبد الملك»: لقد أكلت طيبا ..

أحسنت !

كان «الفتح بن خاقان» مع الخليفة «المتوكل» يتنزهان، فرمى الخليفة عصفورا يريد اصطياده، فأخطأه، فقال «الفتح»:

- أحسنت يا أمير المؤمنين!

فدهش الخليفة من قوله، ونظر إليه نظرة غاضبة، وكأنه يستنكر منه أن يتهكم به، لخطئه من محاولة اصطياد العصفور، فأسرع «الفتح» يقول للخليفة:

- أريد يا أمير المؤمنين أن أقول انك أحسنت إلى الطائر .. حتى سلم! فضحك «المتوكل» وسرى عنه ..

ألفاظ عامية من صميم الفصحى

منذ نصف قرن أو يزيد، وبعض الكتاب - فى الفينة بعد الفنية - يدعون إلى استعمال اللغة العامية فى الكتابة، كما تستعمل فى التخاطب والحديث ومن الإنصاف التى نقول أن اللغة العامية ألفاظا هى من صميم الفصحى. ونقدم هنا بعض الأمثلة:



سواق ... وبياع !

نحن نكتب الألقاب التالية: بائع، وسائق، وخادم ... والناس فى حديثهم يقولون: بياع، وسواق وخدام.

وليس الناس على خطأ فيما يتحدثون به، فإن قواعد العربية لا تأبى هذه الصيغ، بل إنها مستعملة بعينها فى كتب الأدب والتاريخ، وشواهدها أكثر من أن تحصى ... وبقى أن تسأل الكتاب لماذا يترفعون عن استعمال الصيغ التى يستخدمها الناس، ما دامت فصيحة صحيحة؟!

شيال ... وبطال !

يقول العامة : شيال لمن يحمل الحقائب وكذلك يقولون: بطال، فى وصف الرجل السيء، أو المتعطل. وكتابنا حين يعبرون عن «الشيال» يقولون: حمال. وكذلك هم حين يعبرون عن «البطال» يقولون متعطل، أو سيء السلوك، وهذا على حين أن كلمة «شيال» فصيحة، فهى من: شال الشيء، إذا رفعه. وأما كلمة «بطال» فهى من البطالة أى اللهو والعبث، ونثبت هنا كلمة للفيلسوف «ابن رشد» يسجل فيها استعمال كلمة «بطال» فهو يقول فى كتاب الخطابة: «فإن كان انسان بطالا، أو عاطلا، أشار بتنحيته عن البلد».

فهل يستطيع كتابنا أن يجيبوا: لماذا لايستعملون كلمتى «شيال» و«بطال».



... وعوامة !

وقد ظلت الصحف خلال الصيف تتحدث عن تلك السفن الراسية على ضفة النيل، وهى التى يسميها الناس أحيانا: الذهبيات، وأحيانا: العوامات، وكانت الصحف فى حديثها عنها تأبى الا أن تقول: عائمة، لا: عوامة ... وأشد اللغويين محافظة وتحرزا لا يستطيع أن يؤيد الكتاب فى إغفالهم كلمة «العوامة» وايثارهم كلمة «العائمة» عليها، ولو ذهبنا فى التعليل والتوجيه مذهبا بعيدا لوجب أن تقول أن «عوامة» أدق وأولى بالاستعمال فى هذا المقام من كلمة «عائمة»!

موته ... وسيبه !

يقول العامة مثلا: ضربه حتى موته، فيأبى الكتاب الا أن يقولوا: ماته، لا موته، والشاعر يقول:

يموتنى شوقى ويحيينى المنى فلست بحى فى الحياة ولا الردى

وإذا قال العامة: سيبه ... جاء الكتاب الفصيح، فترجم هذا اللفظ بقوله: تركه.

واسماعين !

ويسمى الناس: «اسماعيل»: «اسماعين» بالنون بدلا من اللام، وقديماً قال اللغويون: اللام والنون تتعاقبان على لفظ واحد، وهما أختان والشاعر يقول:

قالت جوارى الحى لما جينا هذا ورب البيت اسماعينا

فمن شاء من الكتاب أن يكتب «اسماعين»، فلا تثريب عليه ..



وعلى غفلة !

ومن أساليب العامة فى حديثهم قولهم: جاء على غفلة، أو سقط على غفلة، والكتاب يتحرزون من مثل هذا التعبير، وهو من ناحية اللغة واضح السلامة، ولكننا نضيف إلى ذلك أنه تعبير قديم، وقد نقله ياقوت فى معجم الأدباء، إذ جاء فى ص ١٢٠ من الجزء الثالث عشر قوله:

«فأنا على غفلة، إذ دخل فى خف وازار ...».

وعمل عملة !

ومن الكلمات العامية أيضا: «عمل فلان عملة»، ولا يكون هذا إلا فى الشر والأذى، أى أنه فعل فعلة قبيحة. وقد قرأت لابن الجوزى هذا التعبير فى كتابه «الأذكياء» فهو يقول - فى القرن السادس الهجرى، قبل ثمانية قرون: «فعمل اللصوص فى أيامه عملة عظيمة...».

ومجلس حظ !

والناس فى أحاديثهم العامية يقولون: كنا فى ساعة حظ، وكنا فى مجلس حظ... ولو سألت كاتبا أن يعبر عن هذا المعنى لما رضى عبارة العامة، ولقال لك: ساعة أنس مثلا أو مجلس استمتاع، أو ما يجرى هذا المجرى، ولكن هذه العبارة العامية الخليفة الشاعر «ابن المعتز» فهو يصف مجلسنا فيقول: «كان لنا مجلس حظ!..».



طبيب عيون

كثيرا ما يقترن الطب والأدب فى التاريخ القديم والحديث، فنرى اطباء أدباء فى آن.

وقد كان طبيب العيون فى العصور العربية الخالية يسمى «الكحال» ... ويذكر تاريخ القرن السابع الهجرى أنه كان فى «القاهرة» كحال يتخذ له مقرا فى «باب الفتوح»، وكان شاعرا كاتبا خفيف الروح يعمد فى شعره إلى التنكيت المستظرف، ذلك هو شمس الدين «ابن دانيال»، ويوما سأله سائل لا يعرفه: «ما حرفتك؟ وبأى شىء تتكسب؟» فأجاب «طبيب العيون» بقوله:

يا سائلى عن حرفتى فى الورى ... واضيعتى فيهم وافلاسى
ما حال من درهم انفاقه ... يأخذه من أعين الناس؟!

من قاض إلى معلم كتاب !

كان فى مصر فى القرن العاشر الهجرى رجل يتولى أحد مناصب القضاء، وكان متحرزا يخشى أن ينحرف فى حكمه عن سبيل الحق والعدل، وأخيرا ضاق بأمره، ورأى أن أمانة القضاء ثقيلة الوطأة عليه، وأن ضميره لا يواتيه على مواصلة عمله بين القضاة، فلم يجد بدا من اعتزال منصبه، وكان العمل الذى وليه بعد ذلك هو تعليم الصبيان وتأديبهم فى مكتب موقوف على اليتامى، وبلغ من أمر ذلك القاضى الذى آثر تعليم الصبيان على ولاية القضاء أنه كتب إلى الإمام «ابن حجر الهيثمى» يسأله فيما يجب على مؤدب الأطفال أن يلتزمه من آداب وقوانين، فألف له العلامة «ابن حجر» رسالة سماها «تحرير المقال، فى آداب وحكم وقوانين يحتاج



إليها مؤدبو الأطفال»!

الثقافة ... كلمة عريقة !

لعل أشهر كلمة يتناقلها أهل الفكر فى العصر الحديث، هى كلمة: الثقافة، فقد شاعت فى مدلولها الذى يشمل صقل الأذهان وتنوير العقول والالمام بشتى ضروب المعرفة. وقد تساءل النقاد: ما تاريخ هذه الكلمة فى اللغة العربية؟ أقديمة هى أم مستحدثة؟ وتناقل بعض النقاد أسماء أدباء معاصرين اسند إليهم إطلاق تلك الكلمة واشاعتها فى العصر الحديث.

والحق أن كلمة «الثقافة» و«التثقيف» قديمة عريقة، وربما أقدم نص فى استعمالها هو فى كتاب «طبقات الشعراء» لمحمد بن سلام الجمحى. وذلك منذ أكثر من ألف سنة، وفى كتاب «العمدة» لابن رشيق: «قال الجمحى: وللشعر صناعة وثقافة يعرفها أهل العلم كسائر أصناف العلم، والصناعات منها ما تثقفه العين، ومنها ما تثقفه الأذن ومنها ما تثقفه اليد، ومنها ما يثقفه اللسان». و«ابن الجوزى» يقول فى كتاب «الأذكياء»: «فأما ما حصل له بتلقى الوحى وتثقيفه...».

ذلك برهانه استعمال العلماء والأدباء لكلمة «الثقافة» و«التثقيف» منذ مئات السنين، ومنذ خمسين عاما أو أكثر أخرج الأستاذ «حسن توفيق العدل» كتابا فى مصر سماه «سياسة الفحول فى تثقيف العقول»، وليس أدل من هذا على أن كلمة الثقافة ليست لأحد ممن يدعونها فى عصرنا الحديث.



ذكية ... مثله !

كان رجل من دهاة العرب وعقلائهم يقال له: شن، مضى يطوف فى البلاد، وبينما هو فى طريقه إذ رافقه رجل، فقال له «شن»: «اتحملنى أم أحملك؟» فقال الرجل: «يا جاهل أنا راكب وأنت راكب، فكيف احملك أو تحملنى؟» وصادفهما فى الطريق زرع قد اينع، فقال «شن»: «أترى هذا الزرع آكل أم لا ؟» فقال الرجل: «يا جاهل ترى نبتا يانعا فتقول آكل أم لا ؟!» ولقيتهما جنازة، فقال «شن»: «أترى صاحب هذا النعش حيا أم ميتا ؟» فقال الرجل: «ما رأيت أجهل منك، ترى جنازة فتسأل عنها أميت صاحبها أم حى؟» فلما أراد «شن» مفارقة الرجل، دعاه الرجل إلى بيته فمضى معه، وكان للرجل ابنة تسمى «طبقة» فلما سألته عن ضيفه، أخبرها بما كان منه، وشكا إليها جهله، وحدثها بحديثه، فقالت له «يا ابت، ما هذا بجاهل .. أما قوله: اتحملنى أم أحملك، فانه أراد: أتحدثنى أم أحدثك، حتى نقطع طريقنا فى أنس وراحة، وأما قوله: أترى هذا الزرع أكل أم لا، فإنما أراد: هل باعه أهله فأكلوا ثمنه أم لا .. وأما سؤاله عن صاحب النعش أحى هو أم ميت فمراده: هل ترك عقبا فيحيا ذكره بهم بعده أم لا». وخرج الرجل فقعد مع ضيفه «شن» وقال له: «أتحب أن أفسر لك ما سألتنى عنه؟» قال: «نعم» ففسره له، فقال «شن»: ليس هذا من كلامك، فأخبرنى عن صاحبه» فقال: «ابنة لى» فخطبها اليه، وتزوجها منه، وحملها معه، ولذلك يقال فى الأمثال «وافق شن طبقة».

عبقرية النفاق !

يقص التاريخ من أخبار الدولة الأموية انقسام الناس فى عهدها إلى شيع



وأحزاب، وقد كان للأسرة المروانية فيها شأن كبير، بعد جهاد مرير ..

كان «اسماعيل بن يسار» يعيش فى تلك الفترة، فدخل على أمير من أمراء الدولة، هو حفيد من حفدة «مروان»، وجعل يبكى أشد بكاء، فقال له الأمير: «ما يبكيك؟».

فأجابه: «حجبونى عنك، فكيف لا أبكى على مروانيتى ومروانية أبى لا يؤذن لى عليك؟!».

ولم يسكت «اسماعيل» عن البكاء، حتى وصله الأمير بصلة حسنة، وأعطاه حلة لها قدر، وهو يتعذر من تأخير الإذن له بالقدوم عليه.

فلما خرج «اسماعيل» من عند الأمير، لحق به رجل ممن حضروا المجلس، وقال له: «ويلك يابن يسارا.. أى مروانية كانت لك ولابيك؟!» .

فأجابه «اسماعيل»: «مروانيتنا هى بغضنا لهم، وسخطنا عليهم!.. فأما مروانيتى أنا فامرأتى طالق ان لم أكن ألعن مروان وآله كل يوم فى مكان التسبيح لله عز وجل، وأما مروانية أبى فيكفيك منها أنه لماحضره الموت قيل له: «قل لا إله إلا الله»، فقال: «لعن الله مروان». فأقام لعن «مروان» مقام التوحيد، ورأى فى ذلك تقربا إلى الله».

تقويم ... لا تقييم

تتألق بعض الكلمات على أقلام الكتاب، ويواتيها الحظ، فإذا هى شائعة .. ومن هذه الكلمات التى ساغ استعمالها وشاع فى هذه الأيام كلمة «التقييم» ...

تستعمل تلك الكلمة فى معنى تحديد القيمة، وتعيين المنزلة. يقال مثلا: ان الخدمات الاجتماعية تحتاج إلى تقييم، للموازنة بين الأهم منها والمهم.



أو يقال: إن تقييم التعليم يختلف فى بلد عنه فى البلد آخر.

أو يقال: إن ثمة تقييما جديدا للأدب ومهمته فى الحياة.

ويبدو لى أن كلمة «التقييم» تحتاج فى صوغها إلى «تقويم»!

ذلك لأن أصل الفعل: قوم، لا: قيم. والقيمة أصلها: قومة. وطوعها، لهذا فإن كلمة «التقييم» لا تصلح من ناحية الاشتقاق ولا تستقيم.

قالت اللغة: قومت المتاع: جعلت له قيمة معلومة.

ويقال: تقويم البلدان، أى بيان طولها وعرضها وما يتعلق بها.

فعلينا أن نتدارك هذه الكلمة الجديدة، فنستعمل الصيغة الصحيحة «تقويم»، حتى لا ترسخ فى الاستعمال صيغة «التقييم» على ما بها من اعوجاج.

فنــــان ...

يقص علينا «أبو حيان التوحيدى» عن «القاسم بن الحسن» قصة رجل ظريف، كانت له مغنيتان،احداهما حاذقة حسنة الغناء، والأخرى مختلفة لا يحب أن يسمع لها صوتا.

وكان له معهما شأن عجيب .. اذا غنت الأولى طرب، واشتد به الطرب، حتى أنه يشق قميصه ويمزقه من فرط التأثر والاهتياج. فاذا أخذت الأخرى تغنى قعد يخيط قميصه ويرتق ما تمزق منه!

أهرامات ... مزيفة !

يحلو للألسن ألا تكتفى باستعمال الكلمة المجموعة، فتعيد جمعها، ويغلب أن



يكون جمع الجمع بالألف والتاء، لأن فى هذا الجمع اطلاقا للصوت واشباعا للنفس!

ويقولون مثلا: فحومات، وقيودات، وأذونات، وكشوفات، وفحوصات وأهرامات... والمقصود: فحوم، وقيود، وأذون، وكشوف وفحوص وأهرام، لأنها جموع، ومفرداتها: قيد، واذن، وكشف، وفحص، وهرم ...

مارأى اللغة فى تكرار الجمع؟ هل تقره القواعد؟ لا ريب فى أن العربية تعرف هذا الضرب من الصيغ، فقد قالوا: بيوتات، جمع بيوت، والمفرد بيت، وقالوا: أساور، جمع أسورة، والمفرد سوار، وقالوا: مصارين، جمع مصران، والمفرد مصير.

ولكن علماء اللغة اجمعوا على أن ذلك كله ليس بقياس مضطرد، فنستعمل منه ما سمع، ولا نتجاوزه ..

ربما قلت: ولماذا لا نتجاوز؟

فأسألك: ما حاجتنا إلى جمع الجمع، وفى الجمع مقنع؟

فلنقل: قيود، وأذون، وأهرام .. وماشاكل. ولنقصر مجاوزة القواعد المقررة على الضرورة، ولا ضرورة هنا تقضى بتكرار جمع هذه الكلمات.

هذه الأقدار...

سئل أعرابى عن الأقدار: كيف هى؟

فقال يجيب: «الناظر فى الأقدار كالناظر فى عين الشمس، يبهره ضوؤها، ولا يقف على كنهها!..

دعنى ولحيتى...

يولع بعض ذوى اللحى بأن ينتزعوا بأناملهم شعرات لحاهم، وأكثر ما يكون ذلك



منهم حين الفكرة والتأمل، وعند الاهتمام والتأثر ... وقد عرف «الحريرى» صاحب «المقامات المشهورة بولعه بذلك.

وكان طويل المجالسة لأمير البصرة، فيراه الأمير فى حضرته لا يفتأ يعبث بلحيته، فيكره ذلك منه، ويبلغ به الأمر أن نهاه عنه، وتوعده عليه...

فبقى «الحريرى» إذا جلس إلى «أمير البصرة» اشبه حال بالمقيد، لا يتجاسر أن يمد أنامله إلى لحيته، وفى احدى جلساته تكلم بكلام أعجب به الأمير كل الاعجاب، وكان من شأن الأمراء إذاأعجبوا بشاعر أو كاتب أن يقطعوه أرضا، فتكون مملوكة له، فقال الأمير «للحريرى»:

- سلنى شيئا حتى أعطيك، ماذا تريد أن أقطعك؟

فأجابه من فوره: «أقطعنى لحيتى!».

فضحك منه الأمير، وأذن له بأن يعبث بلحيته كما يشاء ...

ربيب الغزال...

يطيب لبعض القصاص أن يتمثلوا فى أقاصيصهم طفلا نشأ نائيا عن والديه، فى مكان مهجور، فحنا عليه حيوان يرضعه، حتى يدرج.

والتاريخ الواقعى يسجل لنا نشأة مثل هذه النشأة، ويعزوها إلى عالم كبير، عاش أكثر عمره فى القرن الخامس الهجرى، وقد ارتحل من بلده إلى «مصر» فأقام فى الصعيد بعض وقت، ثم جاء إلى «القاهرة».

هذا العالم الكبير هو الشيخ أبو العباس أحمد بن محمد بن جزى الأنصارى الأندلسى، المعروف بتبحره فى علوم الشريعة.

كان أبوه من ملوك المغرب، فولد له «أبو العباس» اطمس العينين، فخافت أمه



سطوة أبيه، وأمرت به، فألقى فى ظاهر البلد، حيث الصحراء فبقى الطفل هناك وحده، فاجتمعت إليه الغزلان ترضعه، وما زال يمرح فى عطفها عليه، حتى خرج أبوه يوما للصيد، فلقيه هنالك، فالتقطه، وهو لا يشعر أنه ابنه، وقال لزوجته:

– لعل الله أن يجعل لنا فيه خيرا ..

فلما كبر، قرأ القرآن، واشتغل بالعلوم الشرعية، حتى برع فيها... وكذلك استفاضت بين العلماء شهرة ربيب الغزال!

مشكلة الإعراب ...

ليس تحت الشمس جديد، حتى الدعوة إلى التجديد!

نادى بعض الكتاب بأن نعالج مشكلة الإعراب فى اللغة العربية باجراء عملية بتر... فلا نعرب على الإطلاق، وإنما نقف على الكلمات بالسكون.

لا جديد فى هذه الدعوة .. تناولها من بعض جهاتها أساطين اللغة، فأيدها قوم، وعارضها قوم، والعجيب أننا نجد عند «سيبويه» ما يؤيد القول – على نحو ما – بترك الاعراب، وهو رأس النحويين وأئمة الاعراب!

يقول ««أبو على الفارسى» – منذ ألف سنة بل يزيد:

«أما حركة الاعراب فمختلف فى تجويز اسكانها، فمن الناس من ينكر، فيقول أن إسكانها لا يجوز من حيث كانت علما للاعراب، وسيبويه يجوز ذلك فى الشعر.. وأما من زعم بأن حذف هذه الحركة لا يستقيم من حيث كانت علما للاعراب، فليس قوله بمستقيم، وذلك أن حركات الاعراب قد تحذف لأشياء، ألا ترى أنها تحذف فى الوقف وتحذف من الأسماء والأفعال المعتلة ... فإن قلت إن حركات الاعراب تدل على المعنى، فإذا حذفت اختلت الدلالة عليه، قيل: وحركات البناء قد



تدل على المعنى، وقد حذفت ...».

إذن أجاز «سيبويه» إسكان حركات الاعراب، فى بعض أنماط الكلام، وكانت إجازته تمهيدا لتلك الدعوة التى احتضنها «أبو على الفارسى» من بعده، فأيدها بتعليله وتحليله أحسن تأييد، وكان السابق إلى روح التجديد.

هذا إلى أن فى القبائل العربية القديمة من يسكن آخر الكلمات. وقد عرفت لغتهم فى ذلك بلغة ربيعة.

يبكى على الأحياء ...

كان «سلم الخاسر» من شعراء الدولة العباسية، متصلا بالأمراء والولاة، يجاملهم بشعره فى المسرات، ويواسيهم فى الأحزان، ويظفر بالجوائز وقد دعته المنافسة لمعاصريه من الشعراء أن يتخذ للأمر أهبته، حتى تكون له الغلبة، فيسارع إلى نظم الشعر، ويسبق غيره على الأبواب ...

والطريف من شأنه فى ذلك أن أحد معاصريه - وهو «أبو المستهل» - دخل عليه يوما، واذا بين يديه قراطيس، يرثى فى بعضها الأميرة «أم جعفر» ويرثى فى بعضها قوماً لم يموتوا، و«أم جعفر» يومئذ باقية، فقال له:

ويحك يا «سلم» .. ما هذا الذى صنعت؟

فأجابه بقوله: تحدث الحوادث، فيطالبوننا بأن نقول غير الجيد، فنعد لهم مثل هذا، قبل كونه، فمتى حدث حادث أظهرنا ما قلناه فيه، على أنه قيل فى الوقت!

وهكذا كان «سلم الخاسر» يترصد للأحياء من الأمراء، ويتخير منهم من يظن به قرب الأجل، فيبكيه، ويجود شعره فى رثائه، حتى إذا مات طلع على الناس من فوره بقصيدته العصماء، كأنها بنت الساعة ...



الغلبة ... للنساء !

كان «كثير» أحد عشاق العرب المشهورين، وله فى حبيبته «عزة» شعر رفع اسمهما معا. وينقلون أنه لما مات كانت النساء فى جنازته أكثر من الرجال، وهن يندبنه، فجعل الرجال يدفعون النساء عن الجنازة، حتى أن محمد بن على بن أبى طالب قال لهن: تنحين يا صويحبات يوسف! ... يريد تعييرهن بأنهن من جنس «زليخا» وقصتها مع يوسف معروفة.

فانبرت إحدى المشيعات ترد بقولها: لقد صدقت ... اننا صويحبات يوسف، وقد كنا نحن النساء خيرا منكم له معاشر الرجال!

فلم يكن منه إلا أن استدعاها بعد الجنازة ليناقشها، فقالت له: نحن النساء دعونا يوسف إلى اللذات من مطعم ومشرب ومتعة ونعيم، وأنتم معاشر الرجال القيتموه فى الجب، وبعتموه بأبخس الأثمان، ورميتموه فى السجن، فأينا كان عليه أحن، وبه أرأف؟!

فقال لها: لن تغالب امرأة الا كانت لها الغلبة.

ثم سألها: ألك زوج؟

فأجابت: لى من الرجال من أنا زوجه ...

فقال: صدقت ... مثلك من تملك زوجها ولا يملكها!

معونة الشتاء

نجح فى مصر مشروع معونة الشتاء، فنزل القادرون عن بعض متاعهم



للعاجزين... ومن طريف ما يسجله التاريخ للشيخ الصالح «بشر الحافى» أنه كان اذا جاء الشتاء خلع ثيابه، فعلقها فى بيته، وبقى عاريا يرتعد من البرد، فسئل: أفى مثل هذا الوقت تنزع ثيابك؟ فأجاب: الفقراء كثير، ولا طاقة لى بمواساتهم بالثياب، فأواسيهم بأن أتحمل معهم شدة البرد كما يتحملونها ...

أدب النقد

كان بين الفيلسوفين «ابن رشد» و«الغزالى» منازعة وجدال، وقد أراد «ابن رشد» أن يعبر عن ضيقه بقول «الغزالى»، فانظر كيف كان أدبه فى التعبير:

« ... قد يظن أن هذا الكلام لشخصه يصدر عن أحد رجلين، إما جاهل، وإما شرير، ولكن قد يصدر من غير الجاهل قول جاهلي، ومن غير الشرير قول شريرى، على جهة الندور، ولكى يدل ذلك على قصور البشر فيما يعرض لهم من الفلتات...».

أتراه يحمل عليه فى عنف، أم يعتذر له فى لطف؟!

لغة الناس

أشرت فى نبذة سابقة إلى ما فى العامية المصرية من تعبيرات يتحاماها الكتاب لحسبانهم أن الفصاحة تأباها. وأنى أقدم الآن أمثلة جديدة فيها طرافة، لعلنا بذلك «نرد اعتبارها»، ونمهد لشيوعها على الأقلام ... أقلام الدعاة إلى العامية على الأقل!



عاشوا فى تبات ونبات: بهذا التعبير تختم العجائز أقاصيصهن للصغار، دلالة على النهاية السعيدة لأبطال الأقاصيص. وقد صادفت هذا التعبير فى قصة منقولة من عصر الأمويين، وهى مثبته فى كتاب عيون الأخبار الذى ألف فى القرن الثالث الهجرى.

الملبس: (بتشديد الباء) - اسم لنوع خاص من الحلوى، ويبدو أن هذا النوع معروف منذ عهد قديم، فقد جاء فى كتاب «حسن المحاضرة» للسيوطى فى ترجمة رجل من أهل القرن الخامس الهجرى: «وهو الذى أخرج الفستق الملبس بالحلوى» فالأصل فى التسمية أنه لوز أو فستق أو بندق يلبس بالحلوى، فسمى «الملبس»!

باس: يستعمل العامة كلمة «باس» بمعنى قبل، وممن استعملها لذلك المعنى «الهمذانى» فى القرن الرابع الهجرى، إذ وصف مجلسا له مع الصاحب، فقال فى وصفه: «فوثب وبست الأرض بين يديه»!

كلك نظر: هذا تعبير عامى لافادة المبالغة فى الفطنة والانتباه، وقد جاء فى كتاب معاهد التنصيص هذا البيت لابن المطرز:

يا حبيبـــا كله حســـن　　　　لمحـــب كله نظـــر

أنا أستاهل: معناها عند العامة: أنا أستحق، وتقال فى معرض لوم النفس على ما كان. وقد استعملها فى هذا المعنى الخليفة المهدى فى القرن الثانى الهجرى، اذ قال لأبى العتاهية: «هذا معنى سوء سوف يرويه الناس عنك، أنا أستاهل ... ».

المرسال: لا يقول العامة فى أحاديثهم بعثت رسولا، ولكن يقولون: بعثت مرسالا، وهو بمعنى الرسول، وممن أثبته صاحب التاج فى معجمه والبقية تأتى ...



كليلة ودمنة ... العربية

لما ترجم «عبد الله بن المقفع» كتاب «كليلة ودمنة» عن الفارسية، فى منتصف القرن الثانى للهجرة، أعجب الناس جميعا بما فيه من حكمة الهند، فشاع الكتاب، حتى طبقت شهرته الآفاق، وما تزال ...

ويبدو أن بعض أدباء العرب فى العصور السالفة ضاقوا بشهرة ذلك الكتاب، وعز عليهم أن يكون هذا الفخر لحكمة هندية أو أدب فارسى، دون أن يكون للعرب منه نصيب.

يحدثنا التاريخ أن «محمد بن عمر اليمانىْ» قدم فى منتصف القرن الرابع الهجرى من «صنعاء» إلى «المنصورية» فى بلاد المغرب، وأنه حمل معه الأمير «المعز لدين الله الفاطمى» كتابا الفه ليبارى به كتاب «كليلة ودمنة»، وكان من قصد ذلك المؤلف اليمنى أن يدلل على أن أدب العربية فى جاهليتها واسلامها لا تعوزه الحكم والأمثال والمواعظ التى انطوى عليها ذلك الكتاب الهندى الفارسى.

وليس الأمر فى هذا رواية تاريخية تحتمل الصدق والكذب، فإن الأستاذ «حسن حسنى عبد الوهاب» عالم تونس الكبير يقول إن كتاب المؤلف اليمنى لم تبعث به يد الزمان ... وتوجد نسخة منه فى مكتبة «الفاتيكان»!

كراء الأسنان !

كان الجند المماليك - فيما بعد ارتداد الحملة الفرنسية عن مصر - يعيثون فى البلاد فسادا، ويتحكمون فى أهلها أسوأ التحكم ... وكانت لهم أفاعيل لا تخلو



مرارتها من طرافة!

لقد ابتدعوا من أفاعيلهم بدعة عجيبة سموها: «كراء الأسنان» ...

وذلك أنه إذا دعى أحد الحكام أو الولاة إلى مأدبة، وتناول طعامه وقدم الطعام بعد ذلك إلى هؤلاء الجند الذين يحيطون به، أبوا أن يأكلوا إلا إذا قدم لهم مال، مكافأة على أنهم سيأكلون الطعام!

ومما يذكر من حوادثهم فى هذا الصدد أن ناظر أوقاف أقام حفلا لزواج ابنته، ودعا بعض الولاة والرؤساء، فلما أكلوا، مدت الموائد للجند من الحاشية والاتباع، فقالوا: لا نأكل حتى نأخذ ما جرت به العادة من كراء الأسنان ...

ولم يتملك صاحب الحفل الا أن يعطى كل واحد منهم ريالا، ورحم الله «الجبرتى»، مسجل تلك المبكيات ... المضحكات!

خادم المصباح ...

كان النساخون فى العصور الماضية يقومون مقام دور النشر الآن، فلا بدع أن يتخذوا من الوسائل ما يعينهم على القيام بمهمتهم فى سهولة ويسر.

وممن اشتهروا بالنسخ فى القرن الثالث الهجرى فى تونس «محمد بن بسطام الضبى» وقد ترك كتبا كثيرة بخطه.

ويذكر المؤرخون من أمره أنه اشترى وصيفا خاصا لا عمل له إلا أن يتولى إصلاح المصباح، وتعهده حين ينسخ سيده الكتب أثناء الليل...

ومن طريف أساليب «الضبى» فى تنشيط خادمه، أنه كان يتخذ له القصب الحلو يقطعه له قطعا صغيرة، فإذا شعر بأن الوصيف ينعس، جعل فى فمه قطعة من القصب، ليزيل عنه النعاس متى عرض له!





اسألوا الشرطي ...

شرب «الاقيشر» الشاعر العباسى ذات ليلة فى بيت خمار، فعلم بأمره شرطى، فجاء ليدخل عليه، فلما أحس به الشاعر أغلق الباب فى وجهه، فناداه الشرطى:

- اسقنى نبيذا، وانت آمن!

فقال الشاعر:

- والله أنت ما آمنك، ولكن هذا ثقب فى الباب،

فاجلس عنده، وأنا أسقيك منه ...

ثم وضع فى الثقب أنبوبا من قصب، وصب فيه نبيذا من داخل، والشرطى يشرب من خارج، حتى سكر .. والشاعر يتغنى بقوله:

سأل الشرطى أن نسقيه ... فسقيناه بأنبوب القصب

انما نشرب من أموالنا ... فاسألوا الشرطى ما هذا الغضب؟

بابا ... وماما

هاتان الكلمتان «بابا» و«ماما» لا تنفرد بهما لغة من اللغات، ولا جيل من الناس...

ومنذ اثنى عشر قرنا، نقل «الجاحظ» عما قبله من القرون هذا النص: «الميم والباء أول ما يتهيأ فى أفواه الأطفال، كقولهم: ماما، بابا، لأنهما خارجان من عمل اللسان، وأنهما يظهران بالتقاء الشفتين....».

وإذن فهما من الكلمات «الإنسانية» الخالدة!



الغاز تحلها الغاز...

من طريف ما يحدث لصاحب «القاموس» أنه حين رحل إلى بلاد الروم، أراد بعض العلماء هنالك أن يمتحنوه، فسألوه:

- ما معنى قول الإمام «على» يوصى كتابه: «الصق روانفك بالجبوب، وخذ المزبر بشناترك، واجعل حندورتيك إلى قيهلى، حتى لا أنغى نغية الا وعيتها فى جماطة جلجلانك».

ففسر لهم صاحب «القاموس» هذا الكلام بقوله على الفور:

«الزق عضرطك بالصلة، وخذ المصطر بأباخسك، واجعل حجمتيك إلى أثعبانى، حتى لا أنبس نبسة الا وعيتها فى لمظة رباطك».

وهكذا كان التفسير أغرب من الأصل ... و«ترجمة» هاتين النبذتين توصية الكاتب بأن يتمكن فى مجلسه على الأرض، وأن يأخذ القلم بين أنامله، وأن يحدد النظر فى وجه من يملى عليه، فإذا نطق المملى بلفظ وعاه فى قلبه.

وإليك معنى كل لفظين متقابلين:

الروانف، والعضرط: المقعدة - الجبوب، والصلة: الأرض - المزبر، والمصطر: القلم - الشناتر، والاباخس: الاصابع - الحندورة، والحجمة: العين - القهيل، والاثعبان: الوجه - النغية، والنبسة: اللفظة - الجماطة، واللمظة: الحبة - الجلجلان، والرباط: القلب.

دفاع عن الشتم...

كان أبو العيناء» لا يترك أحدا الا نال منه بقوارص الكلم، فاستدعاه الخليفة



«المتوكل» وقال له: «بلغنى أن فيك بذاءة».

فقال «أبو العيناء»: «ان يكن ما بلغك عنى يا أمير المؤمنين أنى أذكر المحسن باحسانه، والمسيء باساءته، فان الله تعالى زكى وذم، فقال فى التزكية: «نعم العبد انه أواب» وقال فى الذم: «هماز مشاء بنميم، مناع للخير معتد أثيم». والشاعر يقول:

اذا أنا لم أمدح على الخير أهله ولم أذمم الجنس اللئيم المذمما

ففيم عرفت الخير والشر باسمه وشق لى الله المسامع والفما؟

فأما إن كان ما بلغك عنى أنى أصنع كما تصنع العقرب، اذ تلدغ بطبع، لا بتمييز، فقد صانني الله عن ذلك، وحماني منه ...»

فرضى عنه «المتوكل» وأجازه!

«أشعب» فى رمضان!

كان «أشعب» أشد الناس طمعا، فدخل على أحد الولاة فى أول يوم من شهر «رمضان»، يطلب الافطار عنده، وجاءت المائدة وعليها جدى. فأمعن فيه «أشعب»، حتى ضاق الوالى، وأراد الانتقام من ذلك الطامع الشره، فقال له:

- اسمع يا أشعب ... إن أهل السجن سألونى أن أوجه إليهم من يصلى بهم فى شهر رمضان، فأمض إليهم، وصل بهم، واغنم ثوابهم.. فقال «أشعب» وقد فطن إلى نقمة الوالى منه.

أيها الأمير تعفينى من هذا نظير أن أحلف لك بالطلاق والعتاق انى لا آكل لحم جدى ما عشت أبدا فضحك منه الوالى، وأعفاه ...



خريطة للأماكن المقدسة ... من ذهب !

المعز لدين الله الفاطمى، منشىء مدينة «القاهرة» منذ ألف سنة. كان مترفا فى حياته وفيما يحيط به من الأشياء ...

يسجل له المؤرخون أنه أمر بعمل مقطع من الحرير الفاخر، منسوج بالذهب، وفيه مختلف الألوان، وعليه صورة أقاليم الأرض،وقد تجلت فيها صورة «مكة» و«المدينة» واضحة للناظر، ومكتوب على كل مدينة وجبل وبلد ونهر وبحر وطريق اسمه بالذهب أو الفضة أو الحرير.

وفى حاشية المقطع الحريرى كتبت الجملة الآتية:

«مما أمر بعمله المعز لدين الله، شوقا إلى حرم الله، واشهارا لمعالم رسول الله، فى سنة ثلاث وخمسين وثلاثمائة».

ويقول «المقريزى» إن النفقة على هذا المصور الجغرافى بلغت اثنين وعشرين ألف دينارا

مافيك يظهر على فيك

أصحاب الصناعات والفنون إذا تحدثوا حديثهم المألوف، جرت على ألسنتهم ألفاظ وعبارات تتصل بما يزاولونه من فنون وصناعات، وعلى غير قصد ولا ارادة.

وقد سجل أهل الأدب طرائف من هذا القبيل ...

فمما يروى من نوادر المعلمين قول أحدهم فى وصف رجل ثقيل الظل أنه أثقل من يوم السبت على الصبيان ..



ومما يروى من نوادر الأطباء قول أحدهم فى الدعاء: «اللهم اسقنا شربة من حبك، تسهل ذنوبنا!»

ومما يروى عن الخياطين قول أحدهم ينصح ابنه: «لا تكن كالإبرة تكسو الناس وأنت عريان».

ومما يروى عن أصحاب صناعة الثياب قول أحدهم: «لا زال سيدنا فى سلامة مبطنة بالنعمة، مطرزة بالسعادة، مظاهرة بالغبطة!».

القنديل الثانى ...

العاقل الحصيف لا يكتفى بما يسمعه من جانب واحد، بل يطلب دائما معرفة الرأى المعارض ... ويحق لنا أن نطلق كلمة «القنديل الثانى» على وجهة النظر الأخرى التى يجب علينا أن نعرفها، لكى لا نتحزب ولا نتعصب! .. كان اسلافنا يطلبون إنارة «القنديل الثانى» حين يتدارسون العلم وألوان المعرفة ...

يحدثنا المؤرخون أن «أسد بن الفرات» احد علماء المغرب فى القرن الثانى الهجرى، رحل إلى الحجاز والكوفة ومصر، وكان بين علماء المدينة وعلماء العراق خلاف فى الرأى على مسائل الفقه واحكام الشرع، فلما رجع «أسد» إلى بلاده، جلس يدرس للناس ما وافق الحق عنده من أقوال هؤلاء وهؤلاء. فإذا فاض فى بيان رأى علماء العراق، قال له جلساؤه: «أوقد لنا القنديل الثانى» ... فيسرد لهم رأى علماء المدينة، وبذلك يقفون على مختلف وجهات النظر.

عاشق ... ببطنه !

كان «أبو القماقم» من ظرفاء العصر العباسى، وكان يتعشق حسناء من جيرانه،



فأرسل إليها يقول: «ابعثى لى طبق شواء آكله على اسمك!».

فبعثت به إليه. فلما كان من الغد، ارسل رسوله يقول:

«ابعثى لى طبق حلوى آكله على ذكرك» ...

فقالت لرسوله: «قل له ان منبع الحب من القلب، فإذا تناهى بلغ الكبد، وانت حبك لا يتجاوز معدتك!». فكان رده عليها:

«إنما فعلت هذا لأقوى على محبتك. ألم تسمعى قول الشاعر:

إذا كان فى قلبى طعام ذكرتها　　　وإن جعت لم تخطر بالى ولا فكرى.

وقف للأوانى المكسورة

كانت روح المجتمع الشرقى فى العصور السالفة روح تكافل وتراحم، ولم يكن الميسورون من الناس يقتصرون على توفير الطعام لجائع، والدواء لمريض، والمأوى لشريد. وانما كانوا يتجاوزون ذلك إلى آفاق بعيدة من رهافة العواطف ووفرة الحنان.

واستمع إلى الرحالة «ابن بطوطة» يحدثك فى القرن الثامن الهجرى حديث أولئك الذين رقت قلوبهم حتى أرصدوا أوقافا للأوانى المكسورة.

يقول: «مررت يوما ببعض أزقة دمشق، فرأيت بها غلاما صغيرا قد سقطت من يده صحفة من الفخار الصينى، وهم يسمونها الصحن، فتكسرت الصحفة، واجتمع الناس على الغلام، فقالوا له: اجمع شقفها واحملها معك إلى صاحب أوقاف الأوانى، فجمعها، وذهب معه رجل من الجمع إلى صاحب تلك الأوقاف، فأراه شقف الصحن المتكسر، فدفع له ما اشترى به مثل ذلك الصحن».

ويعقب «ابن بطوطة» على ذلك بقوله: «وهذا من أحسن الأعمال، فإن سيد الغلام لابد أن يضربه على كسر الصحن، أو ينهره، وهو أيضا ينكسر قلبه ويتغير،



فكان فى هذه الاوقاف جبر القلوب ...».

علاجه عند الشرطي ...

فى كتاب «جمع الجواهر» للأديب الحصرى القيروانى من أهل القرن الخامس الهجرى أنه كان بمصر واعظ يقال له «الخواص»، وقف به يومارجل من العامة يقال له «الخباز»، فقال له:

أصلحك الله، لى نفس معلولة، لا تجيبنى إلى شىء من الخير، فما يصلحها لى؟

قال الخواص: اقرأ القرآن وأكثر منه.

قال الخباز: قرأت من سوره مرات كثيرة، ونفسى بحالها.

قال الخواص: أذكر الموت ...

قال الخباز: قد فعلت، فما خشعت نفسى ولا جاء منها شىء.

قال الخواص: أكثر حضور مجالس الذكر.

قال الخباز: لزمتها وتركت شغلى، ونفسى كما هى.

قال الخواص: لعن الله نفسك، فإنها مشئومة، وأرى أن تمضى بها إلى صاحب الشرطة، يؤدبها، لعله يجىء منها بشىء!

عاشق ... أم لص؟

يذكرون أن «الأعشى» ذلك الشاعر الجاهلى الذى كانوا يلقبونه «صناجة العرب»، رحل إلى بلاد فارس، ومدح ملوكها ... ويروون طرفة له مع «كسرى» تطوى بين ثناياها نقدا أدبيا لاذعا ...





قال الراوى: ان كسرى سمع «الأعشى» يوما ينشد، فقال: من هذا؟ فقالوا: مغنى العرب.

ثم أنشد «الأعشى» قوله:

أرقت وما هذا السهاد المؤرق

وما بى من سقم وما بى معشق

فقال «كسرى»: فسروا لى ما قال. فقالوا: ذكر أنه سهر من غير مرض ولا حب... فقال «كسرى»:

هو إذن لص!

عوينات ... صحيحة !

تستعمل كلمة «العوينات» فى بعض البلاد الشرقية بدلا من كلمة «النظارات» المستعملة فى مصر.

وقد يسبق الناقد اللغوى إلى القول بأن هذه الكلمة خطأ من حيث القواعد، وذلك لأن «العوينة» تصغير العين، والقاعدة تقتضى أن يكون التصغير على «عيينة» لا «عوينة».

على أن كلمة «العوينة» استعملت من قديم، وحاربها بعض اللغويين، بدليل أن «ابن منظور» صاحب «لسان العرب» يقول: لا تقل عوينة.

ولكنه يسجل أن العرب تسمى الجاسوس: ذا العوينتين، وبذلك يثبت أن تصغير العين على عوينة مسموع عن العرب الذين يحتج بما يقولون.

وإذن فكلمة «العوينات» صحيحة لغة من حيث ورودها عن العرب الخلص، فأما تسمية «النظارات» باسم «العوينات» فهى من قبيل الاصطلاحات المختلفة التى



تتزاحم على ألسنة الناطقين بالضاد، ليتغلب بعضها على بعض فى شتى البلاد.

الآهات أشكال ...

اللغة العربية حين تسمى التوجع «تأوها» لا تضع لفظا جديدا، وانما تحاكى صوت التوجع، ولذلك تعد كلمة «الآهة» من الكلمات الانسانية التى يشترك فيها الناس على اختلاف اللغات.

ولما كانت «الآهة» بطبيعتها تتباين على ألسنة الناس، لانها تعبير عن الشكاية أو التحزن أو التحسر أو الشفقة، فقد تعددت الصور التى سجلتها اللغة للفظة: آه

قد تشدد بعض أحرفها أو تخفف ...

وقد يزاد فيها حرف أو حرفان ...

وقد يمد النفس بمقاطعها أو يقصر ...

وقد ينون آخرها ولا ينون ...

وذلك كله بحسب اختلاف درجات التأثر، وبحسب الأحوال النفسية التى تتطلب التعبير بهذه الأنفاس.

لا بدع إذن أن تسجيل اللغة العربية اثنتين وعشرين صورة من صور لفظة التأوه، تجد تفصيلها فى المعجمات.

ولعل هذه اللفظة تنفرد بين الفاظ اللغة العربية بكثرة مالها فى النطق من صور وأشكال.

المحرك واحد!

عرفت «مصر» من قديم الزمن لعبة «خيال الظل» وهى «السينما» البدائية ...

وكانت تتخذ لهذه اللعبة صور أشخاص من الجلد أو الورق، يحركها القائم باللعبة من وراء ستار أبيض مشدود، فيظهر على الستار خيال الأشخاص.

كانت لعبة «خيال الظل» من ملاهى القصور مدة الفاطميين، وقد ذكروا أن الملك الناصر صلاح الدين أراد أن يشهد هذه اللعبة، ودعا إلى شهودها «القاضى الفاضل»، فتحرج القاضى من ذلك، وهم بالانصراف وقت الشروع فى عرض المناظر، ولكن الملك الناصر قال له: اجلس وانظر، فإن كان حراما امتنعنا من تكراره. فلما انتهت مناظر اللعبة، قال الملك القاضى: كيف رأيت؟ قال: رأيت موعظة عظيمة، ورأيت دولا تمضى، ودولا تأتى، وإذا المحرك واحد!

يريد القاضى أن المناظر التاريخية المعروضة على اختلافها يقوم بتحريكها شخص واحد من وراء الستار، وفى ذلك تذكير بعظمة الله الذى يدبر أمور الكون واقداره وهو الواحد الفرد ... وهكذا كان «القاضى الفاضل» بليغا فى استخراج العبرة الدينية من مناظر هزلية...

تجفيف البطيخ..

يكثر فى عصرنا هذا تجفيف الفواكه والأطعمة، لتيسير نقلها من مكان إلى مكان، وحفظها أطول مدة من الزمان ...

ولكن هل سمعنا بتجفيف «البطيخ» فاكهة الصيف الأولى؟

لقد جففه أهل العصور الخالية ... كما يحدثنا «ابن بطوطة» فى القرن الثامن الهجرى، أعنى منذ ستة قرون!

لقد سافر إلى بلاد فارس والترك، وقال فى حديثه عنها: «الفواكه بها كثيرة،



ومنها البطيخ العجيب الشأن، وهو يدخر ...».

ثم وصف بطيخ مدينة «خوارزم» بقوله: «انه لا نظير له فى الدنيا، قشره أخضر، وباطنه أحمر، وهو صادق الحلاوة، وفيه صلابة ومن العجائب أنه يقدد وييبس فى الشمس، ويحمل فى الأوعية، ويحمل إلى أقصى بلاد الهند والصين، وليس فى جميع الفواكه اليابسة أطيب منه».

ولما سافر ابن «بطوطة» إلى بلاد الهند، كان يشترى قديد البطيخ المجلوب من بلاده، وهو يقول فى هذا الصدد: «كان ملك الهند إذا أتى إليه بشىء منه، بعث الى به، لما يعلم من محبتى له، ومن عاداته أن يطرف الغرباء بفواكه بلادهم، ويتفقدهم بذلك ...».

ترى هل يجرب الآن تجفيف البطيخ؟!

صلات بين الكعبة ومصر

بنيت الكعبة غير مرة، وكانت قبيل الإسلام حجارة منضدة، بعضها فوق بعض، يرتفع فوق القامة، فأرادت «قريش» أن تعلن بناءها، وأن تجعل لها سقفا ...

وكان البحر قد رمى بسفينة إلى «جدة» فتحطمت، كما كان بمكة فى هذا الوقت رجل قبطى نجار، يقال له «ياقوم» فقالت «قريش»: عندنا خشب، وعندنا عامل رفيق ...

وشرعوا يجمعون نفقة بناء الكعبة، فاستوصى الناس بألا يجعلوا فى نفقتها الا كسبا طيبا، لا يدخلون فيها شيئا أصابوه غصبا، أو قطعوا فيه رحما، أو بيع ربا،، أو مظلمة، أوانتهاك ذمة أحد بينهم وبين أحد من الناس.



وكذلك بنيت الكعبة، وتولى تسقيفها بخشب السفينة ذلك النجار المصرى.

وأما «زمزم» ذلك النبع الذى انبثق تحت خد «اسماعيل» - أبى العرب - فكان أول مغترف منه أمه «هاجر» .. ...

والسيدة «هاجر» مصرية الأصل، موطنها قرية كانت أمام «الفرما» على ميلين من بحر الروم ...

وإلى هذا يشير الرسول فيما يشير إليه من قوله: «ان لأهل مصر نسبا وصهرا. وذمة ورحما ...».

يؤمن ... بالقوة !

شهدت «مكة» احداثا عجابا فى مستهل الدعوة الإسلامية، إذ كان الرسول يخاطب الناس على قدر عقولهم، ملتمسا إنجاح دعوته بكل سبيل ...

وقد سجل التاريخ حديث رجل من العرب، كان شديد البأس، يمارس المصارعة، لا يؤمن إلا بالقوة!

لقى هذا الرجل رسول الله فى شعاب «مكة»، فجرى بينهما ذلك الحوار:

- ألا تقبل ما أدعو إليه من دين الله؟

- لو علمت أن الذى تقول حق، لا تبعتك .

- أفرأيت إن صرعتك، أتعلم أن ما أقوله حق؟

- نعم ...

- قم، حتى أصارعك



وانتهت الجولة بتغلب الرسول على الرجل المصارع حتى أضجعه، وهو لا يملك من نفسه شيئا.

وطلب الرجل جولة ثانية، فصرعه الرسول أيضا، فرجع إلى قومه يخبرهم بالذى صنع، ثم أسلم يوم الفتح ...

وقد خلف هذا الرجل ذرية ورثت عنه القوة وحب المصارعة، فكان له حفيد اشترك فى مصارعة بينه وبين يزيد بن معاوية، أحد خلفاء بنى أمية.

أول مجاور

أطلقت كلمة «المجاور» على من يطلب العلم فى «الأزهر» ... ولكن هانت هذه الكلمة على ألسنة الناس، فأصبحوا يبتذلونها ويتخذونها للازدراء والتعيير.

على حين أن لهذه الكلمة أوفر حظ من نبالة المعنى. فالمجاور هو من يعتكف فى المسجد للعبادة، وقد سمى طالب العلم «مجاورا» لأنه يلزم المسجد ليتلقى فيه دروس الشريعة والدين، ولا مرية أن التعلم من أسمى مراتب التعبد.

وقد استعملت هذه الكلمة منذ ثلاثة عشر قرنا فى وصف اعتكاف محمد صلى الله عليه وسلم وتعبده قبل أن يبعث رسولا.

قال «ابن اسحاق» فى القرن الأول للهجرة:

«كان الرسول يجاور فى حراء كل سنة شهرا ...».

فهو إذن أول المجاورين من المسلمين.

حمولة ثلج ... فى ركب الرشيد

كان «هارون الرشيد» يشرب ماء مثلجا، فإذا أزمع الرحلة، حمل الثلج معه ...



يروى عنه أنه خرج فى سفر إلى بلاد الروم، فكان فى الركب حمولة ثلج تقدمت، فاستسقى «الرشيد»، فانبعثت الخيل تسترجع حمولة الثلج، ولكن الرشيد اشتد به العطش، ولم يستطع الصبر، فسقوه من الماء الحاضر غير المثلج، فما كاد يشرب منه حتى مجه، وهنا انبرى له القاضى «أبو البخترى»، وكان معه فى الركب، فقال له:

- يا أمير المؤمنين: كنت التمس موضعا لوعظك، فلا أجد، وقد امكننى الآن، افتأذن؟

فأجابه الرشيد: نعم

فاستأنف القاضى يقول: يجمل بك أن تشرب الحار والقار، وتلبس اللين والخشن، وتأكل الطيب والخبيث، فإنك لا تدرى ما يكون من تصرف الدهر!

فانتفخ الرشيد فى ثوبه، حتى كاد ينشق عنه، ثم عاودته الطمأنينة، وقال للقاضى:

- اننا نلبس هذه النعمة ما بقيت لنا، فإن فارقتنا رجعنا إلى عود غير خوار، واحتملنا الدهر فى صبر وجلد ...

مجير الجراد!

كانت للعرب فضيلة حماية الجار على أقوى ما يعرفها التاريخ فى حياة الأمم... فمن دخل دار أحدهم لاجئا إليه، وجبت عليه نصرته، ولزمه أن يحميه من عدوه وطالبه مهما يكن من أمره.

لم تقتصر حماية العربى لجواره على أخيه الإنسان، بل تعدى ذلك إلى الطير والوحش وسائر صنوف الحيوان.

من أجل ذلك سموا «ثوب بن شحمة»: مجير الطير، لأن الطير كان إذا نزل



بأرضه لا يثار ولا يصاد ...

ومما يروى عن «مدلج بن سويد الطائى» أنه كان يوما فى خيمته، فإذا هو بقوم جاءوا ومعهم أوعيتهم، فسألهم: ما خطبكم؟ فقالوا: جراد وقع بأرضك، فجئنا نأخذه، فركب فرسه، وأخذ رمحه، وقال: والله لا يعرضن له أحد الا قتلته، لقد رأيتموه فى جوارى، وتريدون أخذه؟ فلم يزل يحرس الجراد، حتى حميت عليه الشمس، وطار. فقال «مدلج» للقوم: شأنكم به الآن، وقد تحول عن جوارى!

فسمى «مجير الجراد»، وضرب به المثل.

– ومثله «مجير الغزال» و«مجير الذئب» إلى اضرابهم ممن أجاروا الحيوان من الانسان!

قصة بيت

نظم يعقوب بن عبد الرحمن المخزومى شاعر مكة وصاحب عمر بن أبى ربيعة أبياتا منها هذا البيت:

«هل تعلمين وراء الحب منزلة   تدنى إليك، فإن الحب أقصانى»

فادعاه لنفسه ابن أبى مرة شاعر المدينة، وبعث به إلى بعض أدباء مكة مع بيت آخر فقال:

«هذا كتاب فتى طالت بليته   يقول يا منتهى بثى وأحزانى»

«هل تعلمين وراء الحب منزلة   تدنى إليك فإن الحب أقصانى»

فوجهوا بهما إلى عامل المدينة وأطلعوه على سرقته للبيت الثانى، فأدبه على سرقته. ثم جاء بعده بشار بن برد، فادعاه لنفسه فى قصيدة غزلية. ثم بعث به مرة أخرى إلى قينة كان يهواها فقال:



«هل تعلمين وراء الحب منزلة   تدنى إليك فإن الحب أقصانى»

فكتبت إليه تقول:

نعم أقول وراء الحب منزلة   حب الدنانير يدنى كل انسان
من زاد فى النقد زدنا فى مودته   لانبتغى الدهر إلا كل رجحان

وقد شطر الأستاذ طاهر الطناجى هذا البيت القديم، فقال:

«هل تعلمين وراء الحب منزلة»   أو مثل ما اشتكى شكوى لانسان
لهفى على سنة فى الليل حالمة   «تدنى إليك، فإن الحب أقصانى»

تنفيس !...

يذكرون لأحد الكتاب الفرنسيين، أنه نفى إلى أحد البلاد، فكان يذهب نزهة على شاطىء النهر، وصدره ضائق بما يجد من الكرب،فإذا مد يده إلى حجر، فألقاه فى الماء، كأنه يلقى همه كله، ثم يرجع هانىء البال..

وقد روى لنا «الجاحظ» - منذ اثنى عشر قرنا - فى رسالته فى كتمان السر، قصة تشبه تلك القصة، حين تحدث عما يلقاه المرء من عنت وضيق فى صون الأسرار، وعما يجد من رغبة نفسية فى إفشائها، فقال:

«مما يؤكد هذا المعنى فى كرب الكتمان، وصعوبته على العقلاء، فضلا عن غيرهم، ماروى عن بعض الفقهاء، أنه كان يحمل أخبارا مستورة لا يحتملها العامة، فضاق صدره بها، فكان يبرز إلى العراء. فيحتفر حفيرة هناك، ويودع الحفيرة وعاء، ثم ينكب عليه، فيحدثه بما سمع، فيروح عن قلبه، ويرى أنه قد نقل سره من وعاء إلى وعاء ...».

وهكذا عالج ذلك الرجل أمره، ونفس عن صدره، على نحو ما يوصى به علماء

النفس اليوم فى طبهم الحديث!

الفنان .. والفن

اصطلح الكتاب العصريون على كلمة «الفنان» يصفون بها كل من حذق فنا من الفنون الأدبية الجميلة ...

وهذه الصيغة لم تستعمل فى اللغة قديما لهذا المعنى ...

فإنك لا تجد «الفنان» فى العصور الخالية إلا اسما للحمار الوحشى، فهو «الفنان» الوحيد ... وقد قال اللغويون فى تعليل تلك التسمية أن الحمار يأتى بفنون من الجرى، أى ضروب، فلذلك سمى الفنان ...

وليس ثمة ما يمنع من تجويز الاستعمال العصرى لكلمة «فنان» ، فهذه الصيغة قياسية فى ملازمة الشىءوالنسبة إليه والمبالغة فيه، والفنان ملازم للفن منسوب إليه بالغ منه كل مبلغ ...

ومن الطريف أن «الفن» فى اللغة له معان غير معنى اللون أو الضرب، ومن هذه المعانى: الغبن، والعناء ... وهاتان الصفتان من لوازم حظوظ الفنانين فى الغالب، فهم مغبونون يعانون ...

ترى أكان قصدا أم عفوا ما صنعه الكاتب الكبير «توفيق الحكيم» حين استوحى آراءه وخواطره من «الفنان» الأصيل القديم ... «حمار الحكيم» ؟!

لغة الضاد

يسأل الأديب «محمد عبد الرحمن ابراهيم» - من قراء «الهلال» - عن تسمية



اللغة العربية «لغة الضاد»، على حين أن الضاد ترد فى بعض اللغات غير العربية، وكان أولى بالعربية أن تسمى «لغة العين» لخلو سائر اللغات من هذا الحرف.

والحق أن العربية سميت «لغة الضاد» وسمى أهلها «الناطقون بالضاد» منذ فجر الإسلام، وقد روى عن الرسول قوله: «أنا أفصح من نطق بالضاد»، فإن صح هذا الحديث كانت التسمية منذ عهد النبوة، وإن لم يصح فلا شك فى دلالة الرواية على استعمال التسمية منذ عصر رواة الحديث، وهو عصر يرجع إلى ما قبل ألف سنة.

وقد استعمل هذه التسمية صاحب «القاموس»، فعبر عن العربية «باللسان الضادى».

على أن اللغويين القدامى اختلفوا فى الحروف التى انفردت بها العربية، فعدوا منها: الضاد، والعين، والحاء، والظاء ...

وقال بعضهم أن الضاد مخرجا خاصا تتميز به عن سائر الحروف العربية نفسها، ولذلك رأي «سيبويه» أنها لا أخت لها.

والبحث اللغوى فى مخارج الحروف على وجهها الأصيل يجعل للضاد تلفظا دقيقا، ونحن نتسمح فى هذا التلفظ، وننطق الضاد كأنها دال مفخمة. ولعل الصحيح للضاد هو المقصود بانفراد العربية به.

ولم يفت اللغويون قديما - مثل «ابن حيان» - أن الضاد ترى فى بعض اللغات، وأن العربية انفردت بكثرة استعمالها.

فم غسيل ...

فى تعبيرنا المصرى الدارج كلمة منزلية لا يكاد غيرها يقوم مقامها فى أداء



المعنى، تلك هى كلمة «الفم» بمعنى المرة من الغسل، فيقال: غسلت الأثواب فما أو فمين أو ثلاثة أفمام، وفرغت الغسالة من فم غسيل ...

وهى كلمة ننطقها بضم الفاء وتشديد الميم.

والكلمة فصيحة ضبطا ومعنى، ولا بأس على من يتحرى فصاحة التعبير أن يستعملها فى بيانه.

تقول اللغة: الفم من الدباغ: المرة منه. ولا ريب أن الثوب حين ينظف بالصابون، شبيه بالجلد حين ينظف بالدبغ، فالمدلول فى كليهما قريب من قريب.

وأما ضم الفاء من فم فهو لغة حكاها بعض اللغويين، وإن كانت لغة قليلة فى الاستعمال.

وأما تشديد الميم فقد قال ابن جنى فى تعليله: ان العرب ثقلوا الميم فى الوقف، ثم أجروا الوصل مجراه.

وإذن فلنكتب «فم غسيل» كما ينطقها الناس ولنستعملها فيما يستعملونها فيه.

دخيلك ... محسوبك !

فى بلاد سورية وما حولها تشيع كلمة «دخيلك»، فتتخلل الأحاديث والمخاطبات بين الناس فى معرض التلطف وإظهار الرفق ... يقولون دخيلك ... تذهب معى؟ أو: دخيلك ... ماذا تعرف عن الشىء الفلانى؟ أو نحو هذا أو ذلك.

وليس هذا التعبير عن العربية الفصحى ببعيد ..

الدخيل فى اللغة يحتمل معانى متقاربة المدلول، وأخص معانيه أنه النزيل بين القوم، يدخل معهم، ويتصل بهم، ويحمل نفسه عليهم.. فإذا قال بعض أهل



العروبة: دخيلك، فهم يعنون: أنا دخيلك،أى أنا متقرب إليك، أحمل نفسى عليك، وأريد الاعتداد بك.

وهذا المنحى فى رقة الحديث ولطف المخاطبة، له نظير فى اللهجة المصرية العامية، ويعبر عنه بكلمة: محسوبك، فهى تدور فى الأحاديث العامة للأنس والتظرف.

والمصريون يعنون بمحسوب الشخص أنه معول عليه فى أمره يضيف نفسه إليه فى الحساب والاعتبار.

فكلمة «محسوبك» هنا، تنظر إلى كلمة «دخيلك» هناك!

تصميم البناء ... بالنار!

لابد لكل بناء مما يسميه المهندسون: «التصميم»، وهو رسم البناء وتخطيطه. ويدلنا التاريخ العربى على أن تخطيطات الأبنية كانت ترسم على الجلود، فهذا «الجاحظ» يتحدث عن فوائد الجلود، فيقول: «وعلى الجلود يعتمد فى صور العقارات»، ومؤرخ سيرة «ابن طولون» يتحدث عن هندسة الجامع المعروف باسمه، فيقول: «فأمر بأن تحضر له الجلود فأحضرت».

ولكن تاريخ القرن الثانى للهجرة يسجل للخليفة العباسى «المنصور» أسلوبا عجيبا اتخذه لنفسه - وما أكثر عجائبه - حين أراد أن يبنى مدينة «بغداد»، فقد أحب أن ينظر إليها عيانا كأنها مبنية قبل أن يضع فيها حجرا، فأمر بأن يخطط رسمها بالرماد، وأقبل يدخل من كل باب، ويمر فى الرحاب والطاقات، وهى مخطوطة... ثم أمر بأن يجعل على تلك الخطوط حب القطن، ويصب عليه النفط «زيت الاستصباح» ثم تشعل ... ولبث يجيل النظر، والنار مشتعلة، حتى استبانت له معالم المدينة، وعرف شكلها كما تكون بعد البناء، ثم أمر بأن تحفر الأساسات،



ويبدأ العمل.

وهكذا رأى «المنصور» مدينته الخالدة أول ما رآها أسوارا من النيران!

جهاز العروس

من التقاليد السائدة إلى اليوم فى بعض الطبقات أن تكتب قائمة بجهاز العروس، فلا ينقل إلى بيت الزوجية عند الزفاف حتى يتم التوقيع فى القائمة بأن الجهاز أمانة لأبى الزوجة أو لمن له الولاية عليها من ذوى القربى .. وإنما يلجأ الناس إلى ذلك لما يخشونه من نشوب خلاف بين الزوجين. فيكون الجهاز هو كبش الفداء فى معركة الخلاف!

هذا التقليد يتغلغل به العهد فى الشرق إلى مئات السنين ...

ويلغ من شيوعه واستحكامه أن أصبح لكتابة جهاز العروس صيغة شرعية وخاصة يذكرها مؤرخو الحياة الاجتماعية فى القرون الماضية حين يذكرون أنواع كتابة العقود والشروط التى يتعامل بمقتضاها الناس.

وقد كان هذا الجهاز يسمى «الشورة» - وما زالت هذه الكلمة تستعمل فى اللغة الدارجة بلفظ «الشوار» - وكانت تعتبر «الشورة» عارية، فالأب يعيرها لابنته، لتتجمل بها وتحفظها، وهذا مثال الصيغة التقليدية كما سجلها «النويرى».

«أقر فلان بأنه أعار لابنته فلانة ما فى ملكه ويده وتصرفه، وهو جميع الشورة الآتى ذكرها، وهى كذا وكذا، وتوصف، وتذكر أوزانها وقيمها، فإن كان المعيار دارا ذكرت حدودها وصفاتها. ثم يقال: إنها عارية صحيحة مقبوضة بيد المستعيرة من المعير، بإذنه لها فى ذلك، بعد النظر والمعرفة. وعلى هذه المستعيرة حفظها والانتفاع بها، فى منزلها بالموضع الفلانى، وألا تخرج من يدها، إلى أن تعيده على المعير بالصفة المذكورة ...».



معاشرة الأصمعي ... عقوبة !

كان «الأصمعي» ريحانة المجالس ظرفا وأدبا في قصور الخلفاء من بني العباس ومن إليهم من الأمراء والوزراء.

دخل يوما على الوزير جعفر بن يحيى بن خالد البرمكي، فجرى هذا الحديث:

الوزير: هل لك زوجة يا أصمعي؟

الاصمعي: لا ...

الوزير: هل لك جارية؟

الاصمعي: لي جارية للمهنة

الوزير: هل لك أن أهبك جارية للأنس والمتعة؟

الاصمعي: إني إلى ذلك محتاج.

فأمر الوزير باخراج جارية إلى مجلسه، فخرجت جارية في غاية الحسن والجمال، فقال لها الوزير مشيرا إلى الاصمعي: لقد وهبتك لهذا ..

فبكت الجارية أشد بكاء، وقالت للوزير: تدفعني إلى هذا الشيخ، مع ما أرى من سماجته وقبح منظره؟

فأشفق الوزير على الجارية، وقال للأصمعي: هل لك أن أعوضك عنها ألف دينار؟

فرضي الاصمعي بالعوض، وانصرفت الجارية مسرعة مسرورة بالنجاة.

وهنا قال الوزير:إني أنكرت من هذه الجارية أمرا، فأردت أن أعاقبها بك. ولكني رحمتها منك، وقد بلغ بها الجزع ما رأيت.

فقال له الاصمعي: لماذا لم تعلمني بذلك قبل أن أحضر إليك، فإني لم آتك إلا



بعد أن سرحت لحيتى، وأصلحت عمتى، ولو عرفت الخبر لصرت إليك على هيئة خلقتى، فوالله لو رأتنى الجارية كذلك لما عاودت شيئا تنكره منها أبد الدهر!

وقبض الاصمعى الدنانير الألف ... مكافأة له على ما وهبه الله من دمامة تخيف الجوارى الفاتنات، وتحملهن على الطاعة وحسن الأدب!

أغا خان ... قديم !

جرت عادة أنصار الزعيم الهندى «أغا خان» بأن يقدموا له فى مناسبة أعياد ميلاده هدايا تعادل وزنه من فضة أو ذهب أو غيرهما...

ويبدو أن تلك العادة هندية عريقة، فهناك «أغا خان» قديم يحكى لنا قصته الرحالة «ابن بطوطة»، فإنه حين زار الهند علم بأن الملك ذهب يعود أحد أمراء دولته،لمرض ألم به، فلما دخل الملك عليه، أراد القيام فحلف الملك ألا ينزل عن سريره، ودعا بالذهب والميزان، وأمر المريض بأن يقعد فى إحدى كفتى الميزان، فقال له: يا ملك العالم، لو عرفت أنك تفعل هذا للبست ثيابا كثيرة.

فقال له الملك: البس الآن جميع ما عندك من الثياب.

فلبس الرجل ثيابه المحشوة بالقطن، مما يعده للبرد، وقعد فى كفة الميزان، ووضع الذهب فى الكفة الأخرى، حتى رجحت ... وقال الملك للمريض: خذ هذا فتصدق به عن رأسك!

عرق النسا ...

يستعمل أكثر الأطباء تعبير «عرق النسا» فينبرى لهم بعض النقاد من اللغويين



يخطئون هذا التعبير، لأن «النسا» اسم للعرق، فيذكر وحده، دون حاجة إلى إضافة.

وهذا النقد قديم يتكرر على الأيام كلما تكرر ذلك التعبير، وقد جدده فى هذا الشهر الأستاذ عزيز خانكى بمناسبة ورود التعبير فى مقال طبى.

عرفت اللغة «النسا» فقالت: «عرق يخرج من الورك فيستبطن الفخدين، ثم يمر بالعرقوب، حتى يبلغ الكعب».

ويبدو من البحث أن تعبير «عرق النسا» يرجع إلى العصور الأولى، وأن أئمة اللغة الأقدمين اختلفوا فى تجويزه، فالاصمعى ينادى بأنه غير سائغ، ويرى أن العرب لا تقول: عرق النسا كما لا تقول: عرق الأكحل ونحوه. ولكن الكسائى وابن السكيت وثعلب وغيرهم لا يمنعونه، مخالفين فى ذلك الاصمعى ومن إليه.

وهنالك لغوى مصرى متقدم، هو «ابن برى» انتصر لتعبير «عرق النسا» وعلله بأنه من باب إضافة المسمى إلى الاسم، أو إضافة الشىء إلى نفسه، ما دام اللفظان مختلفين، مثل: حبل الوريد، وحب الحصيد.

وإذن فالأفصح أن يقال «النسا» وهذا هو الأصل، بيد أن تعبير «عرق النسا» لا يعوزه التعليل والتأييد.

ولكن الجديد فى الأمر أن «النسا» ليس بعرق! ... ذلك هو قول الطب الحديث، ولا خلاف عليه ... انما «النسا» عصب، وما أبعد الفروق بين الأعصاب والعروق!

فالدقة العملية تقتضى أن يقال: النسا، أو عصب النسا.

إيحـــاء ...

كشف «علم النفس» عن قوة الايحاء وما له من تأثير عميق ..

والأذكياء من الناس قديما، لم ينتظروا علم النفس ليكشف لهم هذه الحقيقة، فقد



عرفوها واستغلوها بفطنتهم فى اصابة ما يبتغون من أغراض.

يذكر تاريخ العصر العباسى الأول أن سعيد بن عثمان القاضى كان عظيم الحظوة عند الخليفة «المهدى»، وسر تلك الحظوة يكمن فى استخدام القاضى لحقيقة الايحاء والتأثير بها فى نفس الخليفة.

دخل عليه يوما، فقال له: «رأيت يا أمير المؤمنين آتيا فى منامى يطلب من أخبارك بأنك تعيش على كرسى الخلافة ثلاثين سنة، وآية ذلك انك ترى فى ليلتك هذه كأنك تقلب يواقيت، ثم تعدها فتجدها ثلاثين ياقوتة، كأنما وهبت لك»

فلما كان فى تلك الليلة، رأى «المهدى» ما ذكره الرجل حرفا بحرف، فسره ذلك، وقرب الرجل إليه وأناله الجوائز، وولاه قضاء العسكر.

على أن خادما من خدم الخليفة ارتاب فى الأمر، فسأل الرجل: «هل كان للرؤيا التى ذكرتها للخليفة من أصل؟».

فأجابه: «لا والله!».

قال الخادم: «كيف وقد رأى أمير المؤمنين ما ذكرته له؟».

فأجاب الرجل: «هذا مما لا يأبه به أمثالكم ... وذلك أنى لما ألقيت إلى الخليفة هذا الكلام، خطر بباله، وحدث به نفسه، وشغل به فكره، فساعة نام خيل إليه فى منامه ما حل فى قلبه، وما كان شغل به فكره...

فصدقنى وعظمت عنده منزلتى!».

تلحين الأذان ...

كانت الرغبة قد اتجهت منذ عهد قريب إلى منع المؤذنين على المنارات من التطريب فى أداء الأذان، والاقتصار على رفع الصوت به فى ترتيل لا تلحين فيه على النحو المعهود.



والحق أن الأذان كان مجالا للتفنن فى التلحين منذ العصور الإسلامية الباكرة، حتى أن «اسحاق الموصلى» - أمير الموسيقى فى العصر العباسي - اقتبس لحنا لقطعة شعرية غنائية من أذان سمعه.

وذلك أن «اسحاق» بات ليلة عند «المعتصم» وهو أمير، فسمع لحنا أذّن به «عبد الوهاب» المؤذن على باب المعتصم، فأعجبه، فأعاد المبيت ليلة أخرى عند الأمير، حتى استقام له اللحن، فبنى لحنه فى غناء أبيات من الشعر.

وظاهر من القصة أن الأذان كان أذان الفجر، وأن اللحن كان خاصا بالأذان فى هذا الوقت، بدليل أن «اسحق» بات ليلة أخرى ليسمعه .

وكذلك الأمر فى تلحين القرآن، فقد روى عن النبى «صلى الله عليه وسلم» قوله: «من لم يتغن بالقرآن فليس منا » وفسر «سفيان» التغنى بأنه الاستغناء، فلما ذكر ذلك «لأبى عاصم» لم يرض به، وذهب إلى أن التغنى بالقرآن مد الصوت فيه وتحسينه ...

ويذكرون لنبى الله «داود » أنه كانت له معزفة، فاذا قرأ أناشيده وأدعيته ضرب بمعزفته، فيبكى، ومن حوله يبكى السامعون ...

جمال أبى الهول

النظرة الرفيعة للجمال أنه «تناسب»، ولذلك اتخذ علماء الجمال وفنانوه مقاييس يفاضلون بها ويجعلونها مناطا للتحكيم، وعلى هذه المقاييس تختار ملكات الجمال.

هذه النظرة تتجلى لنا على لسان عالم رحالة هو «عبد اللطيف البغدادى»، نزل بمصر منذ قرون بعيدة، فوصف أحوالها، وما صادفه فيها، فاستمع إليه يصف «أبا الهول» لترى كيف استطاع بذوقه المصفى وفطرته السليمة أن يستخلص آية الجمال فى هذا التمثال.



يقول: «سألنى بعض الفضلاء: ما أعجب ما رأيت؟ فقلت: تناسب وجه أبى الهول، فإن أعضاء وجهه كالأنف والعين والاذن متناسبة، فإن أنف الطفل مثلا مناسب له، وهو حسن به، فلو كان ذلك الانف أنف رجل لكان مشوها به، وكذلك لو كان أنف الرجل للصبى لتشوهت صورته، وعلى هذا سائر الأعضاء.والعجب من مصوره: كيف قدر أن يحفظ نظام التناسب فى الاعضاء، مع عظمها، ويظهرها على هذا الاتقان الفتان؟!».

مثل فرنسى ... فى شعر عربى

فى مستهل هذا القرن، نظم الشاعر المصرى «إسماعيل صبرى» أبياتا ضمنها مثلا فرنسيا، وهو: ليت الشباب يعرف، وليت المشيب يقدر!

أما الأبيات فهى:

لم يدر طعم العيش شبان ... ولم يدركه شيب

جهل يضل قوى الفتى ... فتطيش والمرمى قريب

وقوى تخور إذا تشبث ... بالقوى الشيخ الأريب

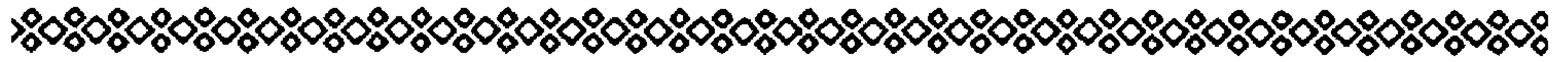
أواه لو علم الشباب ... وآه لو قدر المشيب

وقبل هذا التاريخ بنحو سبعمائة سنة، كان يعيش فى مصر فقيه كبير هو «ابن دقيق العيد»، ويروى له قوله:

تمنيت أن الشيب عاجل لمتى ... وقرب منى فى صباى مزاره

فآخذ من عصر الشباب نشاطه ... وآخذ من عصر المشيب وقاره

وشاعرنا القديم يتمنى أن لو جمع بين قوة الشباب وعقل المشيب، وهذا هو مضمون المثل الفرنسى الذى فتن به شاعرنا الحديث!



سفور من الغرب !

كان للقدوة الغربية أثر فى كشف النقاب عن وجه المرأة فى الشرق، وربما حسب الباحثون أن ذلك يرجع إلى زمن قريب، هو زمن النهضة الحديثة ...

ولكن الواقع أن الشرق عرف سفور المرأة الغربية منذ عهد بعيد، يربو على ثمانية قرون ...

وذلك حين وفدت نساء الافرنج على بعض الممالك الشرقية أيام الأيوبيين، فبينما كانت المرأة الشرقية لا ترى الا متحجبة على محياها نقاب، كانت المرأة الغربية تتراءى سافرة.

يحكى لنا مؤرخو هدا العصر الخالى أن رجلا من أهل الصعيد رحل إلى مدينة «عكا» ليبيع ما انتجه فى مزرعته المصرية من الكتان، فاستأجر هنالك حانوتا يبيعه فيه، فكانت تمر به امرأة افرنجية سافرة، فوقعت من قلبه، واشتد بها شغفه، ويقول النص التاريخى فى ذلك من باب التعليق والتفسير: «ونساء الافرنج يمشين فى الأسواق بلا نقاب»

وقد أفاضت القصة الأيوبية الطريفة فى بيان ما جرى من شأن هذا التاجر الصعيدى مع المرأة الافرنجية، حتى تزوجها، واستقر بها فى مصر موطنه، ورزق منها بأولاد شقر الوجوه، وكان من لا يعلم بحقيقة أمر زوجته، يعجب من سمرته وبياض أولاده!

رسول من الروم ...

فى أيام الخليفة العباسى «أبى جعفر المنصور» أنفذ ملك الروم إليه رسولا



لتوثيق أواصر الود، فورد الرسول على الخليفة، وبينما هو يسير على الجسر فى صحبة مرافق له من وجهاء الدولة العباسية، رأى عليه جماعة من العاجزين والمرضى يسألون ويستجدون، فقال لمرافقه: كان على الخليفة أن يرحم هؤلاء، ويكفيهم مؤونة السؤال. فأحابه المرافق: إن الأموال لا تسعهم!

ولما علم الخليفة بالأمر، لم يعجبه ذلك الجواب، فاستدعى إليه رسول ملك الروم، وقال له: «ان الأموال واسعة، ولكنى أكره أن استأثر على أحد من رعيتى وأهل سلطانى بشيء من حظ أو فضل فى دنيا وآخرة، وأحب أن يشركونى فى ثواب العاجزين والمرضى، حين يسألون أهل الخير والإحسان من ذوات أيديهم، فيعطونهم مما أفاض الله عليهم من الرزق، ليكون ذلك تمحيصا لذنوبهم، ونجاة لهم فى آخرتهم»

والخليفة إما أن يكون أراد بهذا الجواب كياسة فى الاعتذار، ولباقة فى التعليل، وإما أن يكون صادقا فيما يبتغيه من اذكاء روح البر فى نفوس الناس، وإفساح المجال أمامهم للإحسان، حتى يتعودوا ممارسة الخدمة الاجتماعية من معونة العاجز واسعاف المحتاج.

على أن أبا جعفر المنصور كان مشهورا بالبخل الشديد.والعجيب أن هذه المشكلة ما زالت قائمة إلى اليوم، فإننا نعالج مشكلة استجداء السائلين والعاجزين أمام أعين السياح!

بياض ... من سواد !

دارت فى الصحف مناقشة بين الأطباء حول توارث الألوان فى السلالات البشرية، وهل يكون الأبيض من الأسود أو العكس؟



وقد كان ذلك مثار نزاع وخصومة فى الأسر منذ أقدم العصور.

ويروى لنا تاريخ العصر الجاهلى أن رجلا عربيا تزوج امرأة من قومه، فولدت له أبناء يغلب على لونهم السمرة، ثم غاب فى بعض أسفاره بضعة أشهر، فلما قدم من سفره، ولدت له امرأته، ونظر إلى ابنه فإذا هو أحمر، فدعاها، وشهر سيفه فى وجهها وقال:

لا تمشطى رأسى ولا تفلينى ... وحاذرى الحسام فى يمينى

واقتربى، دونك أخبرينى ... ما شأنه أحمر كالهجين

خالف ألوان بنى الجون

ويقصد بقوله «بنى الجون»: أبناء السمر

وقد أجابته الزوجة فقالت:

إن له من قبلى أجدادا ... بيض الوجوه كرما أنجادا

ما ضرهم أن حضروا مجادا ... أوكافحوا يوم الوغى أندادا

ألا يكون لونهم سوادا

فهذه الزوجة العربية تحتج على زوجها بأن الابن يرث لون أجداده، إن لم يرث لون آبائه ...

ويؤيد هذا الرأى اليوم علماء الطب ومن إليهم، ممن يدرسون تراث الألوان وطبائع الإنسان.

كشف الرءوس ...

اشتدت الحملة على غطاء الرأس من طربوش أو غيره. وكثر الذين يبدون حاسرى رءوسهم فى صيف أو شتاء ...

ونحن العرب لم نستمسك بغطاء الرأس فى عصورنا الموغلة فى القدم، وبخاصة



فى أزهى عصور حضارتنا الزاهية.

لقد اشتهر العرب فى شرق الأندلس بأنهم حسروا رءوسهم على اختلاف طبقاتهم وفئاتهم، حتى الأمراء والملوك ...

يقول «ابن سعيد» المؤرخ ان أهل شرق الأندلس تسامحوا فى ترك العمائم، وقد رأى هذا المؤرخ بعينه أكبر عالم فى «مرسيه» عاصمة السلطان، وهو حاسر الرأس، بل رأى «ابن هود» ملك الأندلس فى عصره فى جميع أحواله دون عمامة، وكذلك رأى «ابن الأحمر» الذى كانت معظم بلاد الأندلس فى يده.

أما الجند وسائر أصناف الناس، فيقرر «ابن سعيد» أنهم كانوا يحسرون رءوسهم، سواء فى ذلك شرق الأندلس وغربها، وقل منهم من كان يتراءى على رأسه عمامة.

وليس بعد هذا شاهد على أن كشف الرءوس الذى يشيع اليوم بين الأمم العربية، إنما هو بعث للسنة التى جرى عليها العرب فى الأندلس منذ عصور وعصور.

تعبيرات فصيحة

هذه جملة من التعبيرات التى تجرى على ألسنة المصريين فى أحاديثهم، فإذا كتب الكاتبون منهم لم يستعملوها، ظنا منهم أنها تجانب الفصاحة التى يجب الحرص عليها فى مجال الكتابة، على حين أنها تعبيرات فصيحة:

* **الحس**: يستعمله الناس بمعنى الصوت، ولا يستعمله الكتاب إلا بمعنى الشعور، مع أن إمام اللغة ابن السكيت وغيره يقولون: سمعت حِسه، أى صوته.
* **الحاف**: يستعمله الناس فيقولون: خبز حاف، أى بلا ادام. وقد أثبت اللغويون من معانى الحاف أنه غير المخلوط بدسم، وإذن فالتعبير العامى له ما يسوغه.



* **الكبس:** يستعمله الناس فى معنى الهجوم المفاجىء، فيقولون: كبس العسكر داره، إذا فاجأوها واقتحموها، وهذا التعبير يرد فى كتب التاريخ القديمة كثيرا، ومن أمثلته ما فى «المسعودى»: «فأمر الرشيد بأن أتبعه وأن أكبسه فى منزله»

* **من ورائه:** كثيرا ما يقول الناس: كان هذا من ورائه، يعنون: دون علمه، وفى المخصص عن «أبى زيد»: اغتبت الرجل ذكرته من ورائه بسوء، فالتعبير قديم فصيح.

أبو حنيفة وأمه

الطفل يظل فى عين أمه طفلا، مهما يكن من أمره ...

هذه حقيقة إنسانية يشهد بها الواقع فى الماضى والحاضر ...

يحدثنا التاريخ حديثا عجبا عن الإمام الأعظم «أبى حنيفة» وما كان من شأن أمه معه، حين أرادت أن تعرف وجه الرأى فى حكم من أحكام الدين.

كان «أبو حنيفة» يومئذ فقيه أهل الكوفة، مشارا إليه بالبنان، وكانت أمه قد حلفت بيمين. ثم حنثت فى يمينها، فأقبلت على ابنها تستفتيه، فاستجاب لها وافتاها، ولكنها لم ترض فتواه، وقالت: لا أقبل إلا ما يقوله «زرعه».

أما «زرعة» هذا فكان أحد القصاص الذين يقومون فى المساجد والمشاهد يعظمون عامة الناس، ولم يكن له اختصاص بالفقه والفتوى، بيد أن «أبا حنيفة» لم يجد بدا من طاعة أمه، فمضى بها إلى «زرعة»، وقال له: «هذه أمى تستفتيك بكذا وكذا»، فدهش الرجل قائلا: «كيف أفتيها ومعها فقيه الكوفة؟ وما علمى بالرأى الراجح وأنت منى أعلم؟» فمال عليه «أبو حنيفة يقول له: «افتها بكذا وكذا»، فأفتاها فرضيت بما قاله «زرعة» القاص، واطمأنت إلى أن ابنها «أبا



حنيفة» على صواب!

هكذا فهموا الغناء

يقولون: إن موسيقيا أجنبيا سمع لحنا عصريا لانشودة حماسية، فلما سئل: ماذا يظن فى هذا اللحن؟ وعلام يدل؟ أجاب: أظنه لحنا راقصا! ... وكان عجبه شديدا حين أخبروه بجلية الأمر.

ونحن نقرأ ما تناثر إلينا من لمحات الفنانين الاقدمين، فنرى كيف كان يفهم اسلافنا الغناء، وكيف كانوا يعرفون أن الألحان يجب أن تلائم المعانى الموضوعة لها، وأن تعبر عنها.

وتلك فقرات يثبتها صاحب «المخصص» ويقول إنها لبعض المتفلسفين المهرة باللحون، وأظنه الموصلى ... «ينبغى أن توضع الألحان فيما شاكلها من الأشعار، فمنها ما يبكى ويرقق، وهو لما كان من الشعر فى الغزل والتشوق إلى الوطن والبكاء على الشباب والمراثى والزهد ... ومنها ما يطرب وهو لما كان فى نعت الشراب وذكر الندماء والمجالس ... ومنها ما يشوق وترتاح له النفس، مثل صفة الأشجار والزهر والمتنزهات والصيد .. ومنها ما يسر ويفرح ويحث على الكرم، وهو لما كان فى المديح والفخر .. ومنها ما يشجع، وهو لما كان فى الحرب وذكر الوقائع والغارات والأسرى وغير ذلك ... وهذا كله يدعى: غناء!».

لباس المظلومين

كان «أبو السعد» فقيها واعظا، وقد شهد مجلس وعظه - فى القرن الخامس الهجرى - الوزير «نظام الملك»، فقال له الفقيه: «أنت وان كنت وزير الدولة، فأنت



أجير الأمة ..» ثم مضى يقول له:

«هذا ملك الهند، ذهب سمعه، فدخل عليه أهل مملكته يعزونه فى سمعه، فقال: ما حسرتى لذهاب هذه الجارحة من بدنى، ولكن تأسفى لصوت المظلوم، لا أسمعه فأغيثه ... ان كان قد ذهب سمعى، فما ذهب بصرى، فليؤمر كل ذى ظلامة بأن يلبس الأحمر، حتى إذا رأيته فأنصفته ...».

إعراب الأسماء

لا ريب فى أن عصرنا الحاضر، عصر ازدهار للغة العربية: قواعدها وأساليبها، ولكن هناك قاعدة عربية لم يستسغها العصر الحاضر فى الكتابة والخطابة على السواء، تلك هى قاعدة اعراب الاعلام، ولا سيما فى حالة النصب، فهيهات أن تجد كاتبا يقول: «رأيت عباسا» أو «حدثت حسنا» اذ جرى الكتاب على ترك اعراب المنصوب فى الأسماء.

ويبدو أن هذا الصنيع كان أيضا فى أزهى عصور العربية الماضية، فإن المؤرخ «البلاذرى» يقول: «كتبت الأسماء على صورها، ولم أعربها فى النصب، لئلا يظن ظان أن بعض الألفات التى زيدت فى الإسم المنصوب الجارى ثابتة فيه، وانها ليست بإعراب، وكذلك رأيت عدة من المشايخ فعلوه فى النسب».

وهذا نص تاريخى مضى عليه أحد عشر قرنا، يضاف إليه أن النحويين الكوفيين كانوا يرون منع الصرف بالعلمية وحدها، وبذلك لا يرون بأسا فى أن يقال مثلا: «رأيت عباس» و«حدثت حسن».



الحماة والمحبرة

ما أكثر شروط الحموات على أزواج بناتهن، ولكن «الخطيب» مؤرخ «بغداد» يضيف إلى شروط الحموات شرطا طريفا، ذلك أنه لا يجوز أن يكون للزوج محبرة... فإن الكتابة تشغله عن زوجته، وما هذه المحبرة إلا أشد أذى على الزوجة من الضرائر.

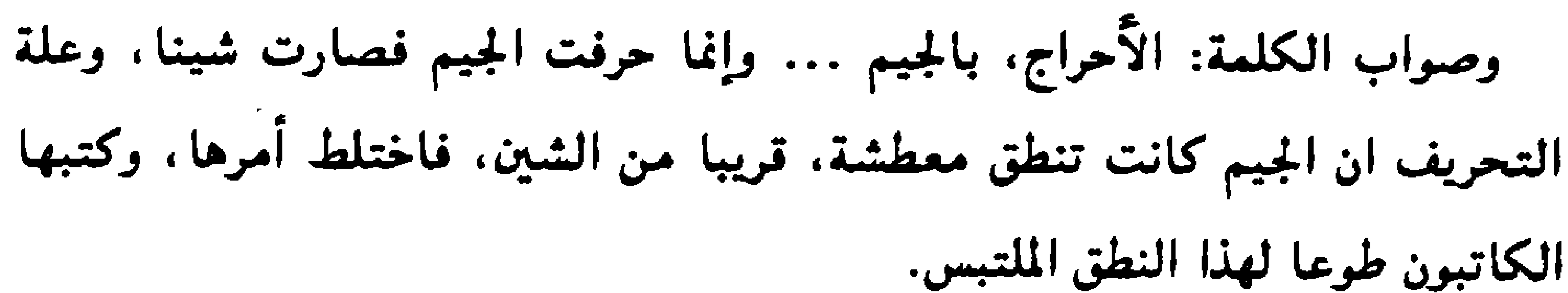
وإليك القصة: تزوج محمد بن أحمد المحتسب، وبينما هو ذات يوم يجلس على عادته، وقد أخذ يكتب شيئا، والمحبرة بين يديه إذ أقبلت أم زوجته، فما رأت المحبرة حتى أخذتها، وما هى إلا أن ضربت بها الأرض، فسال مدادها وانكسرت. فعجب الرجل من أمرها، وسألها: ماذا جنت المحبرة؟ فأجابته: بس ... هذه شر على ابنتى من ثلاثمائة ضرة!

وهكذا قالت الحماة لزوج ابنتها: بس! ... قالت ذلك منذ تسعة قرون - كما سجل مؤرخ بغداد - وما زالت تقال إلى اليوم!

الأحراج لا «الأحراش»

الكتب التى تلقى إلى التلاميذ أخصب منبت لشيوع الكلمات، ولذلك وجب أن يتحرى الصواب فى عباراتها، حتى لا يتورط النشء فى اغلاط يصعب عليهم التفادى منها.

هذه كلمة «الأحراش» التى شاعت فى معنى الغابات، تراها غير مرة فى كتاب وزعته وزارة التربية والتعليم على تلاميذها وعنوانه: «بدء تحضر الإنسان».



وصواب الكلمة: الأحراج، بالجيم ... وإنما حرفت الجيم فصارت شينا، وعلة التحريف ان الجيم كانت تنطق معطشة، قريبا من الشين، فاختلط أمرها، وكتبها الكاتبون طوعا لهذا النطق الملتبس.

ولو أن الكلمة أثبتت على وجهها الصحيح فى ذلك الكتاب المدرسى، لضمن التلاميذ سلامة ألسنتهم واقلامهم من خطأ شائع لا مسوغ له فى اللغة.

ساعة ... لقلبه !

كان «عتيق بن محمد الوراق» من أهل مدينة «القيروان»، وبينه وبين الشاعر «ابن رشيق» صداقة ومودة. وقد حدثنا الشاعر حديث صديقه: فقال:

دخلت الجامع الكبير فى يوم جمعة، فوجدت «عتيقا» فى حلقه من الناس، يقرأ المواعظ، ويقص أخبار السلف الصالحين، وقد بدا خشوعه، وترقرقت دموعه ... وفى عشية ذلك اليوم، جئت إلى بيته، فوجدته وفى يده طنبور، وعلى يمينه زجاجة نبيذ، فقلت له: «ما أبعد ما بين حاليك فى مجلسيك، مجلس الظهر، ومجلس العشية!».

فقال لى عتيق: «ذلك بيت الله، وهذا بيتى، اصنع فى كل واحد منهما ما يليق بصاحبه! ..».

شربنا نخبه

من التعبيرات العصرية: شربنا نخبه، وتبادلنا الأنخاب، وذلك للكئوس التى تشرب باسم الصداقة.



وقد تعقب النقاد هذا التعبير، وقالوا: ان العربية لا تعرفه، وان مقابلة الفصيح: شرب على ذكره، ومنه قول «النواسى»:

شربنـــا علـــى ذكـــر الحبيـــب مدامـــة
سكـــرنا بهـــا من قبـــل أن يخلـــق الكـــرم

والحق أن التعبير الشائع اصله: النخبة، وهى الشربة العظيمة، ويبدو أن استعمال النخبة فى هذا المعنى العصرى استعمال قديم، فالإمام اللغوى «الصاغانى» يقول: «والنخبة بالفارسية: دوستكانى»، والخبراء بلغة الفرس يقولون: إن دوستكانى معناها الشربة باسم الخليلة أو الصديق أو العظيم.

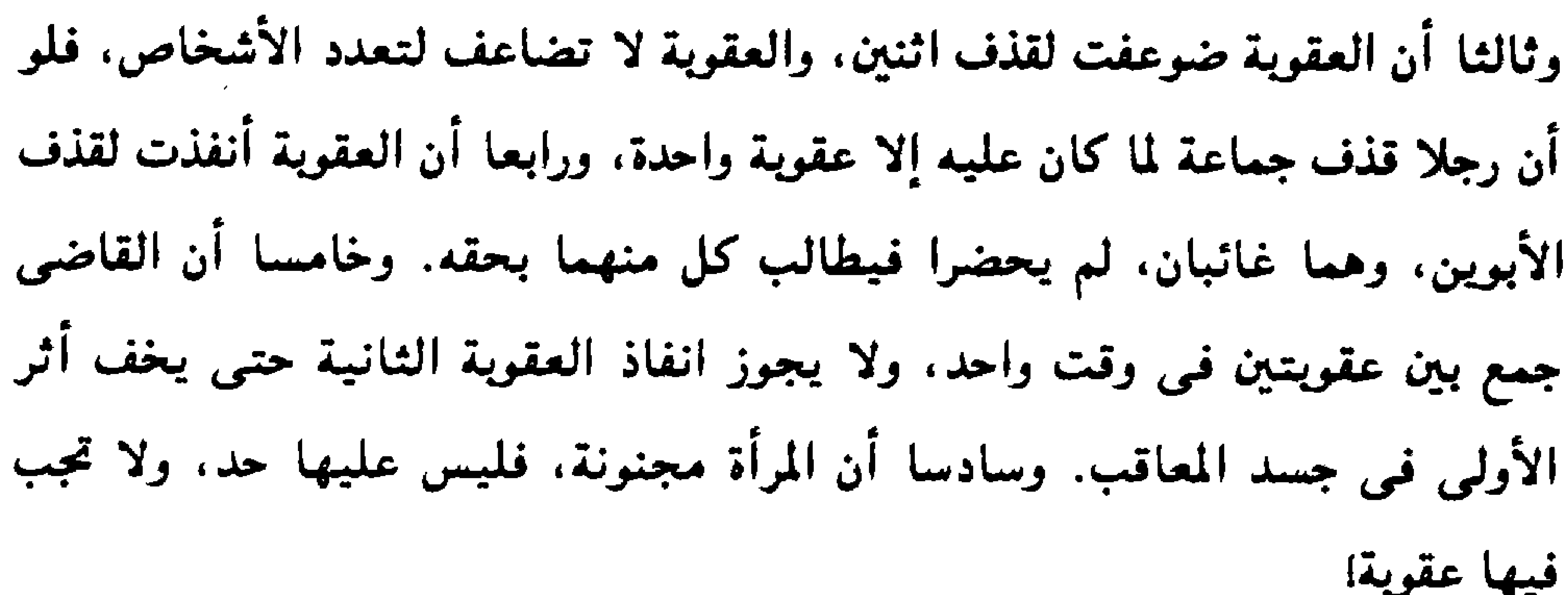
وفى رسالة البكرى - شارح الأمالى - يقول: «هزت أعطاف الأيام طربا، وسقت أقداح السرور نخبا» ولعل فى هذه الجملة تلميحا إلى ذلك المعنى.

وإذن فالتعبير العصرى له من اللغة سند وثيق.

دفاع ... عن المجنونة !

فى عهد الإمام «أبى حنيفة» كانت تعيش امرأة مخبولة تسمى «أم عمران»، فمر بها ذات يوم، وأخذ يكلمها، فثارت عليه، وقذفت أباه وأمه ... وفى ذلك الوقت كان قاضى القضاه «ابن أبى ليلى» حاضرا يسمع، فقال للرجل المعتدى عليه: «أدخل المرأة إلى المسجد لأنظر قضية القذف». وحكم القاضى عليها، وأنفذ فيها العقوبة مضاعفة، مرة لقذف الأب ومرة لقذف الأم.

وانتهى الخبر إلى «أبى حنيفة» فاعترض على هذا الحكم، وافتى بأنه باطل للحيثيات الآتية: أولا أن العقوبة أنفذت فى المسجد، والعقوبات لا يجوز انفاذها فى المساجد، وثانيا أن المرأة جلدت وهى واقفة، ولا يجوز جلد النساء إلا قاعدات.


وثالثا أن العقوبة ضوعفت لقذف اثنين، والعقوبة لا تضاعف لتعدد الأشخاص، فلو أن رجلا قذف جماعة لما كان عليه إلا عقوبة واحدة، ورابعا أن العقوبة أنفذت لقذف الأبوين، وهما غائبان، لم يحضرا فيطالب كل منهما بحقه. وخامسا أن القاضى جمع بين عقوبتين فى وقت واحد، ولا يجوز انفاذ العقوبة الثانية حتى يخف أثر الأولى فى جسد المعاقب. وسادسا أن المرأة مجنونة، فليس عليها حد، ولا تجب فيها عقوبة!

ولما علم قاضى القضاه بهذه الفتوى استشاط غضبا، وشكا إلى الأمير، فنهى أبا حنيفة أن يفتى فى قضايا الناس. ثم رفع عنه الحجر بعد حين ...

أسرار الجيوش

تحرص الدول فى العصر الحديث على إخفاء عدد الجنود فى الجيش، وتعتبر ذلك العدد من الأسرار التى لا يجوز افشاؤها بحال.

وقد كانت الدول الإسلامية فى القرون الماضية تجرى على هذه الخطة، وتتشدد فيها أيما تشدد، حتى لا يعرف الأعداء شيئا عن عدة الجيش، وذلك هو «النويرى» يطل علينا من وراء مئات السنين لينقل إلينا «التعاليم» التى يجب على مباشر الجيش ألا يتعداها، فيقول: «ويتجنب مباشر الجيش أن يرقم بقلمه عدة جيش تصريحا، لما يتعين من اخفاء عدته، فإنه إن وضع ذلك بقلمه لا يأمن من الاطلاع عليه، فيشيع ويذيع، وقد يتصل بالعدو والمعاند والمناوىء، فيترتب عليه من المفاسد ما يترتب . وهذا باب يجب على كاتب الجيش الاحتفال به، والإحتراز من الوقوع فيه وكتمانه عن سائر الناس، وإن دعته الظروف إلى تسطير ذلك خشية أن يسأله ولى الأمر عن شىء منه، فليكن وضعه لذلك رمزا خفيا يصطلح عليه مع نفسه، لا



يعرفه إلا هو، أو من له دربة بمباشرة الجيش ...».

لكل أجل كتاب

تساق هذه الآية الكريمة فى أغلب الأحيان عند التعزية، وفى مقام التخفيف عن المصابين بفقد قريب أو عزيز. ويفهم الناس منها أن الأجل هنا هو العمر، وأن الكتاب هو القدر المسطور، فالأعمار مسجلة فى مواقيت لا تتقدم ولا تتأخر.

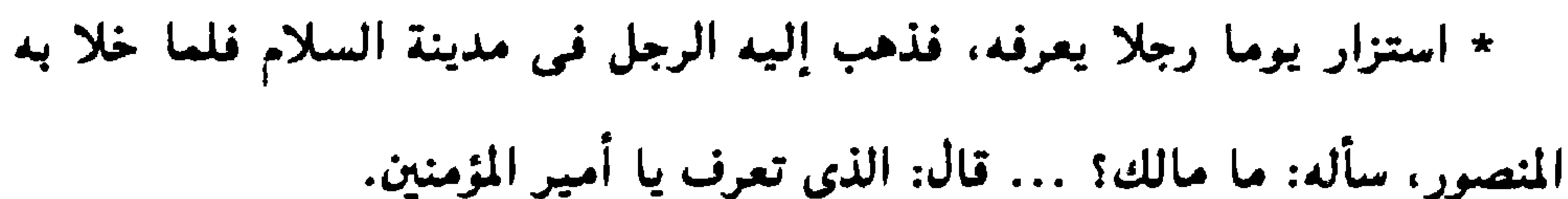
بيد أن للآية مدلولا دقيقا، ما أحوجنا إليه اليوم فى فهمنا لحقيقة الدين، وادراكنا لروح الشريعة، لكى نساير الحياة على بصيرة وهدى.

لقد نزلت هذه الآية فى الرد على من ينكرون أن تنسخ بعض الأحكام، فأوضحت الآية أن لكل وقت كتابا، أى حكما معينا، فالشرائع إنما جاءت لإصلاح الناس، فلابد إذن أن تختلف على حسب الأحوال المتغيرة فى الأوقات المختلفة، مثل اختلاف العلاج على حسب اختلاف المرضى واختلاف الأوقات.

وذلك هو الإمام «الزمخشرى» يقول فى تفسير تلك الآية: «الشرائع مصالح تختلف باختلاف الأحوال والأوقات، فلكل وقت حكم يكتب على العباد، أى يفرض عليهم، على ما يقتضيه استصلاحهم ...».

فلسفة البخل ...

كان الخليفة العباسى «المنصور» عجبا من العجب فى الذكاء وبراعة الحيلة ولطف التخلص، وأكثر ما كان يستعمل عبقريته هذه فى الشح وصيانة ماله عن طالبيه.



* استزار يوما رجلا يعرفه، فذهب إليه الرجل فى مدينة السلام فلما خلا به المنصور، سأله: ما مالك؟ ... قال: الذى تعرف يا أمير المؤمنين.

- يريد أنه قليل - فسأله المنصور: ما عيالك؟ قال: زوجة وثلاث بنات وخادمة. فقال المنصور: أنت إذن أيسر العرب، أربعة مغازل تدور فى بيتك!

وهكذا خرج الرجل من عنده لم يظفر منه بطائل.

* وكتب أديب إلى «المنصور» يسأله الزيادة فى عطائه ورزقه، وجعل كتابه بليغا فى عبارته، فكان توقيع «المنصور» فيه: «ان الغنى والبلاغة إذا اجتمعا فى رجل فانهما يبعثانه على البطر، وأمير المؤمنين يشفق عليك من ذلك. فاكتف بالبلاغة!»

وهكذا جنت البلاغة على الأديب المسكين، من حيث قدر أنها تفيده...

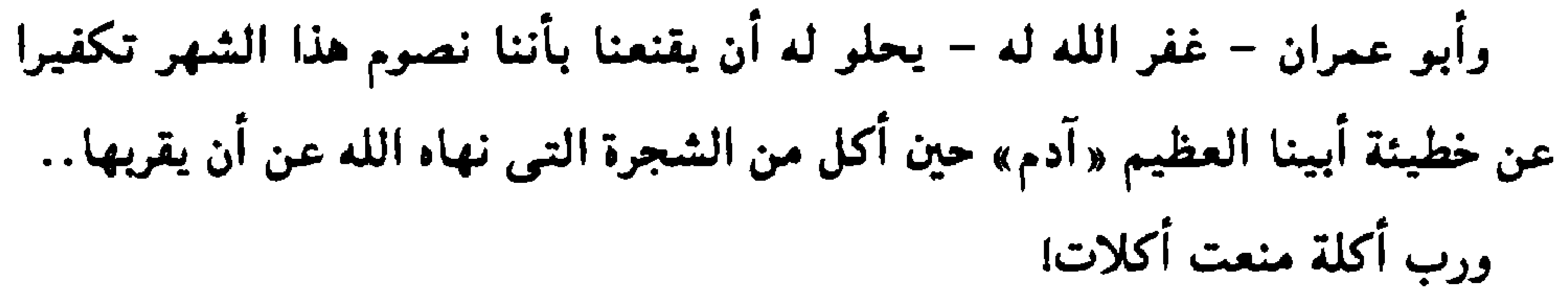
رمضان من أجل «آدم» ...

كانت الشجرة التى أكل منها أبونا «آدم» وافرة الثمرات للفكر البشرى فى عالم الحقيقة أو فى عالم الخيال ...

ولعل الجديد من أمرها على الناس أن اليها مرجع السر فى صوم «رمضان».

ذلك ما جاءنا به أحد المحدثين غير الموثقين - وهو أبو عمران الثقفى - إذ يقول فيما يحدث به عن أنس بن مالك، عن النبى صلوات الله عليه:

«افترض الله على أمتى الصوم ثلاثين يوما، وافترض على سائر الأمم اقل وأكثر، وذلك لأن آدم لما أكل من الشجرة، بقى طعمها فى جوفه مقدار ثلاثين يوما، فلما تاب الله عليه أمره بصيام ثلاثين يوما، فافترض على انا وأمتى الصيام بالنهار، وما نأكل بالليل ففضل من الله عز وجل ..».



وأبو عمران - غفر الله له - يحلو له أن يقنعنا بأننا نصوم هذا الشهر تكفيرا عن خطيئة أبينا العظيم «آدم» حين أكل من الشجرة التى نهاه الله عن أن يقربها.. ورب أكلة منعت أكلات!

سحور أمير المؤمنين !

دخل على «أبى جعفر المنصور» كاتبه «ابن رغبان» فى شهر الصوم،

فقال له الخليفة: أتعطش؟

قال الكاتب: نعم يا أمير المؤمنين.

فقال الخليفة: ما سحورك؟

قال الكاتب: فرخ أو دجاجة أو لحم بارد أو شواء ...

قال الخليفة: هذا الذى يعطشك ... عليك أن تتسحر بما يتسحر به أمير المؤمنين... انظر إلى كعكات من هذا الكعك الشامى، فاجعلها فى قدح، واغمرها بالماء، وذلك من أول الليل، فإذا كان وقت السحور وجدت الكعك قد ذاب فى الماء، فاشربه فإنه طعام يعصم، وشراب يروى.

قراصيا .. بالطائرة !

يحدثنا مؤرخو الحياة الاجتماعية فى مصر أن «العزيز» - أحد خلفاء الدولة الفاطمية - ذكر لوزيره «يعقوب بن كلس» أنه ما رأى «القراصية» التى توجد فى الشام، وأنه يشتهى أن يراها ...

وحرص الوزير على أن يستجيب لرغبة الخليفة، ولكنه كان فى ذلك أسرع مما يتصور أحد ...



ما كادت شمس النهار تغيب، حتى استأذن الوزير على الخليفة، وقدم إليه حبات من «القراصية» ... فعجب أشد العجب، وسأله: كيف استطعت الحصول عليها خلال ساعات من النهار؟

أما سر ذلك فهو أنه كان بمصر حمائم من دمشق، وكان بدمشق حمائم من مصر، وكانت مهمة هذا الحمام هنا وهنالك نقل الرسائل بين البلدين ... فكتب الوزير بطاقة يأمر بها أحد الولاة الدمشقيين أن يجمع ما عنده من الحمام المصرى، ويعلق فى كل طائر حبات من «القراصية» الشامية ويطيره إلى مصر.

وهكذا وصلت القراصية فى خلال ساعات ... بالطائرات!

خزانة الحكمة ...

فى القرن الثالث الهجرى، وفى مدينة بغداد، عاش على بن يحيى المنجم الطبيب الأديب ...

كان واسع الثراء، فاشترى ضيعة نفيسة، وبنى بها قصرا جليلا، وأنشأ فى القصر خزانة كتب عظيمة، أطلق عليها اسم: «خزانة الحكمة».

ولم يجعل هذه الخزانة خاصة له، وإنما أباحها للناس عامة، فكانوا يقصدون إليها من كل بلد، فيقيمون فى القصر، ويدرسون صنوف العلم، والكتب مبذولة لهم، والصيانة مشتملة عليهم، والنفقة فى ذلك كله من مال صاحب الخزانة.

وقد كان «أبو معشر» المنجم المعروف من خريجى «خزانة الحكمة»... سافر من بلده «خرسان» يريد الحج، وفى طريقه سمع بهذه الخزانة، فمضى إليها، وأقام بها، وأضرب عن الحج، وتعلم علم النجوم حتى أعرق فيه، وأصبح له ذلك الصيت البعيد!

الوسيــــط ...

تألقت كلمة «الوسيط» بمعنى المتوسط بين الايجاز والتوسع، ومن ذلك تسمية المرحوم الشيخ السكندرى - أحد أئمة الأدب فى العصر الحديث - كتابه «الوسيط فى الأدب العربى وتاريخه»، وجاء على أثره الدكتور «السنهورى» فسمى كتابا له فى القانون باسم «الوسيط»، وكلاهما يريد المتوسط فى الحجم والمادة.

واللغة تأبى هذا ... فإن كلمة «الوسيط» لها معنيان: الأول السفير بين الخصمين للوفاق، والآخر: الأفضل والأوفى والأخصب من كل شىء ...

قال العرجى:

كأنــى لم أكــن فيهـم وسيطــا ولم تـــك نسبـــتى فى آل عـــمـــر

وأجمع علماء الأدب على أن تفسير الوسيط هو الأعرق نسبا والأرفع محلا وقال تعالى: «وكذلك جعلناكم أمة وسطا»، فالوسط من كل شىء: أفضله وخياره وأعدله. وقيل للخيار وسط، لأن الأطراف يتسارع إليها الخلل والأوساط محمية محوطة، كما قال الطائى:

كانت هى الوســط المحمــى فاكتنــــفت

بها الحوادث حتـى أصبحـــت طرفــا

أليس من الخطأ إذن ما شاع وذاع وملأ البقاع من تحميل كلمة «الوسيط» معنى «المتوسط» بين الإجمال والتفصيل.

هذا معنى توهمه العصريون فأشاعوه. فإن أبينا إلا الإبقاء عليه فلنعرف أنه محدث لا يرجع إلى مأثور اللغة وصميمها الوسيط!



صريع التمر...

العلماء والفنانون حين يقبلون على عملهم، ينهمكون فيه فلا يحسون ما حولهم، وربما زاولوا - على غير وعى - ما لا يكاد يصدق لغرابته وشذوذه ...

وهذه ميتة مؤسفة لقيها شيخ المحدثين الإمام «مسلم»، بسبب انهماكه فى البحث والتنقيب، تحت جنح الليل!

قالوا: إن مسلما، صاحب الحديث عقد له مجلس للمذاكرة، فذكروا حديثا يروى عن رسول الله، وعجب «مسلم» لأنه لم يذكر هذا الحديث المروى، وأراد أن يرجع إلى أوراقه يبحث ويفتش عله يجد نصه وسنده، وما أسرع أن انصرف إلى منزله، وأوقد السراج، وقال لمن فى داره: لا يدخلن أحد منكم على، ولا يشغلنى بشىء...

فقيل له: لقد أهديت لنا سلة فيها تمر، فهل لك فيها أرب؟

فأجابهم: قدموها إلى، ودعوها ...

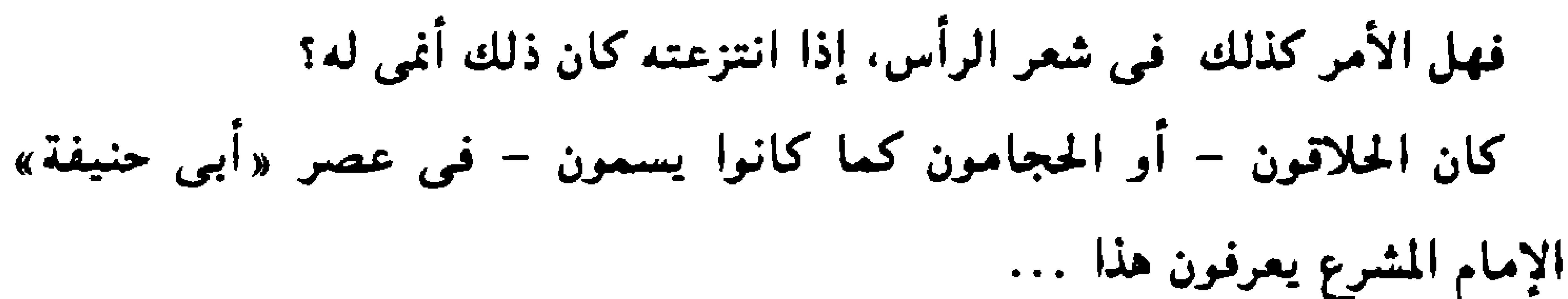
وجعل يبحث فى أوراقه، طالبا الحديث، وهو يأخذ من السلة تمرة بعد تمرة، يمضغها ويبتلعها، حتى أصبح وقد عثر على الحديث المنشود بعد أن استنفد سلة التمر ...

ويقول الثقة من أصحابه: أنه مات من هذه الأكلة ...

وهكذا وجد الحديث، وفقد نفسه، وقضى صريع التمر!

انتزاع الشعر ينميه

الشجرة إذا قلمت صلحت وطاب الزهر أو الثمر ...



فهل الأمر كذلك في شعر الرأس، إذا انتزعته كان ذلك أنمى له؟

كان الحلاقون - أو الحجامون كما كانوا يسمون - فى عصر «أبى حنيفة» الإمام المشرع يعرفون هذا ...

فقد جاء حجام يأخذ من شعر «أبى حنيفة»، وكان الإمام الأعظم يكره الشيب، فقال للحجام: تتبع مواضع البياض وانتزاع الشعرات البيض ... فقال الحجام: لا أفعل، لأنها إذا انتزعت كثرت.

فقال له «أبو حنيفة»: إذن فتتبع مواضع السواد، وانتزع الشعرات السود، لعلها تكثر، فتغطى على الشيب ...

ولما سمع الفقهاء بحكاية «أبى حنيفة» قالوا: إن الإمام يتمسك بالقياس المنطقى فى عامة شأنه، حتى مع الحجام!

غريـــب !

يحدثنا «أبو حيان» التوحيدى أنه كان فى «أصفهان» رجل مكفوف البصر، يطوف بالأحياء ليسأل الناس احسانا.

ومرة جاد عليه رجل برغيف، فما كاد يمسكه السائل فى يده، حتى دعا للرجل المحسن بقوله:

بارك الله عليك، ورد غربتك!

فعجب الرجل من هذا الدعاء، وقال للسائل:

من أدراك أنى غريب، وأنت لا ترانى، فتعرف من هيئتى ما يدلك على ما تقول؟

فأجاب السائل: الآن لى هنا عشرون سنة، ما ناولنى أحد من أهل البلد رغيفا



صحيحا ... فلا ريب عندى فى أنك غريب!

الجائزة ...

شاعت كلمة «الجائزة» فى معنى المكافأة أو الهبة التى تمنح للتشجيع والتكريم.

فما أصل هذه الكلمة؟

ينقل «ابن رشيق» فى أصلها أن السائر فى البادية كان إذا ورد ماء قال للقيم على الماء: اجزنى، أى زودنى بما يجيزنى الطريق، ومنه قول الشاعر:

يا قيم الماء فدتك نفسى عجل جوازى وأقل حبسى

ولكن «ابن قتيبة» يذكر للكلمة أصلا غير الأصل، هو أنه فى عهد الخليفة الراشد «عثمان» انبعث جيش لغزو «خراسان» فلما مر الجيش «بفارس» وقف واليها على قنطرة هنالك يعرض الجنود، ويعطى كلا منهم على قدر حسبه، فلما كثروا عليه قال: أجيزوهم، فأجيزوا. فكان أول من سن الجوائز.

وثمة رواية أخرى «للقلقشندى» تقول: أنه بينما كان هذا الجيش فى طريقه إذ جرى الوادى بسيل خيف منه الغرق، فقال القائد: من عبر السيل، فله ألف درهم. فلما علم الوالى بذلك، استكثر المال على الجند: إذ بلغ المطلوب أربعة ملايين من الدراهم، فكتب إلى الخليفة فى ذلك، فأجازه، وقال: كل ما كان فى سبيل الله فهو «جائز»، ومن ثم سميت تلك المنحة «جائزة».

وأغلب الظن أن أقدم الروايات نصا واصحها ما رواه «البلاذرى» من أن الحجاج» والى «العراق» جعل أحد القواد من «بنى هلال» على بلاد «فارس» و«كرمان»، فانتهى القائد فى سيره إلى نهر لم يقدر أصحابه على إجازته، فقال: من جاز فله ألف درهم، ووفى بوعده، فكان ذلك أول يوم سميت «الجائزة» فيه.



وسارت الكلمة مع الزمن تحمل معنى المكافأة أو المنحة فى كل مجال.

بسم الله ... وجب !

ما أكثر الفصيح فى لهجتنا العامية، وعلينا أن نتعرفه ... وهذان مثلان:

١- يدعو الرجل صاحبه إلى الطعام، فيقول: تعال باسم الله، فيختصر النطق بلفظ الجلالة، إذ يجعله لاما غير مشددة غير ممدودة، ومدها هاء سكت مختلسة، فيقول «بسم اللا».

ومن الأسماء المصرية «عبد اللا»، لا تمد فيه اللام، ولا تكاد تظهر الهاء فى آخره، وهو بلا ريب «عبد الله» ...

هذه اللهجة العامية فى النطق بلفظ الجلالة، لها سند من لهجات العرب الأولين، فقد نقلوا عن أحد رواة اللغة - وهو «أبو الهيثم» - قوله: «لقد قالت العرب: بسم الله، بغير مدة اللام، وحذف مدة «لاه»».

وينشد لأحد الشعراء:

أقبل سيل جاء من أمر الله　　　يحرد حرد الجنة المغلة

٢- كلمة «وجب» ينطقها العامة من أهل «مصر» ليعبروا بها عن معنى الإقرار للشيء، والاستجابة للرغبة. وهم لا يستعملون هذه الكلمة فى الغالب إلا فى أحاديث الصفو والمفاكهة، فإذا طلب أحد منهم شيئا، قال له صاحبه: «وجب»!

ومن العجيب أن هذه الكلمة وردت فى بيت لشاعر الهوى «عمر بن أبى ربيعة» إذ يقول:

ان كفى لك رهن بالرضا　　　فاقبلى يا هند، قالت: قد وجب

وقد جاءت الكلمة قافية ساكنة، فأديت فى البيت القديم كما يؤديها العامة

اليوم فى مجالس السمـر ...

فضيلة العراة ... !!

تحفل الشواطىء فى موسم الاصطياف بأشباه العراة، ويختلف الناس فى تقدير ذلك الصنيع واعتباره من ناحية الفضيلة، ولكنهم قلما يختلفون فى ضرورة الوقوف عند حد، خشية الانسياق إلى العرى الكامل، كما هو الشأن فى بعض الشواطىء الأوروبية.

ويحدثنا التاريخ أنه منذ أحد عشر قرنا ذهب سفير عربى - أوفده خليفة المسلمين - إلى بلاد «بلغار» فكتب يصف ما شاهده هنالك، وكان فيما قاله:

«ينزل الرجال والنساء إلى النهر، فيغتسلون جميعا عراة، لا يستتر بعضهم من بعض ...

«ولقد اجتهدت أن تستتر النساء من الرجال فى السباحة، فما استوى لى ذلك...».

ويبدو أن هذا السفير العربى أراد أن يتعرف أثر هذا العرى فى اخلاق القوم، وفى وزنهم للفضيلة، فقال يقرر ما تبين له:

«إنهم لا يرتكبون الفاحشة بوجه ولا سبب، ومن فعل ذلك منهم - كائنا من كان - ضربوا له أربعة أعواد من الحديد، وشدوا يديه ورجليه إليها، وقطعوا بالفأس من رقبته إلى فخده، ثم علقوا كل قطعة على شجرة»!

الورد والقبلات ...

صنع أمير الشعراء «شوقى» أغانى باللهجة العامية، ولكنه حرص فيها على أن



تكون ديباجتها شعرية، وأن تكون معانيها وأخيلتها مما يحتفل له الشعراء. من ذلك قوله فى صفة الورد:

تبـــارك اللـى خلــق ظلـــك من الخفــة
واللـى كســاك الــورق ولفـــه دى اللفــة
زى القبـــل ولفـــت شفـــه على شفـــه

هذا المعنى الجميل فى تشبيه اجتماع أوراق الورد بالتقاء الشفاه للتقبيل قاله الشعراء من قبل، ومنهم من حام حوله، ومنهم من اقتبس منه معنى آخر.

ينسب إلى جارية «الرشيد» قولها تصف الورد:

كأنـــه فـم محبــوب يقبلـــه فـم المحـب وقد أبـدى به خجلا

فهذا معنى قول «شوقى» سواء بسواء، مع زيادة تعليل حمرة الورد بأنها حمرة الخجل من التقبيل!

وثمة شاعر يروى له فى مجاميع الأدب قوله:

سبقــت اليـك من الحدائـق وردة وأتتـك قبـل أوانهـا تطفيـلا
طمعت بلثمك إذ رأتك فجمعت فمها اليك كطالـب تقبيـلا

وهذا الشاعر يصف الوردة الغضة فى كمها قبل التفتح بأنها تشبه الشفتين فى تجمعهما لالتماس القبلة.

وفى ذيل «ثمرات الأورلق» تقرأ قول شاعر:

عشيـة حياتـى بورد كأنـــه خدود أضيفت بعضهن إلى بعض

وهو معنى آخر، ولكنه ينظر إلى ذلك المعنى الأول من قريب.

الألف كتاب ...

تنجز وزارة التربية والتعليم مشروعا ثقافيا للترجمة، جعلت عنوانه: «الألف



كتاب».

وقد تساءل حراس قواعد اللغة العربية حين طالعوا هذا العنوان: كيف أجازت الوزارة أن تتخذ هذه الصيغة التى تجارى بها الأسلوب الدارج، فتجعل العدد معرفا، والتمييز المضاف إليه نكرة؟

هذه مسألة سبق لبعض النقاد اللغويين فى العهود السوالف أن أثاروها، فأنكروا على الناس أن يقولوا: المائة كلمة، والألف مرة، ونحو هذا مما تجرى السنتهم به.

ولكن تحقيق تلك المسألة يسفر عن جواز تعريف العدد المضاف وحده، دون تمييزه المضاف إليه. وقد حكى ذلك الجواز أمام نحوى هو «ابن عصفور».

وللمجيزين أن يستندوا إلى أمثلة يصح بها الاستشهاد والاستئناس، وعلى رأسها حديث نبوى وقع فى صحيح البخارى، جاء فيه: «وأتى بالألف دينار ...».

وأنى راقبت هذا التعبير فى آثار الفصحاء والبلغاء، فأحصيت منه الكثير على توالى العصور.

فى أخبار القضاة لخلفا: «فأخذ بلال المائة ألف»

وفى نشوار المحاضرة للتنوخى: «الخمسمائة دينار»

وفى المكافأة لأحمد بن يوسف: «ودفعت إليه الألفى دينار»

وذلك يكفى فى رفع الخلاف على قول الكتاب: «الألف كتاب».

صلاة ... ونبيذ!

يرى بعض الأطباء حديثا أن النبيذ غذاء ودواء، وهو جدير أن يعالج كثيرا من الأمراض، ويفيد الجسم أيما فائدة.

وهذا يذكرنا بالخلاف القديم بين الفقهاء المسلمين فى شأن النبيذ، فقد تنازعوا



فى تحديده، وفيما يحرم منه وما يحل كما وكيفا، ومنهم من كان ينتصر له أو يترخص فيه.

كان الفقيه الكبير «وكيع» - فى آخر القرن الهجرى الثانى - رجلا ورعا، يصوم الدهر ... أما يومه فيقضيه على النحو الآتى:

يبكر فى الجلوس لدرس حديث الرسول، حتى يرتفع النهار، فينام إلى الظهر، فإذا صلى خرج إلى النهر يعلم السائقين، ثم يؤم المسجد لصلاة العصر، ويظل فى مدارسة ومذاكرة إلى آخر النهار، ثم يدخل منزله، فيقدم إليه إفطاره، ومعه قربة بها نحو من عشرة أرطال نبيذ، فيشرب منها ما طاب على طعامه، ثم يجعل القربة بجانبه، ويقوم فيصلى ورده الليلى، وكلما صلى ركعتين أو أكثر شرب من القربة، حتى تنفد، ثم ينام!

وحكى عنه أحد مريديه فقال:

كنت أصير إليه لاستماع الحديث، فى الليل، فطلب منى نبيذا، فجئته بقدر منه، فلما أقبلت أقرأ عليه الحديث، جعل يشرب من النبيذ حتى نفد، وإذ هو يطفىء السراج، فقلت له: ما هذا؟ فقال: لو زدتنا زدناك.

تقليد ...

فى تاريخ الفن أن الرسام المشهور «روزيتى» كانت له زوجة آية فى الحسن، ولكن كان فى ناحية من عنقها ضخامة لعلة بها، فرسم الفنان لزوجته صورة أظهر فيها ضخامة العنق على نحو أخاذ، افتتن به الناس، فجعل الرسامون من بعده يضيفون إلى أعناق النساء قليلا من الضخامة، واشتهر هذا الوضع بأنه «عنق مدام روزيتى»، وأصبح من سمات الجمال فى الصور.



ليس هذا بدعا فى تاريخ البشر!

كانت عليه بنت الخليفة المهدى واسعة الجبين، فاتخذت عصابة من الجوهر، تخفى بها سعة جبينها، فكانت هذه العصابة أجمل شىء عند النساء، فقلدنها فيها، سواء منهن من ضاق جبينها ومن اتسع ...

وكان جعفر البرمكى طويل العنق، فأراد أن يستر هذا العيب فيه، فاحتال لذلك بأن اتخذ لعنقه جربانات عريضة - وهى ما نسميه «الياقات» - وحشاها بالقطن، فتناقلها الناس عنه، وكانوا يقولون: جربانات برمكية ...

وأذكر أن أحد كبار الشيوخ فى العصر الحديث أصابه فى عنقه بعض تشويه، فاتخذ لردائه «ياقة» تغطى عنقه، فاستحسنها الشيوخ حين رأوها، وما لبثوا أن قلدوه فى اتخاذها ...

والإنسان - كما يقول الفلاسفة - حيوان مقلد!

عطلة الأسبوع

جرينا على أن تكون العطلة يوما فى الأسبوع، للراحة والاستجمام.

ويبـــدو أن أجـــدادنا القـــدامى استكثروا أن تتواصل الأعمال ستة أيام... فرأوا فى دمشق، وفى بغداد، منذ أكثر من عشرة قرون، أن تكون العطلة فى يومين: يوم لربك، ويوم لقلبك!

عطلوا الأعمال فى يوم الجمعة، للعبادة، فكانوا يقضون معظم النهار فى المساجد للصلاة، ولسماع الوعظ ...

وخصصوا يوم الثلاثاء للاجتماع فى الدور، أو للخروج إلى البساتين، وقضاء عامة النهار فى الأنس ...



وينقل المؤرخون أنهم قالوا فى تعليل ذلك: «إن الناس يحتاجون فى وسط الأسبوع إلى الراحة والنظر فى أمورهم والتشاغل بما يخصهم...».

فكانت الدواوين والمدارس تعطل فى يوم الثلاثاء، كما تعطل فى يوم الجمعة ..

وفى عطلة يوم الثلاثاء يقول ابن المعتز:

لا تجعلن الثلاثاء لاجتماعكم   إن الكتاتيب تخلو فى الثلاثاء

ويقول ابن الرومى:

كأنما هو فى الأسبوع واسطة   فى سمط در يحلى جيد حسناء

ترى كم منا يتمتع بعطلة اليوم فى الأسبوع، بل اليومين؟!

علاج اللثغة ...

يشكو بعض الناس ما يجدونه فى ألسنتهم من اللثغة، إذ ينطقون حرف الراء غينا ...

وقد شكا ذلك رجل إلى الإمام اللغوى «أبى على الفارسى» وهو من جهابذة الدارسين للحروف ومخارجها، فأرشده إلى علاج طريف، ذلك هو أن يضع طرف القلم تحت لسانه ليدفعه به، ثم يكثر من ترديد التلفظ بالراء، ففعل الرجل، واستقام له إخراج الراء فى وضوح.

وقد سئل ياقوت: ما سر هذا العلاج؟ فأجاب أن الغين حرف يخرج من الحلق، لا عمل للسان فيه، والراء حرف من حروف اللسان، فإذا دفع المرء لسانه بطرف القلم، ولفظ بالحرف، جعل للسان عملا فى النطق به، فيبطل أن يكون حلقيا، أى غيناً، وإذن فلابد أن يكون راء مع الممارسة والمحاولة.

والكلمة الآن للأطباء ولأهل العلم بالأصوات فى هذا العلاج الذى وصفه أبو



على الفارسى منذ ألف سنة.

نزاع لغوي .. حول قناة السويس

لم تخل قناة السويس من تنازع لغوى، إلى جانب ما يدور عليها من تنازع سياسى واقتصادى. فقد أبى الغرب إلا أن يسلب القناة فى عروبتها اللفظية، كما سلبها باعتبارها جزءا من الوطن العربى الأكبر.

تكتب صحف الغرب: «القنال»، ويجاريها فى تلك التسمية بعض الكتاب فى اللغة العربية، فأيهما أحق: القنال، أو القناة؟

أشار إلى هذا النزاع عالم لغوى فقدناه منذ عهد قريب، ذلك هو الشيخ عبد القادر المغربى، وكان يتحدث فيه منذ ثلاثين سنة. فقال: ان الفرنسيين أشاعوا كلمة «القنال» وجعلوها كلمة فرنسية، وادعوا ان أصلها لاتينى "Canal".

والرأى عنده أن كلمة «القنال» عربية الأصل، مولدة، منحوتة من كلمتى «قنا الماء» أو «قنا البحر» - والقنا جمع قناة - فنحت الفرنسيون منهما: «قنال ...» اسما لمجرى الماء المسمى فى العربية: الترعة.

وصنيع اللغة الفرنسية فى هذه الكلمة يشبه صنيعها فى كلمة «اميرال» لقب كبير قادة السفينة، فان العرب كانوا يسمونه «أمير البحر»، فنحت الفرنسيون من الكلمتين كلمة «أميرال» لتكون على وزن كلماتهم، مثل: ماريشال، وجنرال.

ومنذ ست سنوات اذاع المرحوم الشيخ المغربى رأيه قائلا:

«إننا مهما تسامحنا فى عروبة بعض الكلمات لا يحسن أن نتسامح فى عروبة القنال. فالأدلة عليها ظاهرة، فلنستمسك بحقنا فيها مهما كلفنا الأمر ...».



واليوم وقد استمسكت مصر بحقها السياسى والإقتصادى فى القناة، جدير بنا أن نستمسك بحقنا اللغوى فيها ، فنقول: القناة، لا القنال!

ميزانية مصر.. الفرعونية

بدأت فى الشهر الماضى ميزانية مصر للسنة المالية الجديدة، ومصر عريقة فى وضع ميزانة سنوية لمرافقها العامة، وقد روت بعض الكتب الأدبية فى العصر المملوكى، أنه قد عثر على كتاب قبطى باللغة الصعيدية يحتوى على ما كان يستخرج لفرعون من الأموال فى زمن يوسف الصديق، وفيه أن خراج سنة واحدة من الذهب الخالص أربعة وعشرون مليونا من الدنانير، وأن بعضه كان يرصد على النحو التالى:

ثمانمائة ألف دينار لعمارة البلاد ، كحفر الخلجان، والإنفاق على الجسور وسد الترع وتقوية ما يحتاج إلى التقوية، والتوسعة فى البلدان وغير ذلك ...

أربعمائة ألف دينار للأرامل والأيتام، وإن كانوا غير محتاجين، حتى لا يخلو أمثالهم من بر الدولة.

مائتان من ألوف الدنانير، تصرف فى الصدقات، لكى تبرأ الذمة من رجل كشف وجهه لفاقة.

مائتان من ألوف الدنانير للكهنة وبيوت الصلاة.

مائتان من ألوف الدنانير لنفقات فرعون الراتبة.

أربعة عشر مليونا تحفظ فى بيت المال لنوائب الزمان!

ومهما يكن من أمر هذه الرواية، فإنها تدل على وعى مصرى مبكر فى القيام على المرافق العامة، وفى تقدير قيمة الضمان الاجتماعى ، وفى الاحتفاظ بمقدار



كبير من المال لمواجهة الطوارىء، مما نسميه الآن «الاحتياطى» ...

أطول شرح ... لأقصر كتاب

كتاب «صبح الأعشى» من أجمع كتب الأدب العربى وأمتعها، وهو يقع في أربعة عشر جزءا، وصفحاته نحو ستة آلاف.

هذا الكتاب كله ليس إلا شرحا لتسع صفحات!

والحاسبون إذا وزعوا صفحات الشرح على صفحات الأصل، أنالوا كل صفحة من الأصل سبعمائة صفحة من الشرح ...

وذلك أن مؤلف «صبح الأعشى» كتب «مقامة» بناها على التعريف بكتابه الإنشاء، والإشادة بعلو قدرها، وهو يعنى بكتابة الإنشاء وصف الأحوال والوقائع، والإبانة عن مقاصد الدولة، وتدوين الرسائل والمنشورات، ونحو ذلك مما يتولاه كاتب الإنشاء بالنيابة عن ولاة الأمور من القواد والحكام.

وقد سمى الكاتب مقامته تلك «الكواكب الدرية»، ثم رأى أن معلوماتها مركزة، واشاراتها غامضة، وعباراتها تحتاج إلى بيان، فألف كتابه «صبح الأعشى»، وجعله تفصيلا لما أجمل، وكشفا عما اشكل ....

ومؤلف هذا الكتاب هو «القلقشندى»، مصرى من «القليوبية»، كان يعيش منذ ستمائة سنة ...

اكتبوا هذا فى مكارم الأخلاق

فى القرن الثالث الهجرى، جلس موسى بن اسحق قاضى الرى والأهواز ينظر فى



قضايا الناس ...

وكان بين المتقاضين سيدة ادعت على زوجها أن عليه خمسمائة دينار مهرا، فأنكر الزوج أن لها فى ذمته شيئا، فقال له القاضى: هات شهودك. فقال: قد أحضرتهم. فاستدعى القاضى أحدهم، وقال له: انظر إلى الزوجة لتشير اليها فى شهادتك. فقام الشاهد وقال للزوجة: قومى. فقال الزوج: ماذا تريد منها؟ فقيل له: لابد أن ينظر الشاهد إلى امرأتك، وهى مسفرة، لتصح عنده معرفته بها. فكره الرجل أن تضطر زوجته إلى الكشف عن وجهها للشهود، أمام الناس. فصاح:

إنى أشهد القاضى على أن لزوجتى فى ذمتى هذا المهر الذى تدعيه، ولا تسفر عن وجهها.

فلما سمعت الزوجة ذلك، أكبرت فى رجلها أنه يضن بوجهها على رؤية الشهود، وأنه يصونه عن أعين الناس، فصاحت تقول للقاضى:

وإنى أشهدك على أنى وهبت له هذا المهر، وأبرأته منه فى الدنيا والآخرة ...

فقال القاضى لمن حوله:

اكتبوا هذا فى مكارم الأخلاق!

الكلام ... من ذهب!

لا يجهل أحد الحكمة القائلة: إذا كان الكلام من فضة فإن السكوت من ذهب ... ولكن «الجاحظ» كان يسطو بحجته، وقوة منطقه، وبراعة بيانه، على المعانى المتعارفة، والنصائح المألوفة، فيكشف عن زيفها، ويدلل على ضدها.

من ذلك حملته على الصمت، وإيثاره الكلام عليه، إذ يقول:

«الكلام أفضل من الصمت، لأن نفع الصمت لا يكاد يعدو الصامت، ونفع



الكلام يعم القائل والسامع، والغائب والشاهد، والراهن والغابر. ومن فضل الكلام على الصمت، أنك بالكلام تخبر عن الصمت وفضله، ولا تخبر بالصمت عن فضل الكلام. ولو كان الصمت أفضل لكانت الرسالة صمتا، ولكان عدم القرآن أفضل من القرآن، وقد فرق بينهما رسول الله صلى الله عليه وسلم، حيث قال: «رحم الله امرا قال خيرا فغنم، أو سكت فسلم». فجعل حظ السكوت السلامة وحدها، وجعل حظ القول الجمع بين الغنيمة والسلامة، وقد يسلم من لا يغنم، ولا يغنم الا من سلم...».

من ناسخات .. إلى «كمساريات»

شهدت «القاهرة» فى بعض السيارات العامة «الأوتوبيس» آنسات يتولين تحصيل الأجور «كمساريات».

وهذا «مجال حيوى» جديد، تحاول المرأة اقتحامه لمشاركة الرجل فى أعماله، كما اقتحمت من قبل مجالات شتى ...

والواقع أن المرأة الشرقية أو العربية لم تكن بمعزل عن العمل خلال العصور المواضى، بيد أنها كانت تؤثر من الأعمال ما لا يشق، وما يحفظ لها الصون، ويجنبها التبذل.

ومن الأعمال التى شاركت فيها المرأة قديما نسخ الكتب ... وقد روت لنا أخبار الأندلس أن النساء كن يتولين كتابه المصاحف، بالخط الكوفى. وكان فى «قرطبة» دكان للنسخ، يستخدم مائة وسبعين فتاة فى انتساخ الكتب لمن يطلبها من العلماء والدارسين.

كذلك يقص علينا التاريخ نبأ كاتبة اشتهرت بجودة الخط، اسمها «درة»، وقد اختص بها قصر الدولة الصنهاجية، فى القرن الرابع الهجرى، فكتبت من المؤلفات



شيئا كثيرا، وأبقى لنا الزمن من آثار خطها مصحفا ...

الزيجـــة

من الكلمات التى تجرى بها الأقلام فى الصحف، كلمة: الزيجة، على وزن العيشة، بمعنى الحياة بين الزوجين.

فمثلا يقول الكتاب: ودامت الزيجة بينهما سنوات. أو يقولون: وكانت زيجة غير صالحة.

وفى اللغة كلمات على وزن «الزيجة»، ولكن هذه الصيغة تجيء من الفعل الثلاثى، ومادة «زوج» ليس فيها فعل ثلاثى بهذا المعنى، فكلمة «الزيجة» على هذا دخيلة فى اللغة، لا تعين على اشتقاقها قاعدة مقررة، ولذلك ندعو إلى محوها وتخليص الأقلام منها.

ولكن ماذا يقال فى معناها؟ فمن الحتم أن يجد الكاتب الكلمة البديلة، لكى يرتضى ترك الكلمة الدخيلة ...

هناك كلمة «الزواج» نفسها، فهى تقوم مقام تلك الكلمة، فى مجال التعبير. فيقال: دام الزواج سنوات، أو كان الزواج غير صالح.

ويمكن أيضا استخدام النسبة إلى «زوج» على صيغة المصدر الصناعى أو اليائى، إذا أريد أن تؤدى الكلمة وصف الحالة أو الهيئة أو الكيفية، مما لا تؤديه كلمة الزواج باطلاقها العام ... فنقول: «الزوجية»، أى الحياة بين الزوجين، وعلى ذلك يقال مثلا: دامت الزوجية سنوات، أو كانت الزوجية غير صالحة.

بهذا نخلص من كلمة تأباها اللغة، ولا تلجىء إليها ضرورة من ضرورات التعبير.



«روتين» .. فى العصر العباسى !

مشكلة المشاكل فى الدواوين ما نسميه «الروتين»، ذلك الذى تتعطل بسببه المصالح، وترتفع منه الشكايات.

وليست الشكوى من «الروتين» جديدة على الناس. فقد كان الشعراء فى العصر العباسى يضيقون بما يجدونه من البطء والمماطلة الديوانية فى تسلم جوائزهم التى يأمر بها الخلفاء!

وهذان مثلان من أيام الخليفة «الهادى»:

سمع «الهادى» من الشاعر «مروان بن أبى حفصة» قصيدة مدح، فقال له: «أيما أحب إليك؟ ثلاثون ألفا معجلة، أو مائة ألف تدور فى الدواوين؟ فقال الشاعر: «يا أمير المؤمنين، أنت تحسن ما هو أحسن من ذلك، ولكنك نسيته، أفتأذن لى أن أذكرك به»؟

قال: «نعم»، قال: «تعجل لى ثلاثين ألفا، وتدور المائة ألف فى الدواوين» فقال الخليفة: «بل يعجلان لك جميعا!».

وأمر «الهادى» للشاعر «أبى العتاهية» بعشرة آلاف درهم، جائزة على قصيدة أنشده إياها فى الحكمة والموعظة، ولبث الشاعر وقتا ينتظر أن تصل إليه جائزته، دون جدوى، وذلك لأن خازن المال أثار إشكالا «روتينيا» هو أن القصيدة فى الحكمة والموعظة، وليست فى مدح الخليفة، ورغب إلى الشاعر فى أن يصنع قصيدة أخرى فى المدح، فلم يملك الشاعر الا أن يكتب إلى الخليفة أبياتا يشير فيها الى حاله، وبعث بها مع رسول، فأمر الخليفة بألا يبرح رسول الشاعر مكانه، حتى يتسلم الجائزة!



السلطان المخمور

ذهب الرحالة «ابن بطوطة» فى بعض أسفاره إلى بلاد فارس، واستقر فى مملكة «اللوار»، وهى للسلطان «الأتابكى»، وقد عرف من أمره ادمانه للخمر ...

ولما دخل عليه الرحالة ألفى عنده أحد ندمائه، وبجانبهما كبير فقهاء المملكة، وبين يدى السلطان اناءين على كل منهما غطاء، أحدهما من فضة، والآخر من ذهب.

وأذن السلطان لابن بطوطة فى الكلام، فقال له:

«ان كنت تسمع، فأنا أقول ليس فيك ما يقدح فى سلطنتك إلا هذا»، وأشار إلى الإناءين ...

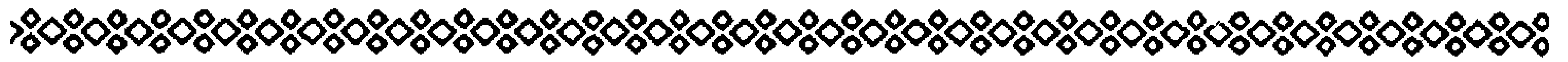
فخجل السلطان، وأراد الرحالة الانصراف، فاستبقاه، وقال له: «الاجتماع بأمثالك رحمة».

ولما انقضى المجلس، وقف الرحالة بالباب يتفقد نعله، فأسرع إليها كبير الفقهاء يرفعها إلى فمه، ويقبلها، ويضعها على رأسه، وهو يقول لابن بطوطة:

«بارك الله فيك ... هذا الذى قلته لسلطاننا لا يقدر أحد أن يقوله غيرك ... وانى لأرجو أن يؤثر ذلك فيه».

لغة الناس ...

يخطىء من يحسب أن لهجتنا العامية حديثة العهد، فقد كانت خصائصها فى الوقف على الكلمات بالسكون قديمة غاية القدم، ولعلها صاحبت اللغة الفصيحة



المعربة منذ نشأت.

والذين يؤرخون للزجل عليهم أن يردوه إلى عصور العربية الأولى، فإن هناك أمثلة منه يجدها القارىء فى كتب الأدب العربى التى تعد أصول الأدب القديم.

واليك نموذج من ذلك فى كتاب «الأغانى»، إذ يثبت أن ابراهيم الموصلى أمير الموسيقى الذى عاش فى القرن الثانى الهجرى، كان يتغنى بشعر - أو زجل - تجرى فيه الكلمات موقوفة لا إعراب فيها.

يروى صاحب «الأغانى» أن «ابراهيم» انتقل إلى «الموصل» ليدرس فيه الموسيقى، فنسب إلى معهد دراسته، لا إلى مسقط رأسه، فقيل له «الموصلى»، وأنه كان إذا سكر جعل يتغنى بقوله:

أنا جـت من طريـق موصـــل   أحمـل قلـل خمـــريـا
ومن شــارب الملـوك فـــلا   لابـــد مـن سكـــريـا

وأنت إذا أعربت كلمات هذين البيتين لم يستقم لك وزنهما، فأما إن نطقت بالكلمات فيهما كما تنطق موقوفة فى اللهجة العامية، فإنهما يتزنان.

ويبدو أن الناس كانوا يكرهون الإعراب منذ أبعد العصور، فقد روى صاحب تاريخ بغداد أن أبا زيد النحوى وقف على جزار، وعنده بطون، فقال له: «بكم البطنان؟» فقال الجزار: «بدرهمان، يا ثقيلان!».

معونة الشتاء .. عند العرب

نحن فى بواكير الشتاء، والشتاء له مطالب، فهو يتطلب مزيدا من الغذاء والكساء والفراش، وما أكثر من يضيقون بمطالب الشتاء.

وقد عرفت مصر فى هذه الأعوام مؤسسة «معونة الشتاء»، التى كان لها أجمل



الأثر فى تخفيف ويلاته عن البائسين المحتاجين ...

وليست «معونة الشتاء» من مستحدثاتنا العصرية، فقد كانت جهيرة الصوت بعيدة الصدى فى قلب الجزيرة العربية ... فى العصر الجاهلى!

وذلك أنه كان من عادة العرب عند اختلاف الأنواء، وامحال السنة الشهباء، ان تبرز أماثل كل قبيلة إلى ناديهم، فيواسوا بما يفيض عن الحاجة من الزاد ...

بل لقد كان العرب يتخذون المباريات وسيلة إلى جمع المال من أجل الفقراء وذوى الخصاصة فى الشتاء، ويقول صاحب كتاب «الأشرية»:

«كان العرب فى الشتاء عند شدة البرد، وجذب الزمان، وتعذر الأقوات على أهل الضر والمسكنة، يتقامرون بالقداح على الإبل، ثم يجعلون لحومها لذى الحاجة منهم والفقراء، فإذا فعلوا ذلك اعتدلت أحوال الناس وأخصبوا، وعاشوا واستراشوا...

قال الأعشى يمدح قوما:

المطعمو الضيف إذا ما شتوا　　والجاعلو القوت على الياسر

أى يجعلون أقوات الفقراء على الياسرين بالقداح، وهم أهل الثراء وذوو الغنى من الأجواد...».

فرار... من القضاء!

لم يكن الإمام «أبو حنيفة» أول من أبى منصب القضاء، فقد سبقه إلى ذلك كثير.

هذا أمير المؤمنين «عمر بن عبد العزيز» يرسل رسوله إلى البصرة، ويطلب إليه أن يسأل عن «اياس» و«القاسم» ويصطفى خيرهما لمنصب القضاء، وقد جاء



الرسول إلى «القاسم» يسأله، فأجابه:

ليس بك حاجة إلى أن تسأل عنى وعن اياس، أنا أخبرك فاستمع ما أقول لك، وأحلف عليه، والله الذى لا إله إلا هو ما أنا بصاحب هذا المنصب، وأن «اياسا» أعلم منى به، وأقوى عليه. فإن كنت عندك كاذبا فما ينبغى أن تولى الكاذب منصب القضاء.

فعجب الرسول من قول «القاسم» ودا خله شك، فذهب إلى «اياس»، وأعلمه بحديث «القاسم» معه فقال له «اياس»:

انك عرضت على صاحبنا «القاسم» أن يقف بين الجنة والنار، وذلك منصب القضاء، فخاف على نفسه، وفداها بيمين حانثة يتوب منها ويستغفر ربه، وينجو من هول ما أردته عليه.

فقال الرسول: أما إذا فطنت لهذا، فأنت أفهم منه!

وعزم على توليته.

زى خاص ... للمساجد

أكبر ما نشكوه فى حياتنا الاجتماعية فوضى الأزياء، وثمة محاولات تبذل لتنظيمها وتوحيدها فى المعاهد وفى غيرها من مرافق الحياة العامة.

والاتجاه إلى تنظيم الأزياء وتوحيدها يصحب التقدم الاجتماعى منذ أقدم العصور.

وأطراف ما ينبئنا به التاريخ فى هذه الناحية أن الدولة العباسية رسمت زيا خاصا يلبسه الداخلون إلى مقاصير المساجد للصلاة، وظل هذا الرسم جاريا مأخوذا به فيها.

*



كان هذا الزى هو لبس السواد والقباء، يلبسه الخطباء والمؤذنون، كما يلبسه المصلون فى المقاصير.

وفى هذا يقول صاحب تاريخ بغداد:

«كان على أبواب المقصورة بوابون بثياب سود، يمنعون من دخول أحد إليها إلا من كان من الخواص المتميزين بالاقبية السود ...».

ويروى صاحب التاريخ أن أحد اتباع القاضى أبى تمام حضر إلى مسجد جامع المنصور يوم الجمعة، وقد لبس جبة مشقوقة من مقدمها، فمنعه البوابون من الدخول خلف القاضى، وردوه لكى يلبس القباء فيباح له الدخول.

فهل ترانا نبلغ ما بلغه العباسيون منذ ألف سنة من تنظيم الأزياء، حتى فى الدخول إلى المساجد لأداء الصلاة؟

بخل .. أو اقتصاد

إذا عرف الناس فى امرىء خصلة لم توافق مآربهم شنعوا عليه، ووصفوه بغير الحق، ويبدو أن الخليفة «المنصور» كان مفترى عليه فى رميه بالشح والبخل، وأن أهل عصره لم يفهموه على حقيقته، إذ وجدوه دقيقا لا يريد أن يذهب شىء ضياعا، والقصة التالية تصور لنا مبلغ دقة الرجل فى التمييز بين البخل المذموم والإقتصاد المحمود.

وقف «المنصور» يوما من الأيام نهارا على دهليز فى داره، فرأى فيه قنديلا موقدا، وكان الموضع بين المضىء والمظلم، فأمر باطفاء القنديل، ونهى عن ايقاده فى هذا الموضع إلا وقت الحاجة من الليل.

فقال كاتب نفقات «المنصور» لنفسه: «إذا كان الخليفة يتفقد هذا المقدار التافه



من زيت القنديل، فهو لغيره أشد تفقدا ...».

وعمد الكاتب إلى ما يفضل من موائد الخليفة فباعها، فاجتمع له مال وافر، ونظر فى أشياء غير ذلك، فصنع بها مثل هذا الصنيع. فلما كان من رأس الشهر عرض على الخليفة ما وفره، فسأله الخليفة عن سببه، فصارحه بموقفه من القنديل الموقد.

فقال له الخليفة: «ماذا كنت تصنع بما يفضل من الموائد كل يوم»؟

فأجابه: «كان يأكله خدمك وغلمانك وحشمك، فإذا بقى شىء تصدقنا به على الفقراء والمساكين».

فقال الخليفة: «هذا لم يكن يضيع منه شىء، فليجر الأمر على ما كان جاريا عليه فيه. وليس سبيل القنديل هذا السبيل، لأن موضعه كان مضيئا بالنهار، وكان الزيت يذهب ضياعا، ولا وجه للتضييع فى شىء وإن قل»!

تبادل الإشارة ...

عندنا من أسلحة الجيش: سلاح الإشارة، ومن مظاهره تبادل الإشارات للتفاهم بها على نظم مرسومة ...

قلت يوما: «كيف ندل على تبادل الإشارة بكلمة واحدة»؟

وإذا الموضوع قديم، له قصة ...

فى القرن الثانى للهجرة، اختلف أمير افريقية وقاضيها فى صيغة التفاعل من الإشارة، فاحتكما إلى «قتيبة» النحوى، فسألاه:

«إذا أشرت وأشار غيرك، وقلت تفاعلنا فى الإشارة، فكيف تقول»؟

فأجاب: «أقول «تشايرنا ..».



فاعترض الأمير وقال «التشاور» فرد عليه «قتيبة بقوله: «التشاور من المشورة، والتشاير من الإشارة»

وإذن فكلمة «التشاير» تفيد معنى التبادل الإشارى، أو التفاهم بالإشارات، ولنا أن نقول: تشاير الجنود، أو درسوا فن التشاير.

وهذه الكلمة لم تتضمنها معجمات اللغة، فأهدتها إلينا ... قصص التاريخ!

وسادة من غبار الحرب ...

سجل «المتنبى» فى قصائد خالدة، الوقائع المشهورة التى خاضها فى القرن الرابع الهجرى بطل من أبطال الحرب الصناديد، هو «سيف الدولة الحمدانى» ...

كان هذا البطل يحرص فى كل موقعة يخوضها، على أن يجمع ما يتراكم عليه غبار الحرب، ثم يوصى بحفظه.

وظل هذا دأبه، حتى استقر به الأمر، فعمد إلى الغبار المجتمع من وقائع الحرب، فصنع منه لبنة، وهى القطعة التى تضرب من الطين للبناء،وأوصى بأن تحمل هذه اللبنة معه إلى مقره الأخير، حين يقضى نحبه، لكى توضع تحت رأسه.

وهكذا اتخذ «سيف الدولة» وسادته فى قبره، من غبار حروبه، وكأنها كنز مجده، وكأنما تشهد له ذراتها ببلائه الحسن فى ميدان الكفاح، ولعل هذا هو الذى أوحى إلى الإمام «أبى الفرج بن الجوزى» فيما بعد، أن يجمع براية أقلامه التى كتب بها الحديث النبوى، حتى حصل له منها شىء كثير، فأوصى بأن يسخن بها الماء الـذى يغسل به جسده عند موته، لكى يكون له طهورا يفيض عليه الرحمة والرضوان.

المرأة .. الرجل !

تعددت فى هذه الأيام حوادث استحالة النساء إلى الرجال، حتى أن أمرها لم يعد يبعث على عجب.

وفى التاريخ القديم أمثلة مما نشهد فى أيامنا من هذه الظاهرة الشاذة فى حياة البشر.

يحدثنا القاضى «شريح» - فى عهد الإمام على بن أبى طالب - أن امرأة دخلت عليه، تقول له:

- تزوجنى ابن عم لى، ولكنى رجل، ولذلك جئتك لتفرق بينى وبين زوجى ...

فسألها: «كيف أصبحت رجلا؟».

فأجابته: «لقد كانت لى خادمة، وجرى بيننا ما جرى، ولها منى الآن ولد ... فماذا أنت صانع؟».

فاستدعى القاضى زوجها، واستوثق مما زعمته، واستشار الإمام عليا فى شأنها...

وخرجت المرأة من مجلس القضاء، وقد ارتدت رداء الرجال!

الغـــداء ...

لم يعد لكلمة «الغداء» معنى فى عصرنا الحديث إلا أنها طعام الظهيرة... وما كان العرب يعرفون لها هذا المعنى، فالغداء عندهم طعام الغدوة، وهى أول النهار، ويعبر اللغويون عن الغداء بأنه ضد العشاء، أو ما يقابل العشاء.

فهل ثمة كلمة فى اللغة لطعام الظهيرة؟



أذكر أن الوزير الأديب المرحوم «دسوقى أباظة» دعا بعض أعضاء المجمع اللغوى إلى التغدى معه، فكتب إليهم فى رقاع الدعوة: «أرجو الحضور لتناول الكرزمة»... وكانت هذه الكلمة فاكهة المائدة، فقد قال لمدعويه: «لقد هديت إلى كلمة «الكرزمة» اسما لطعام نصف النهار، وخشيت أن أكتب كلمة «الغداء» فتفهموا - وأنتم لغويون - انى ادعوكم إلى طعام الغدوة، فأفاجأ بكم حاضرين منذ الصباح»!

على أن هناك كلمة أخرى لطعام الظهر، وهى «الهجورى» واشتقاقها من الهجير، وقت الظهيرة، ولا أدرى أفى اللغة غير هاتين الكلمتين يرادفهما؟

ويلاحظ أن الكلمتين من مهجور اللغة، لا يكاد القارىء يجدهما فى الاستعمال... وهذا يدل على أن طعام الظهر لم يكن مألوفا عند العرب، فالطعام عندهم غداء وعشاء، ومن ثم لم تشع فى التراث العربى كلمة «الكرزمة» أو «الهجورى» اسما لطعام الظهر، لأن اللغة مرآة الحياة، والكلمات لا يشيع منها إلا ما تقتضى الحاجة الاجتماعية أن يشيع.

صريع الإقطاع ...

كان من مفاسد الحياة الاجتماعية فى العصر الجاهلى نوع من الإقطاع يحدثنا عنه التاريخ ...

ذلك أن الرجل المعتز بقوته وجبروته، كان إذا انتجع أرضا مخصبة عمد إلى كلب فأصعده على مرتفع من الأرض، واستعوى الكلب، فحيث انتهى صوته حماه لنفسه من كل جانب، ومنع الناس أن يقربوه، وبذلك تصبح المنطقة التى يبلغها عواء الكلب منطقة «حرام»!

والعرب يسمون هذه المنطقة، أو هذا الإقطاع: الحمى، وهو الموضع العامر بالنبات.

واشهر «حمى» فى العصر الجاهلى هو حمى «كليب وائل» الذى ضرب به المثل



السائر «اعز من كليب وائل»، اذ بلغ من عزه أنه كان يحمى كل أرض معشبة، وكان اذا مر بروضة أعجبته أو غدير ارتضاه حماه لنفسه، وحمى حوله المدى الذى يبلغه عواء كلبه ... وقد كان صنيعه هذا بسبب قتله فهو صريع الاقطاع.

ولما جاء الاسلام أبطل هذا الضرب من الاقطاع، فنهى عن التفرد بالحمى، وورد فى الحديث: «لا حمى الا لله ورسوله». وقد حمى الرسول رقعة من الأرض لترتع فيها ابل الصدقات، والخيل المضعوفة. واستن «أبو بكر» و«عمر» من بعده هذه السنة، فاتخذ كلاهما من بعض الأرض حمى، وجعلوه مرفقا عاما، لا يخص به الأغنياء دون الفقراء، بل يكاد الفقراء يؤثرون به دون الأغنياء، وذلك تحقيقا للحديث: «المسلمون شركاء فى ثلاثة: فى الماء، والنار، والكلأ». وهو العشب رطبا كان أو يابسا. وهكذا حارب الاسلام اقطاع الأغنياء.

يضرب أخماسا لأسداد

هذا التعبير يستعمله الكتاب فى معنى الحيرة والاضطراب، وكذلك يستعمله العامة، والخطأ شائع فى استعماله، وقد سهل الغلط فيه أنه غامض، فما الأخماس والأسداس؟

إنه تعبير بدوى، كان له فى حياة البادية قصة، فأصبح مثلا يضرب.

أصل ذلك المثل أن شيخا كان له أولاد يرعون ابله، ولهؤلاء الأولاد أهل فى موضع غير موضع أبيهم، فطال اشتياقهم اليهم، وأرادوا التردد عليهم، والمكوث عندهم فترة بعد فترة.

وكان من شأن العرب أن يعودوا الإبل أن تظمأ أياما، حتى إذا اندفعت فى السير صبرت على الظمأ، فكان منهم من يظمئها أربعة أيام، ويسمون ذلك:



«الربع»، ومنهم من يظمئها خمسة، ويسمونه: «الخمس»، ومنهم من يظمئها ستة، ويسمونه: «السدس».

فقال الأب الشيخ لأولاده: «ارعوا الإبل ربعا». فذهبوا بها نحو طريق أهلهم، ولما عادوا طلبوا إلى أبيهم أن يدعهم يرعون الإبل خمسا، ثم زادوها، وقالوا: «لو رعيناها سدسا» ... ففطن الشيخ إلى أنهم يطيلون فى الأيام، لا رغبة فى رعى الإبل وتعويدها الظمأ، بل لكى تتاح لهم فرصة زيارة أهلهم مدة طويلة، فقال لهم: «ما أنتم إلا ضرب أخماس لأسداس».

وصار هذا المثل يضرب لمن يظهر امرا ويبطن غيره، ولمن يسعى فى المكر والخديعة، ولمن يراوغ فى الكلام، ومنه قول الشاعر:

فى موعد قاله لى ثم أخلفه   غدا غدا ضرب أخماس لأسداس

فعسى أن يفطن أبناء العرب اليوم الى من يضربون لهم أخماساً لأسداس.

ألسنة الناس ...

يروى عن الملك كارلوس الخامس المعروف باسم شارلكان - أول من فاخر بأن الشمس لا تغيب عن أملاكه - أنه كان يقول:

إنى اذا خاطبت الله ضارعا خاطبته بالأسبانية، وإذا خاطبت النساء متحببا خاطبت بالايطالية، واذا خاطبت جوادى زاجرا خاطبته بالألمانية...

وهو يعنى بقوله هذا، أن لغة الأسبان تتميز بالإجلال والتفخيم، وان لغة الطليان تتميز بالرقة والعذوبة، وأن لغة الألمان تتميز بالعنف والشدة، ولذلك يستعمل كل لغة فيما يليق بها من مقامات الكلام.

وقد علق أديب الصحافة المرحوم «أنطون الجميل» على هذه القصة بقوله: «لو



كان العاهل يعرف اللغة العربية لغنى بها عن غيرها فى مختلف المواقف، فقد جمعت فخامة اللفظ وجمال الأسلوب، وقوة الأداء».

وان قارىء التراث العربى يجد شبيها لتلك القصة يسبقها بعده قرون، فقد جاء فى كتاب «أحسن التقاسيم» للمقدسى، قوله: ان بعض ملوك «خراسان» أمر أن يجمع رجالا تمثل النواحى الخمس لمملكته، فأنفذ وزيره أمره، ولما حضروا تكلم السجستانى، فقال الوزير: هذا لسان يصلح للقتال، ثم فاتح النيسابورى، فقال: هذا لسان يصلح للتقاضى، ثم تكلم المروزى فقال: هذا لسان يصلح للوزارة، ثم تكلم البلخى فقال: هذا لسان يصلح للسفارة. فلما تكلم الهروى قال: هذا لسان يصلح للنحنحة!

رشوة... متفق عليها

كان «القاسم» من بين من تولوا الوزارة فى أيام الخليفة «المعتضد»... وكان «للقاسم» استاذ علمه فى صباه اسمه «ابراهيم بن السهل»، ومما جرى بينهما فى إبان التعلم أن الشيخ قال لفتاه: ان وليت الوزارة ماذا تصنع بى؟ فأجابه: ما أحببت! فقال الشيخ:تعطينى عشرين ألف دينار ...

وأصبح «القاسم» وزيرا، وطلب الأستاذ الوفاء بالنذر، فقال الوزير أخشى الخليفة أن أعطيك المال فى مكان واحد، فاسمح بأخذه متفرقا...وذلك بأن تجلس للناس، وتأخذ رقاعهمَ فى الحوائج للكبار، وتطلب منهم على قضائها أجرا، ولا تمتنع عن عرض شىء على، سواء كان صحيحا أم باطلا، فإنى قاضيه لك لتقبض الأجر، حتى تصل اليك مال النذر.

ويقول الأستاذ: إنى كنت أعرض على الوزير كل يوم رقاعا، فيسألنى: كم ضمن



لك على هذا؟ فأجيب: كذا وكذا. فيقول: لقد غبنوك، هذا يسوى كذا وكذا، فأرجع فاسترد. فأرجع القوم، فلا أزال أماكسهم ويزيدونني، حتى أبلغ الحد الذى رسمه. وبقيت على هذه الحال، حتى حصل لى ضعف المال الذى نذر الوزير أن يؤديه إلىّ»!

حسابى بدائى ...

كان من المعروف عن السقائين الذين يحملون قرب الماء إلى البيوت أنهم يخطون بأصابع «الطباشير» خطوطا على الأبواب بعدد القرب التى يحملونها، ليقبضوا حسابها آخر كل شهر.

وكذلك يفعل عمال القهوات البلدية، فهم يخطون خطوطا بعدد ما ينقلون إلى الرواد من أكواب الأشربة، ليحاسبوهم بمقتضاها آخر كل يوم.

ومن الطريف أن شاعرا منذ ألف سنة يسجل لنا أن هذا الصنيع كان معمولا به فى العراق، فقد نقل «الصولى» فى كتابه: «أدب الكتاب» ان الشاعر «أشعث اليربوعى» كان يتردد على حانة ليشرب الخمر، فكانت صاحبة الحانة إذا أعطته كوزا خطت عليه خطا، ولاحظ أنها تتغفله وتغالطه فتزيد فى الخطوط ... ولكن يظهرأنه استبد به السكر، فلم يبال ما تفعل ولم يعبأ بالحساب، إنما همه أن يشرب... فقال:

إذا مـا بعتنـى كـوزا بخــط فخطـى ما بـدا لـك أن تخطــى
وزيـدى ثم زيدى ثم زيــدى علـى، وغلطـى باللــه شرطــى
وصبى فى أبيريق صغــير كـأن الإذن منــه رجــع خــط



«الراديو» ... كما يصفه أعرابى

لما اتسعت رقعة الحضارة العربية، كان بعض الأعراب من سكان البوادى ينحدرون إلى الحواضر، فيبهرهم ما يرون من مظاهر المدنية، وتجرى على ألسنتهم طرائف من الأوصاف والتعليقات.

وتتناقل كتب الأدب قصة ذلك الأعرابى الذى خرج من البادية إلى إحدى المدائن، فشهد حفلة عرس، وجعل يصف ما دار فيها، ويكشف فى لطف وظرف عن جهله بما يرى وما يسمع.

وقد أراد الكاتب البليغ المرحوم «عبد العزيز البشرى» أن يمتحن براعته فى محاكاة هذا النوع من كلام الأعراب، فتخيل أعرابيا شهد «الراديو» أول مرة، وأجرى على لسانه هذا الوصف الخلاب:

«حولت بصرى، فإذا دمية من خشب، بتر ساقاها، فأقعدوها على منضدة. لها عين واحدة تمزقت حدقتها فتناثرت فى بياضها تناثر النمل على صفحة الرمل ... فلما عرك صاحبها إذنها سرعان ما احمرت حدقتها، ثم سمعت لها حسيسا ما لبث أن استحال زمزمة وهمهمة، فخلت الأرض قد زلزلت على، فجمعت ثوبى للهرب، وجعلت ألتمس آية الكرسى. فهدأ صاحبى من روعى، وقال لى: هون عليك. فقلت: وهذا العفريت؟ فقال: لن ينالك منه مكروه، فقد قيدوا ساقه، وشدوا وثاقه. فقلت: أيسجن «سليمان» المردة فى قماقم من نحاس أو ذهب، وأنتم لا تبالون أن تسجنوها فى جماجم من خشب؟! ثم انثنى صاحبى إلى الدمية فعرك أذنها ثانية، فسرعان ما سكن هديرها، وبطل زئيرها، وإذا العفريت يتحدث فى لين صوت واطمئنان نبرة، ثم سمعت معازف أخرى تتنغم وتترنم، حتى خلتها من جودة الإيقاع



تتكلم!..».

الاختزال ... قديم

اصبح «الاختزال» اليوم من ضرورات الحياة الاجتماعية، وقد اتخذت علامات اختزال الكتابة العربية على أسس مما وضعته أمم الغرب فى العصر الحديث.

بيد أن الاختزال فى الحضارة العربية قديم، وكان مقتبسا تارة من الصين، ويسمى: خط الجموع، وتارة من اليونان ويسمى: الساميا ء. وقد أخذ العامة من هذا الاسم كلمة «السيم» للدلالة على الرموز غير المفهومة،فيقولون: فلان يتكلم بالسيم!

ففيما يتعلق بالاختزال الصينى يحدثنا الفيلسوف «الرازى» أن رجلا قدم عليه من الصين، وتعلم العربية كلاما وخطا، فلما أراد الانصراف قال للفيلسوف قبل سفره بشهر: أحب أن تملى على كتب جالينوس. فأجابه: لقد ضاق الوقت، ولا يفى زمان مقامك بنسخها. فقال الصينى: أسألك أن تملى علىّ بأسرع ما يمكنك فانى أسبقك بالكتابة. وأخذ الفيلسوف وبعض تلاميذه يملون على الصينى، وهم لا يصدقون أنه يتابعهم، حتى قرأ عليهم ما أملوه عليه. فسأله الفيلسوف فى ذلك، فأجابه: أن لنا كتابة تعرف بالجموع، نكتب بها الشىء الكثير فى زمن قليل، ثم إن شئنا نقلناه إلى القلم المتعارف.

وفيما يتعلق بالاختزال اليونانى، يحدثنا «ابن النديم» صاحب «الفهرست» أن متطببا من «بعلبك» زعم له أنه يكتب بالساميا ء، فجرب عليه ما قال، فإذا هو يسمع عشر كلمات ويكتبها كلمة واحدة، فلما استعيد منه الكلام أعاده بألفاظه.

ترى أين علامات «قلم الجموع» وعلامات «قلم الساميا ء»؟



طب الفقهاء

ما يخرج من الثدى سائلا رقيقا - عقب الولادة - يسمى على ألسنة العامة: «السرسوب»، وهو فى العربية الفصحى يسمى اللبأ.

وقد جرى عرف الأمهات على أن يمنعن أطفالهن منه، فانبرى الأطباء فى العصر الحديث ينصحن للأمهات بأن يقلعن عن هذا الصنيع، إذ استبان لهم أنه خير غذاء للأطفال فى مستهل استقبالهم للحياة على ظهر الأرض.

وليس اكتشاف الاطباء لفائدة اللبأ - هو «السرسوب» - بالشىء الجديد، فقد كان القول فيه مجال خلاف بين فقهاء الشريعة فى العصور الغابرة، ولم يكن الخلاف بينهم على أنه مفيد أو غير مفيد، فإن فائدته عندهم محققة، وانما اختلفوا فى أن إعطاءه للطفل واجب حتمى أو غير واجب، فمنهم من أوجب على الأم إيجابا شرعيا أن تغذى طفلها به، وهى آثمة إذا لم تفعل.

وفيمن تناولوا هذا الموضوع الإمام «النووى» فى القرن السابع الهجرى، فأشار إلى أن الأصحاب قالوا: يجب على الأم أن تسقى الوليد اللبأ، لأنه لا يعيش بدونه. ويروى «الرافعى» - من علماء ذلك الزمن - أن المراد بهذا القول غالب الأحوال، أو المراد أن الولد لا يقوى ولا تشتد بنيته إلا به، إذ المشاهد أن من الأطفال من يعيش بلا لبأ.

قتيل النبيذ...

من الطريف أن يطالعنا التاريخ بتلك الوسائل البدائية والمحاولات الاجتهادية



التى لجأ إليها الناس لتحقيق أمر أو كشف سر، وفى كثير من وسائلهم ومحاولتهم صدق فراسة وفرط ذكاء.

وهذا والى مصر المعروف «احمد بن طولون» - قبل ألف سنة - يجعل من نفسه «طبيبا شرعيا» فى «حادث جنائى»، فلا يخونه التوفيق.

نمى إليه أن رجلا دعا صديقه إلى منزاله فقتله، فأمر بالمتهم فأحضر إليه، فسأله، فقال: كان صديقى أحب خلق الله إلى قلبى، وقد كنت أصلحت نبيذا منذ سنتين، فوضعته فى جرة، وسددتها بالطين، ووضعتها فى الشمس، ثم دعوت صديقى للشرب منه، فشرب قدحا، ووضع رأسه فنام، فلما أيقظته إذا هو ميت. فقال له «ابن طولون»: أحضرنى شيئا من نبيذك، ووجه معه من يأتى منه بقنينة، وأمر باستحضار كبد خروف، فأتى بها فى وعاء صينى، فملأمن النبيذ قدحا، وصبه على الكبد، وغطاها قليلا، ثم كشف عنها فرآها قد تقطعت وتهرأت، ثم استدعى كبدا أخرى، فأتى بها، فأخذ من النبيذ قدحا، فجعل نصفه نبيذا ونصفه ماء، وصبه على الكبد الأخرى، وغطاها أيضا، وتركها قليلا، ثم كشف عنها، فوجدها تبرق مصقولة حسنة. فاستبان له أن الرجل لم يقتل صديقه، وإنما قتله النبيذ المعتق.

قميص السكران

يحدثنا «الجاحظ» أن رجلا اسمه «زبيدة» سكر فى احدى الليالى، وكان معه نديم يشاركه فى السكر، فكساه قميصا له، فلما صار القميص على النديم علم أن ذلك من هفوات مجلس الشراب، وخشى أن يسترد «زبيدة» قميصه، فمضى من ساعته إلى منزله، واعمل فيه المقص حتى سواه لامرأته.

ولما أصبح «زبيدة» سأل عن القميص وتفقده، فقيل له: لقد كسوته نديمك فلانا



البارحة، فبعث إليه، وأقبل عليه، فقال: «أما علمت أن وهبة السكران وشراءه وبيعه وصدقته وطلاقه لا يجوز؟ وما أحب أن يفهم الناس عنى أنى تركت قميصى لك من أثر السكر، فرده على حتى أهبه لك صاحيا عن طيب نفس، فإنى أكره أن يذهب شيء من مالى باطلاً»، فقال له الرجل: «والله لقد خفت منك هذا بعينه، فلم أضع جنبى إلى الأرض حتى جعلته صالحا لامرأتى، فزودت فى الكمين، وحذقت المقاديم، فإن أردت بعد هذا كله تأخذه فخذه». قال «زبيدة»: «نعم آخذه، لأنه يصلح لامرأتى كما صلح لامرأتك» قال: فإنه عند الصباغ» قال: «فهاته منه». قال: «لم أسلمه أنا إليه ..» فلما يئس «زبيدة» من استرجاع القميص رفع يديه قائلا: بأبى وأمى رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث يقول: «جمع الشر كله فى بيت، وأغلق عليه، فكان مفتاحه السكر»!.

فضولي ...

قال «السندى»، أحد رجالات الخليفة «المأمون»:

بعث إلى المأمون يريدنى وأنا بخرسان، فطويت المراحل حتى أتيت بغداد، وانصرفت إلى منزلى أطلب حجاما لا يكون فضوليا، فأتونى به، فما هو إلا أن دارت يده على وجهى حتى قال: «جعلت فداك، هذا وجه لا أعرفه، فمن أنت؟» قلت: «السندى» قال: «من أين قدمت؟ فإنى أرى أثر السفر عليك» قلت: «من خراسان» قال: «وأى شيء أقدمك؟» قلت «وجه أمير المؤمنين بريدا الى» قال: «اريد أن تعرفنى المنازل والسكك التى جئت عليها قلت: «نعم .. إذا فرغت فسأخبرك».

فلما فرغ حلفت عليه ألا يبرح، وحضر الغداء فتغدينا، ثم قلت: يعلق الحجام من



العقبين. فلما علق قلت: سألتنى عن المنازل والسكك التى قدمت عليها، وأنا أقصها عليك فاستمع، خرجت من خرسان وقت كذا، فنزلت كذا. وهنا أمرت غلامى أن يضرب الحجام، فضربه عشرة أسواط. واستأنفت أقول: ثم خرجت منه إلى مكان كذا. وقطعت كلامى لآمر الغلام بأن يوجعه، فضربه عشرة أسواط أخرى، وما زلت آمره بأن يضربه لكل سكة عشرة، حتى انتهى الغلام إلى سبعين سوطا. فالتفت الحجام إلىّ يقول: يا سيدى سألتك بالله إلى أين تريد أن تبلغ؟ قلت له: إلى بغداد. قال الحجام: لن تبلغ حتى تقتلنى. قلت: «فأتركك على ألا تعود؟» قال: «والله لا أعود أبدا» فتركته، وأمرت له بسبعين درهما! ...

بلاغة فى رسالة ...

قال «أحمد بن يوسف» الكاتب:

دخلت على «المأمون» وبيده رسالة كتبها «عمرو بن مسعدة» وهو يصعد فيها، ويقوم مرة ويقعد أخرى، ثم التفت إلى فقال: «أحسبك مفكرا فيما رأيت؟» قلت: «نعم ... وقى الله عز وجل أمير المؤمنين المكاره» فقال: «ليس بمكروه، ولكنى سمعت «الرشيد» يقول: «ان البلاغة هى تقارب من المعنى البعيد، وتباعد من حشو الكلام، ودلالة بالقليل على الكثير، فلم أتوهم أن هذا الكلام يستتب على هذه الصفة حتى قرأت تلك الرسالة».

أما الرسالة التى أعجب بها الخليفة ورآها مثلا للبلاغة، فكانت استعطافا على الجند، وهذا نصها:

«كتابى إلى أمير المؤمنين أيده الله، ومن عندى من أجناده وقواده، فى الطاعة والانقياد، على أفضل ما تكون عليه طاعة جند تأخرت أرزاقهم، واختلت أحوالهم»



وقد أمر «المأمون» باعطائهم راتب ثمانية أشهر.

الصحافى .. لا الصحفى

شاعت كلمة «الصحفى» فيمن يمارس العمل فى الصحف، وبجانبها تتردد كلمة «الصحافى»، ولكن الأولى أشهر وأشيع، ومنها تستمد «نقابة الصحفيين» اسمها.. ولكلمة «الصحفى» تاريخ ..

أول نشوئها أن العلماء فى الصدر الأول لم يكونوا يثقون الا بمن يتلقى دراسته مشافهة وتلقينا، لا يتلقاها من صحيفة مكتوبة، ولذلك قالوا فى كل من لا يروى معارفه عن شيخ أو استاذ أنه: صحفى.

وعلة فقدان الثقة بمن يأخذ عن الصحف، أن الكتابة كانت يومئذ بلا نقط ولا ضبط، فالتحريف فى القراءة ميسور، والخطأ غير مأمون، ومن ثم شاعت عندهم الجملة المأثورة:

لا تأخذوا القرآن من مصحفى، ولا العلم عن صحفى!

وقويت هذه الفكرة فى البيئة العلمية المتقدمة، ووجدت الأدلة على صحتها بين جمهور العلماء، فتطورت كلمة «الصحفى» وأصبحت تطلق أيضا على كل من يخطىء فى قراءة الصحف، واشتقوا من ذلك «التصحيف» وهو الخطأ فى قراءة الصحف بأشباه الحروف ...

أما كلمة «الصحافى» فليست لها تلك الوصمة التاريخية فى الاستعمال اللغوى، ولا يتوجه عليها مثل هذا النقد، لأنها نسبة إلى «الصحافة»، وهى مصدر يصاغ للدلالة على الحرفة، مثل الكتابة والطباعة والتجارة والزراعة ونحوها ..

على أن كلمة «الصحفى» نفسها ما كادت تشيع قديما، حتى لحقها اللحن،



فنطقها الناس بضم الصاد والحاء، واضطر نقاد اللغة السالفون إلى التنبيه على هذا الخطأ، وقالوا إن الصواب فتح الصاد والحاء، نسبة إلى الصحيفة. فمتى يتاح لكلمة «الصحافى» الصافية النقية أن تتغلب على كلمة «الصحفى»؟

دواعى الشعر

لم يكد يجد الجد فى معركة «بور سعيد» حتى اتقدت حمية الشعراء فى صوغ الأناشيد الوطنية، قوية المعانى، مملوءة بالحماس. ورأينا الشعب يردد هذه الأناشيد بدافع من نفسه، لأنها صادفت هوى من نفسه.

ولطالما نعى النقاد على الشعراء أنهم لا يقدمون للشعب أناشيد حماسية، فلم يثمر النقد فى شىء، ولكن الأحداث هى التى أثمرت ذلك الانتقاض فى التعبير عن الشعور القومى.

والأحداث هى الدواعى القوية لانبعاث الشعراء فى كل زمان ومكان .. يؤثر عن «النابغة الجعدى» أن الشعر استعصى عليه فترة من الزمن، فلم ينطق، وأسف قومه «بنو جعدة» لسكوت شاعرهم، فهو لسانهم المعبر، وصوتهم الجهير، وما هى إلا أن نشب بينهم وبين قوم غيرهم عراك، وحارب الجعديون وانتصروا، فلما سمع «النابغة» بذلك فرح وطرب، فاستحث الشعر، فذل له ما استصعب عليه، وبادر قومه بأشعار رائعة، حتى قالوا:

والله لنحن باطلاق لسان شاعرنا، أسر من الظفر بأعدائنا!

عيد المئويين!

تتفنن الأمم فى العصر الحديث فى ابتكار أعياد اجتماعية غير الأعياد التقليدية



المعروفة، ومن هذه الأعياد الجديدة: عيد الأم، وعيد الأب ..

والتجديد فى الأعياد، ووصلها بالحياة الاجتماعية، تفكير قديم!

ومن أطراف الأعياد القديمة عيد كان يقام للمئويين، وهم الذين أكملوا من أعمارهم مائة عام، وهذا مؤلف شرقى يسمى «العاملى» يحدثنا منذ أربعة قرون عن ذلك العيد الذى كان يقام فى أقاصى الهند، فيقول:

«استمرت العادة هناك على إقامة عيد كبير على رأس كل مائة سنة، فيخرج أهل البلد جميعا إلى صحراء، فيها حجر كبير منصوب، فينادى المنادى: لا يصعد هذا الحجر إلا من حضر العيد السابق، فإذا صعد الحجر صاعد تحدث إلى الناس بما يعرفه من الشئون والأحداث، وبما كسب فى أعوامه المائة من تجارب، ثم يصعد الحجر خطيب يعظ الناس، ويذكر غرور الدنيا، وتقلبها بأهلها، ثم يأخذ الناس فى التبرع من أموالهم للعاجزين وذوى الحاجة ..».

وخيرا تفعل وزارة الشئون الاجتماعية لو أقامت عيدا للذين طال بهم العمر، وجعلت له برنامجا حافلا يحتوى على جمع ذكريات المحتفى بهم وتجاربهم ومناهج حياتهم، على أن تشرك فى تنظيمه الأطباء وعلماء النفس والتربية وتخرج هذه الدراسات والمعلومات فى كتاب طريف ..

الراحة فى كسره...

كان الشاعر «ابن الرومى» عجيبا فى تشاؤمه، وكانت له وسوسة تكاد تبلغ الجنون ..

كان يوما فى مجلس الخليفة، فرأى بين يديه قدحا بديعا، فأعجبه، فجعل يصفه مستحسنا له، وتلطف للخليفة لكى يهبه إياه، فلم يضن عليه به ..فلما خرج «ابن



الرومى» من مجلس الخليفة، وضع القدح على رأسه، ثم أزاله بسرعة، ثم وضعه على ركبته، ثم رمى به فكسره...

فلما سئل عن ذلك، قال: لما رأيت هذا القدح لم يكن على وجه الأرض أحب إلى منه، فوضعته على اشرف أعضائى، ثم ذكرت قول بعض الحكماء: ان الصاعقة إذا قابلت الشىء الشفاف انحدرت إليه، فخفت أن تقع على صاعقة، ثم وضعته على ركبتى، فخفت أن تصدمنى دابة أو نحوها فينكسر، فيدخل فى جسمى، فيكون سبب علة مزمنة. وخفت أن يكون الذى دعانى إلى طلب هذا القدح مصيبة توشك أن تحل بى، فرأيت الراحة فى كسره، والخلاص من شره!

النحو العملى ...

كان «أبو العبر» من ظرفاء العصر العباسى، ومن معاصريه «ثعلب» أحد أئمة النحو ..

وقد لقى «ثعلب» صاحبه «أبا العبر» يوما، فأحب أن يجاذبه الحديث، فقال له: «هل الظبى معرفة أو نكرة»؟

فأجاب «أبو العبر»: أتسألنى وأنت إمام النحو»؟

فقال «ثعلب»: «بل أريد جوابك».

فقال «أبو العبر»: «لا أضن عليك به .. إن كان الظبى مشويا على المائدة، فهو معرفة ولا شك، وإن كان نافرا شرودا فى الصحراء، فهو نكرة وأى نكرة»..

فضحك ثعلب وقال: «ما فى الدنيا أعرف منك بالنحو»!

مفلس ... وأحمق!

كان فى «بغداد» رجل قد ركبته ديون كثيرة، وهو مفلس، فأشار القاضى بألا



يقرضه أحد شيئا بعد، ومن أقرضه فليصبر عليه، ولا يطالبه بدينه. وأمر القاضي أعوانه بأن يطوفوا بالرجل فى الأسواق، ليعرفه الناس، ويتحرزوا من معاملته ...

فاستأجر الرجل بغلا يركبه لهذه المهمة، فلما فرغ من الطواف فى البلد، ووصل إلى باب داره، وأراد أن ينزل، قال له صاحب البغل: «أعطنى أجرة بغلى» ..

فقال له: «يا أحمق، أى شىء كنا فيه منذ الصباح»؟!

حول «رمضان»

تقضى الشريعة الإسلامية بأنه لا صيام لشهر رمضان حتى تثبت رؤية الهلال، وقد كان الصوم فى «يوم الشك» مثار خلاف بين الفقهاء.

ومن طريف ما يروى من نوادره أن «شريكا» قاضى المسلمين على عهد «الرشيد» كان فى مجلس الخليفة فى «يوم الشك» والفقهاء عنده، فلم يزالوا جلوسا إلى الظهر ينتظرون الأنباء من هنا وهناك، فجاءت بأن الهلال لم يره أحد البارحة. وكان بين يدى الخليفة تفاح، فطرح إلى كل من الجالسين تفاحة، فأكلوا، إلا القاضى «شريكا» فإنه لم يقرب تفاحته. فأراد الفقيه الكبير «أبو يوسف» أن يوقع بين الخليفة وقاضيه، فقال: «انظر يا أمير المؤمنين إلى قاضيك يخالفك، إذ أنه أبى أن يأكل، ويريد أن يتم صيام اليوم!». ووجد القاضى نفسه فى مأزق، ولكن بديهته أسعفته بقوله: «لم أخالفك يا أمير المؤمنين، بل هو الذى خالفك وأصحابه. إنما أنت امام ونحن رعية، ولا نفطر حتى تفطر أنت. وليس لنا أن نتقدمك!».

فقال الخليفة: «صدقت». ثم أكل، وبعده أكل «شريك».

ويشبه هذه القصة التاريخية فى حسن التخلص، ما يروى عن الامام «محمد عبده»، فقد كان فى مجلس أحد العظماء، وجىء له بقدح من شراب طيب «شربات»، فعب الامام ما فى القدح مرة واحدة، فقال له مضيفه: «كيف صح لك يا مولانا أن تشرب مرة واحدة، وحكم السنة أن تشرب ثلاث مرات؟» فأجابه الامام



مسرعا: «هذه مرة، وعليك أن تقدم لى قدحين آخرين اتم بهما المرات الثلاث، عملا بالسنة!»

فلم يجد مضيفه بدا من أن يأمر له بقدحين من ذلك الشراب ...

تنويع القافية فى الشعر

فى المقال الممتع الذى تحدث فيه الاستاذ طاهر الطناحى عن «ديوان الماحى» - فى هلال الشهر الماضى - أشار الأستاذ إلى نهج الشعر الحديث فى تنويع القافية فى القصيدة الواحدة، وقال إن هذا النهج من مبتدعات الشعر الأندلسى الذى قلده الأوربيون فيما بعد.

وهذا حق، فإن تنويع القافية ليس من مستحدث العصور القريبة، ولعل تاريخه فى الشعر العربى أقدم من تاريخ التوشيح الأندلسى.

فمن «الأراجيز» ما تختلف قوافيه باختلاف الأبيات، ومن صور الشعر القديم تلك الصورة التى كانت تسمى «التسميط» وهو جعل الأبيات على هيئة أسماط، أى خيوط أو عقود. والشعر المسمط يحتوى على أشطار أبيات مقفاة، آخرها له قافية مخالفة. ومنه أشكال كثيرة، وينسب إلى «امرىء القيس» قصيدتان سمطيتان. وعندى أن هذا أصل نشوء الموشحات التى كثرت فى أدب الأندلس.

ويروى من الشعر المسمط:

خيـــال هـاج لى شجـنـا   فبـت مكابــدا حزنـــا
عميــد القلب مرتهــنــا   بـذكر اللهــو والطـــرب

وفوق هذا يذكر نقاد الشعر أن «الشماخ» - وهو من قدامى الشعراء - كان فى سفر مع أصحاب له، فنزل يحدو بالقوم، فقال قصيدة على قافية الفاء، ثم تعذر عليه



الروى، فتركه، وأتم القصيدة على قافية التاء. وقد أثبتوا أبيات القصيدة ذات القافيتين المختلفتين.

فالشعر العربى لم يخل من تنويع القافية فى القصيدة الواحدة، ولكن الشعراء على تعاقب العصور، هم الذين آثروا توحيد القافية، لكى يتكامل للقصيدة الايقاع الموسيقى الذى هو من أهم أركان الشعر.

تعليق مدير التحرير - لم أتعرض فى مقالى المذكور للشعر الجاهلى ولا للرجز والتسميط ولكنى أردت أن أشير إلى الاسلوب الحديث فى الشعر الافرنجى، فقد نهج فى تنويع القافية منهج الشعر الأندلسى، ونقل الافرنج عنه فيما نقلوا عن العرب فى أسبانيا. أما الشعر العربى فى الجاهلية والاسلام ففيه الرجز والتسميط، وهو ما لا أقصد اليه فى الحديث عما نقله الافرنج عن العرب.

تقتل ثلاثة .. لتتزوج !

يتحدث «أرسطو» عن قيمة الحروب، ويقول: «إن الشعوب التى تستطيع ارضاء أطماعها، تضع قيمة هذه الاطماع فى أسمى مكان».

ويستشهد الفيلسوف لذلك ببعض الأمم والقبائل، وهو يشير إلى قبائل «السارمات» التى كانت تنتشر فى القطاع الواسع بين بحر البلطيق وبحر قزوين.

وأمر هذه القبائل فى حب الحروب يبلغ غاية العجب ...

فقد روى «أبقراط» أنها كانت تشترط على الفتيات فيها شرطا لابد من الوفاء به، لكى يباح لهن أن يتزوجن.

ذلك الشرط هو أن تكون الفتاة قد خاضت غمار الحرب، وتمكنت من أن تقتل ثلاثة من الأعداء. فإذا تم لها ذلك، كان لها أن تطمع فى نعيم الزواج.



وهكذا كان «الرجل» من قبائل «السارمات» يسلم نفسه إلى زوجة لها سوابق مجيدة فى صراع الأبطال وقتل الرجال!

دعاء فنى!

أهل كل فن وصناعة تجرى ألفاظ فنونهم وصناعاتهم فى أحاديثهم العادية، فتكشف عن شخصياتهم، على الرغم منهم ...

وقد استغل الظرفاء هذه الظاهرة، فوضعوا عبارات طريفة على ألسنة المشهورين بفنون وصناعات معينة، تتضمن مصطلحاتهم الخاصة.

فمما وضعوه على لسان «أفلاطون» أنه كان يقول فى صلاته:

«ياروحانيتى المتصلة بالروح الأعلى، تضرعى إلى العلة التى أنت معلولة من جهتها، لتتضرع إلى العقل الفعال، ليحفظ لى صحتى النفسانية، مادمت أنا فى عالم التركيب»!

ومما وضعوه على لسان رياضى قوله وهو يحتضر:

«اللهم يا من يعلم قطر الدائرة، ونهاية العدد، والجذر الأصم، اقبضنى اليك على زاوية قائمة، واحشرنى على خط مستقيم»!

أكل وحبس ...

كان «أبو الأسود الدؤلى» دقيقا فى معاملاته، يكره السؤال والاستجداء، حتى رموه بالبخل.

ومن نوادره أن رجلا من الذين يكثرون سؤال الناس مربه ذات ليلة، وهو ينادى:



من يعشى الجائع؟

فقال «أبو الأسود»: هاتوه ...

فجاءوه به، فأتاه بعشاء كثير، وقال له: كل حتى تملأ بطنك. فلما أكل، ذهب ليخرج، فقال له: إلى أين؟

فأجابه: أذهب حيث أريد ...

فقال له: والله لا أدعك تؤذى الناس الليلة بسؤالك، وقد أكلت حتى شبعت، فما بك حاجة إلى الطريق!

وأمر بأن يقيد، فلا يخلى سبيله حتى الصباح ...

وقد حرص هذا السائل من بعد على ألا يرى «أبو الأسود» وجهه، ولا يسمع صوته...

دعوة إلى حكم الشورى

من أروع الرسائل التى أثرت عن القضاة فى رسم سياسة الدولة، رسالة عالم فاضل، تولى قضاء البصرة فى عهد «المهدى» أحد خلفاء بنى العباس، واسمه «عبيد الله العنبرى» .. لقد طالب هذا القاضى بأن يكون بجانب الخليفة مجلس من أهل الرأى يشاورون فى الأمر، وهو ينص فى عبارته على أن يكون المجلس «منتخبا»، وأن يكون ممثلاً لمختلف البلاد التى يمتد إليها حكم الخليفة. ونحن نثبت هنا من رسالة القاضى ما يتعلق بنظام الحكم. قال:

«ان رأى أمير المؤمنين أن يكون بحضرته قوم منتخبون من أهل الامصار، أهل صدق وعلم، أولو حنكة وعقل وورع، لما يرد عليه من أمور الناس وأحكامهم، وما يرفع إليه من مظالمهم فليفعل .. فإن أمير المؤمنين - وإن كان الله قد أنعم عليه



وأفضل، بما أفاد من العلم - ترد عليه أمور هذه الدولة شرقها وغربها، دانيها وقاصيها، فيشغله بعضها عن بعض، ففى ذلك عون صدق على ما هو فيه، إن شاء الله. وقد قال الله عز وجل لنبيه صلى الله عليه وسلم، والوحى ينزل عليه، وهو خير وأبقى وأبر وأعلم ممن سواه من الناس: «وشاورهم فى الأمر، فإذا عزمت فتوكل على الله، إن الله يحب المتوكلين». وقال للقوم، وهو يصف حسن أعمالهم: «وأمرهم شورى بينهم، ومما رزقناهم ينفقون».

غيرة .. قاتلة !

يقول «الجبرتى» أنه فى السابع والعشرين من شهر رمضان سنة ١٢٢٨هـ احتفل بعقد قران كريمة محمد على باشا لمحمد بك الذى تقلد منصب «الدفتردار».

وفى موضع آخر من تاريخ «الجبرتى» يقول: «أنه فى الثامن من المحرم سنة ١٢٢٩هـ احتفل بزفاف ابنة الباشا إلى زوجها محمد بك الدفتردار وكان الاحتفال فى «الأزبكية»!».

وبقية حديث ابنة الباشا تذكره لنا زوجة «القبرصى» رئيس الوزارة العثمانية، إذ قالت فى كتابها الذى اسمته «ثلاثون سنة بين الحريم»:

« ... كانت نازلى هانم شديدة الغيرة، وقد حدث أن كان زوجها فى قصره ذات يوم، فقدمت له إحدى الجوارى الصغيرات السن قدحا من الماء، فشرب، وقال لها فى تلطف: «كفى يا «كزم»!».

وكلمة «الكزم» تفيد فى اللغة التركية معنى الخروف الصغير، وهو ما نعبر عنه بالحمل الوديع.

«فلم تكد الأميرة الغيور تعلم بأن زوجها لاطف الجارية الصبية بهذا القول، حتى



اضطربت، وما لبثت أن أمرت بخنق تلك الجارية التاعسة الحظ، ثم أمرت بأن يطهى رأسها، ويوضع فى طبق، ويقدم إلى زوجها على المائدة.

وقالت الأميرة للزوج، وهى تعرض الرأس عليه: «كل قطعة من «الكزم» الذى أعجبك!»

ذعر الرجل، ولم يملك إلا أن يشيح بوجهه فى اشمئزاز عن زوجته الأميرة ابنة الباشا «محمد على»!».

سخرية ... من بخيل

كانت السخرية فنا من فنون الرسائل الاخوانية فى الأدب العربى، ومن أمثلتها رسالة كتبها أديب إلى أحد أصحابه يصف رجلا يعرفه، وكان صاحبه قد هم بأن يقصد هذا الرجل، طالبا معونته له، وبره به، وتلك هى الرسالة كما نقلها صاحب كتاب «المحاسن والمساوىء» فى القرن الثالث الهجرى:

«إنك تسألنى عن فلان، فكأنك حدثت نفسك بالقدوم عليه، فلا تفعل، امتع الله بك ... إن حسن الظن به لا يقع فى الوهم الا بخذلان من الله، وان الطمع فيما عنده لا يخطر على القلب إلا بسوء التوكل على الله، وإن الرجاء لما فى يده لا ينبغى إلا بعد اليأس من رحمة الله... انه يرى المبرة مرفوعة، والصلة موضوعة، والصدقة منحوسة، والتوسع ضلالة والجود فسوق، والسخاء من همزات الشياطين، وهو يرى أن الله لا يغفر أن يؤثر المرء أحدا غيره على نفسه ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء. فمن آثر غيره على نفسه، فقد ضل ضلالا بعيدا، وخسر خسرانا مبينا ... كأنه لم يسمع بالمعروف إلا فى الجاهلية الذين قطع الله أدبارهم، ونهانا عن أن نتبع آثارهم... وعنده ان الرجفة لم تأخذ أهل «مدين» إلا لسخاء كان فيهم، وأن الريح



العقيم أهلكت «عادا» و «ثمود» لتوسع كان بينهم .. وهو يخشى العقاب من الله على الإنفاق، ويرجو الثواب على الاقتار، ويواعد نفسه العقوق، ويأمرها بالبخل، خيفة أن تمر به قوارع الدهر، وأن يصيبه ما أصاب القرون الأولى ... فأقم - رحمك الله - بمكانك، واصبر على عسرك، لعل الله أن يبدلنا واياك خيرا منه زكاة وأقرب رحما ...».

جدال مجنون

بعث «الرشيد» وزيره «ثمامة» إلى دار المجانين، ليتفقد أحوالهم، فرأى بينهم شابا حسن الوجه، كأنه صحيح العقل ... فأحب أن يكلمه، فقاطعه المجنون بقوله: «أريد أن أسألك فى مسألة».

فقال الوزير: «هات سؤالك»

فقال الشاب: «متى يجد النائم لذة النوم؟»

فأجاب الوزير: «حين يستيقظ»

فقال الشاب: كيف يجد اللذة وقد فارقه النوم، والمعدوم لا توجد له لذة»

فقال الوزير: «بل يجد اللذة قبل النوم»

فاعترضه الشاب بقوله: «كيف يتلذذ وهو لم يقارب النوم بعد، وهل توجد لذة الشىء قبل الحصول عليه؟»

فقال الوزير: «بل يجد اللذة حال النوم»

فرد عليه الشاب يقول: «ان النائم لا شعور له، فكيف تكون لذة بلا شعور؟»
فبهت الوزير، ولم يستطع جوابا، وانصرف مزمعا ألا يجادل مجنوننا ابدا ...

عشق أشعبى

يقولون فى الأمثال: «طمع اشعبى»، نسبة إلى «أشعب» ... وقد رووا أنه كان



عاشقا على طريقة يصح أن تسمى: «العشق الاشعبى»!

قالوا إنه كان يختلف إلى جارية فى المدينة، ويظهر لها التعاشق، إلى أن سألته سلفة نصف درهم، فانقطع عنها، وكان اذا لقيها فى طريق سلك طريقا أخرى، فصنعت له نشوقا واقبلت به إليه، فقال لها: «ما هذا»؟ قالت: «نشوق عملته لهذا الفزع الذى بك»، فرد عليها قائلا «بل اشربيه أنت للطمع الذى عندك، فلو انقطع طمعك لانقطع فزعى» ... وأنشد يقول:

اخلفــــى ما شئـــــت وعـــــدى
وامنحينـــــى كـــل صـــــــــد
قــد ســـلا بعــــدك قلبـــــى
فاعشـقى من شئـــــت بعـــدى
انـــــى أقسمــت لا أعشـــق
من يعشـــــــق نقـــــــدى!

الشمس .. والأسنان

يذهب العامة إلى أن للشمس أثرا فى انبات الاسنان، ولذلك إذا سقطت سن طفل طلب إليه أهله أن يلقى بها فى وجه الشمس، لكى تعطيه سنا خيرا من تلك السن التى سقطت ..

وهناك أغنية يتناشدها الصبيان فى هذا المجال، وهى:

يا شمـــــس يا شموســـــة خدى سِنـــــة الجاموســـــة
وهاتـــى سِنـــة العـــروســـة

وهذا المعتقد العامى كان مثار سؤال وجهه «الشعبـى» أحد القضاة فى عهـد



الدولــة الأمــوية إلى جلســائه، إذ سألهم عن معنى قول الشاعر:

بدلتــه الشمــس من منبتــه   بردا أبيــض مصقــول الاشــر

فلم يدر أحد منهم جواب سؤاله، فقال لهم: كان الصبى فى الجاهلية اذا سقطت من فمه أسنان الرضاع، أقبل على الشمس فقذفها، ثم قال: أبدلينى خيرا منها.

وهكذا نعرف أن المعتقد العامى الذى يعيش بيننا حتى اليوم، كان فيما توارثناه من معتقدات العرب منذ العصور الموغلة فى القدم.

الحسن أحمر

نقول فى الوصف: وجه جميل، أو: صبيح، أو: مليح.

والمعجمات اللغوية تفسر بعض هذه الكلمات ببعض، فالجمال: الحسن، والملاحة: الصباحة، والصباحة: الجمال.

ولكن البحث فى أصول الكلمات، وملاحظة اختلاف معانيها، مما يؤدى بنا إلى فهم الذوق العربى القديم فى تقدير خصائص الجمال.

تدل «الصبحة» فى اللغة على اللون الأحمر، حتى أن الصبح سمى بهذا الاسم لأن الصبح الصادق يضرب لونه إلى الحمرة، كأنه لون الشفق.

وكذلك «الملحة» فهى بياض يضرب إلى الحمرة، على مثل لون الظبى.

أما «الجمال»، فأصله من الجميل، وهو الودك، أى الشحم المذاب، فالوجه الجميل هو الذى يجرى فيه ماء السمنة، وهو أحمر.

فالعرب إذن لم يكونوا يريدون إلا وصف الوجه بالبياض المشرب بحمرة، حين يقولون: وجه جميل، أو صبيح، أو مليح.

وقد كان العرب يعجبون بحمرة اللون، ومن ذلك المثل السائر: الحسن أحمر!



مع تفاحـــة ...

أهدت جارية من جوارى «المأمون» تفاحة إليه، وكتبت معها:

«فكرت فى هدية تخف مؤنتها، وتهون كلفتها، ويجل موقعها، فلم أجد إلا أن أهدى إليك تفاحة، هى أحسن الفاكهة. قد اجتمعت فيها ألوان قوس قزح، من الصفرة الدرية، والحمرة الخمرية، والشقرة الذهبية، وبياض الفضة، ولون التبر، يلتذ بها من الحواس: العين ببهجتها، والأنف بريحها، والفم بطعمها. ان حملتها لم تؤذك، وإن رماك بها أحد لم تؤلمك فتناولها بيمينك، ولا تبعدها عن عينك، فإذا طال لبثها عندك، ومقامها بين يديك، وخفت أن تزول بهجتها، وتذهب نضرتها، فكلها هنيئا مريئا ...».

طبل وبـوق

يصور لنا «الجاحظ» جوانب طريفة من الحياة فى عصره، ومن ذلك تصويره لما كان يلقاه المعلمون من مشاغبات الصبيان فى الكتاتيب، إذ يقول:

مررت بمعلم صبيان،وعنده عصا طويلة وعصا قصيرة، وصولجان، وكرة، وطبل، وبوق. فقلت: ما هذا كله؟ قال: عندى صبية مشاغبون، أقول لأحدهم اقرأ لوحك، فيصفر لى، فأضربه بالعصا القصيـرة، فيتأخـر، فأضـربه بالعصا الطويلة، فيفر من بين يدى، فأضع الكرة فى الصولجـان وأقذفه بها، فيقوم نحوى الصغار كلهم بالألواح، فلا أستطيـع ردا، ولا أملك إلا أن أجعل الطبل فى عنقى، والبوق فى فمى، فأضرب الطبل، وأنفخ البوق، فيسمع ذلك أهل الدرب، فيسارعون إلى

ليخلصونى!

أدب يحتـــرق ...

فى هذه النهضة الأدبية التى نشرت فيها نفائس المخطوطات، تتجلى شخصية «أبى حيان التوحيدى» فى كتبه المتعددة الجامعة بين الدراسات الفلسفية والأدبية والاجتماعية، فهى الآن - بعد نحو ألف سنة من وفاته - تعلى صيته وتحيى ذكراه.

كان هذا الأديب منكودا يشكو القلة وضعة الحال. فلم يلق ممن صحبهم من الأمراء والوزراء إلا جحود فضله واساءة معاملته، حتى ضاق بأمره، واستبدت به المحنة، فأدت به إلى أزمة نفسية غضب فيها على علمه، ونقم من كتبه، فأحرقها جميعا. وما ينشر اليوم من مؤلفاته هو مما كتب عنه فى حياته، ومما خرجت نسخة من يده قبل هذا الحريق المشئوم.

وقد كتب إليه القاضى أبو سهل يعدله على سوء صنيعه فى إحراق كتبه، فأجابه برسالة طويلة تفيض يأسا وكمدا. يقول فيها:

« ... هذه الكتب حوت من أصناف العلم سره وعلانيته، فأما ما كان سرا، فلم أجد له من يتحلى بحقيقته راغبا، وأما ما كان علانية فلم أجد من يحرص عليه طالبا.

«إنى فقدت ولدا نجيبا، وصديقا حبيبا، وصاحبا قريبا، وتابعا أديبا، ورئيسا مثيبا، فشق على أن أدع كتبى للقوم يتلاعبون بها، ويدنسون عرضى اذا نظروا فيها، ويشتمون بسهوى وغلطى اذا تصفحوها، ويتراءون نقصى وعيبى من أجلها...



«ولى فى إحراق هذه الكتب أسوة بأئمة يقتدى بهم. هذا داود الطائى طرح كتبه فى البحر، وقال يناجيها: نعم الدليل كنت، والوقوف مع الدليل بعد الوصول عناء وذهول، وبلاء وخمول ... وهذا أبو سليمان الدارانى جمع كتبه فى تنور وسجرها بالنار، ثم قال: والله ما أحرقتك حتى كدت أحترق بك.

«هذا ... وهذا ...».

«على أنك لو علمت فى أى حال غلب على ما فعلت، وعند أى مرض وعلى أية عسرة وفاقة، لعرفت من عذرى أضعاف ما أبديته، واحتججت لى بأكثر مما نشرته وطويته ...».

يختنق بالدرر

دخل الشاعر «أبو نواس» على الخليفة «محمد الأمين» فقال له:

«قلت فيك أبياتا يا أمير المؤمنين، ولست بمنشدك إياها حتى تنزل عن السرير، واجلس أنا عليه».

فقال له «الأمين»:

«لقد تجاسرت، فوالله لئن أحسنت لأحسنن إليك، ولئن أسأت لأمثلن بك»

ثم نزل عن السرير، واجلس الشاعر عليه، فأنشأ يقول:

ضيـاء الشمـس والقمـر المنيـر إذ طلعـا كأنهمـا الأميـر
فـإن يك أشبهـا منـه قليـلا فقـد أخطاهمـا منـه كثيـر
لأن الشمس تغـرب حين تمسـى وان البـدر ينقـص إذ يسيـر
ونـور «محمـد» ابـدا تمـام على وضـح الطريقة مستنيـر

فقال «الأمين» لأعوانه: «هاتوا سفط در» ...

فجاءوه به، فاقترب من الشاعر، ولم يزل يحشو فاه بقطع الدرر، حتى صاح: «القتيل! القتيل! يا أمير المؤمنين» ...

غناء الحجيج ...

كان من مراسم الحج إلى عهد قريب أن يخرج موكبه من القاهرة تزفه أنغام الموسيقى. وقد عرف التاريخ الإسلامى منذ العهود المواضى ما يسمى «غناء الحجيج»، إذ يتحدث عنه الإمام «الغزالى» منذ تسعمائة سنة، فيقول إنه من نحو الكلام المسجع الموزون الذى يعتاد فى مواضع معينة لأغراض مخصوصة، وبه ترتبط آثار القلب ... وذلك أنهم يدورون أولا فى البلاد بالطبل والغناء، ويرى «الغزالى» أن هذا اللون من التطريب مباح، لما فيه من التشويق إلى الحج، وأداء الفريضة، وشهود المشاعر.

ومن مراسم الحج الباقية إلى زمننا هذا، تزيين بيوت الحجاج عند عودتهم من البيت الحرام. وفى تاريخ العالم الخراسانى عبد الله بن المبارك - أيام هارون الرشيد - أنه خرج إلى الحج تصحبه جماعة من اخوانه، فكان يشملهم بمروءته حتى إذا رجعوا من الحج، شاد بيوتهم بالجص، وصنع لهم الولائم، وأهدى إليهم الكسى، ليستكملوا فرحتهم بأداء فريضة الحج إلى أقدس مطاف ...

فداء الديك

يحدثنا «الأصمعى» أن رجلا تولى قضاء مدينة «الأهواز» فأبطأت عليه أرزاقه، حتى أنه أصبح لا يكاد يجد ما ينفقه، واقترب منه عيد الأضحى، فشكا



إلى زرجته ما هو فيه من العسرة، وأنه لا يقدر على أضحية، فقالت له:

– لا تغتم، فإن عندى ديكا قد سمنته، فإذا كان يوم الأضحى ذبحناه، ونمى إلى الجيران نبأ ذلك القاضى الذى بلغ من ضيقه أنه لا يجد أضحية لعيده، فتبادروا إلى منزله، وأهدوا إليه ثلاثين كبشا، وهو وقتئذ فى المصلى لا يعلم، فلما رجع من صلاته، ورأى ما فى منزله من الأضاحى، قال لزوجته: من أين لك هذا؟ فقالت له: أهدى الينا فلان وفلان وفلان، حتى سمت له جماعة من الجيران، فقال لها: يا هذه، ان ديكنا هذا ديك عظيم الشأن، فاحتفظى به، واعرفى له قدره، فهو أكرم على الله من اسماعيل بن ابراهيم، إذ فدى الله ذلك بكبش واحد، وفدى ديكنا بثلاثين كبشا!...

الأمل الخالـد ...

التفت الأديب الفيلسوف «أبو حيان» إلى حقيقة ثابتة فى النفس الانسانية، هى حقيقة «الأمل» الخالد الذى لا يخلو منه إنسان، مهما يطل به العمر، أو يشتد به الضعف.

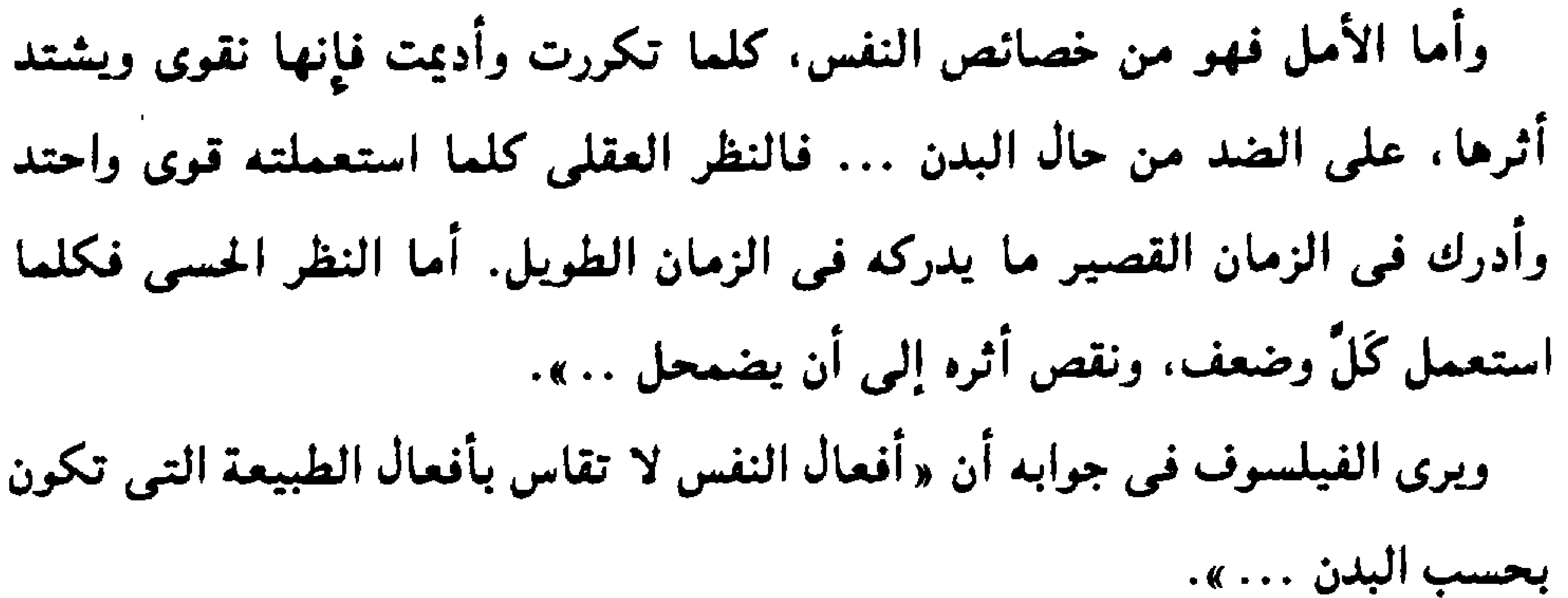
وذكر الفيلسوف شأن «النهدى» الذى عاش فى الجاهلية وعمر حتى أواخر المائة الأولى من الهجرة، وقال: لقد أتت على سنون طوال، وانكرت كل شىء إلا الأمل، فإنه ما زال عندى أحد ما كان!

وسأل «أبو حيان» صديقه الفيلسوف «مكسويه» قائلا:

لم كلما شاب البدن، شب الأمل؟

فأجابه قائلا:

«الشيب، ونقصان البدن، وعجز القوى، أمور طبيعية فى آلات من الجسم، تكل بالاستعمال، وتضعف على مر الزمان.



وأما الأمل فهو من خصائص النفس، كلما تكررت وأديمت فإنها تقوى ويشتد أثرها، على الضد من حال البدن ... فالنظر العقلى كلما استعملته قوى واحتد وأدرك فى الزمان القصير ما يدركه فى الزمان الطويل. أما النظر الحسى فكلما استعمل كَلَّ وضعف، ونقص أثره إلى أن يضمحل ..».

ويرى الفيلسوف فى جوابه أن «أفعال النفس لا تقاس بأفعال الطبيعة التى تكون بحسب البدن ...».

عصا موسى ...

الذين ادعوا النبوة كثير، وكان فيهم ظرفاء ... ومن هؤلاء الظرفاء واحد قال للخليفة «المأمون»: انه نبى، فطالبه الخليفة بمعجزة ليصدق به، فقال له:

اطرح لكم حصاة فى الماء، فأذيبها فى لحظات، حتى تصير مع الماء شيئا واحدا...

واخرج حصاة كانت معه، فطرحها فى الماء، فلم تلبث أن ذابت، فقال له بعض الحاضرين:

هذه حيلة، ولكن أذب حصاة غيرها نأتيك بها نحن ...

فقال المدعى: لا تتعصبوا على، فلستم أنتم أضل من فرعون، ولا أنا أعظم من موسى. ولم يقل فرعون لموسى: لا أرضى بما تفعله بعصاك حتى أعطيك عصا من عندى تجعلها ثعبانا!

فاستظرف «المأمون» حجته، وضحك له، وصرفه عنه بجائزة ...



نوايا سيئة !

من صوت الإذاعة، وبين ثنايا الصحف يتردد مثل هذا التعبير:

«تصرفات تدل على نواياهم السيئة»

والمقصود بكلمة النوايا: النيات.

وفى خلال الفترة الماضية تناول نقاد اللغة هذه الكلمة بالتجريح، اذ لم يجدوا لها مسوغا من التصريف.

وقد تحامى الكتاب المتحفظون هذه الكلمة، ولكنها على الرغم من ذلك ما برحت تتسلل إلى الافواه والأقلام ...

وليس هناك ما يدعو إلى إجازة كلمة «النوايا» على خطئها، فكلمة النيات تقوم مقامها، ولعلها أخف وأوضح.

كلمة «النوايا» تدل على معنى لا يتصل بالمعنى الذى تستعمل فيه فهى على صيغة الجمع لابد أن يكون مفردها: نوية، مثل: صبية، وتحية، والنوية هى التى تكون نيتها على نحو نيتك. فالنوايا هن اللواتى يجتمعن على نية واحدة وغرض واحد.

فلنترك «النوايا» السيئة، ولنستبدل بها «النيات» الطيبة!

عقوبة الشعـــراء

كان «أحمد بن المدبر» - أحد الوزراء فى عصر العباسيين - يضيق ذرعا بمن يقصده من الشعراء، فيمدحه بشعر لا جودة فيه، فابتكر للشعراء عقوبة طريفة، تلك



هى أنه إذا مدحه شاعر فلم يحسن، أسلمه إلى أحد أعوانه، ليمضى به إلى المسجد، فلا يفارقه حتى يصلى مائة ركعة!

ولذلك تحاماه الشعراء، وقال فيه أحدهم:

وقالوا يقبل المدحات لكن جوائزه الى الناس الصلاة
فقلت لهم وما تغنى صلاتى عيالى،إنما الشأن الزكاة!

العالم الصغير

كان المفكرون يسمون الانسان «العالم الصغير»، لأن خصائص الآدمى تلتقى فيها عناصر العالم كله، وقد برع «الجاحظ» فى تعليل هذه التسمية، اذ يقول:

«إن الإنسان الذى خلقت السموات والارض وما بينهما من أجله - كما قال عز وجل: «سخر لكم ما فى السموات وما فى الأرض جميعا» - إنما سموه العالم الصغير سليل العالم الكبير، لما وجدوه فيه من جمع أشكال ما فى العالم الكبير. وجدوا له الحواس الخمس، ووجدوا فيه المحسوسات الخمس، وهو يأكل اللحم والحب، ويجمع بين ما تقتات به البهيمة والسبع، وفيه وثوب الأسد، وغدر الذئب، وروغان الثعلب، وألفة الكلب، واهتداء الحمام. وهو يصور كل شىء بيده، ويحكى كل صوت بفمه، فجعلوه العالم الصغير، إذ كان فيه جميع أجزائه وأخلاطه وطبائعه.. ألا ترى أن فيه طبائع الغضب والرضا، وآلة اليقين والشك، والاعتقاد والالحاد، وما لا يحصى عدده، ولا يعرف حده ...».

وهكذا يرى «الجاحظ» أن الانسان خلاصة العالم كله، وصورته الجامعة، فهو العالم الصغير، وكأنما عناه الشاعر العربى فى قوله :

وليس على الله بمستنكر
لعالم فى واحد



دولاب الأسرار...

من الذى لا يضيق صدره بالسر؟ لقد تناول الفيلسوف «مسكويه» هذه المشكلة - مشكلة صون الأسرار - فحدثنا عن رجل كان يوصى صديقاً له بقوله:«إذا كان لك سر تحب كتمانه، وتكره إذاعته، فلا تطلعنى عليه، ولا تجعلنى موضعه ولا تمنحنى بحفظه، فإنى أجد له فى صدرى وخزا كوخز الاسنة»!.

وكان هذا الرجل يقول: «اطلعت على سر لأحد الوزراء، فجعل لى على كتمانه وطيه مالا وألطافا، وحملها إلى على الفور، فعزمت على الوفاء له، وحدثت نفسى به، ووطنتها عليه، فبت بليلة من لدغته أفعى، وأصبحت كمن أثقله المرض. فلم أجد حيلة للخلاص من هذا الكرب إلا أنى ذهبت إلى ناحية من الدار خالية فيها دولاب خراب، فنحيت من كان حولى، ثم قلت: أيها الدولاب، كان من الأمر والقصة كذا وكذا، وأنا والله أجد من الراحة ما يجده المثقل بالحمل إذا خفف عنه، وكأننى فرغته من وعاء ضيق إلى وعاء أوسع منه. على أن السر لم يلبث أن جثم على قلبى ثانية حتى ذاع من جهة غيرى»!

وهذه القصة تشبه قصة «الأعمش» الذى كان يدرس للناس الأحاديث النبوية، وكان يضيق بهم، فيحلف على أنه لا يحدثهم شهرا أو شهرين أو أكثر أو أقل، فإذا فعل ذلك ضجر بصمته وعزلته، وتاقت نفسه إلى التحديث، فيخلو إلى شاة كانت له فى منزله، فيحدثها. حتى كان بعض تلاميذه يقول: «ليت أنى كنت شاة «الأعمش»! ...



اختصار الكتب ...

يختلف الرأى فى الكتب المؤلفة قديما حين يعاد نشرها، هل تنشر برمتها أو تختصر؟ ومن المؤلفين القدماء من حذروا الناقلين لكتبهم أن ينقصوا منها. وهذا «ياقوت» صاحب «معجم البلدان» يقول فى القرن السابع الهجرى:

«لى على ناقل هذا الكتاب إلا يضيع نصب نفسى له وتعبى، وتبديد ما جمعت، وتشتيت ما لفقت، وتفريق ملتئم محاسنه، فرب راغب عن كلمة غيره متهالك عليها، وزاهد عن نكته غيره مشغوف بها، فإن أجبتنى فقد بررتنى، وإن خالفتنى فقد عققتنى. واعلم أن المختصر للكتاب كمن أقدم على خلق سوى فقطع أطرافه، فتركه أشل اليدين، مبتور الرجلين، أصلم الأذنين ... وقد حكى عن «أبى عثمان» أنه صنف كتابا وبوبه أبوابا، فأخذه بعض أهل عصره فحذف منه أشياء، وجعله أشلاء، فأحضره وقال له: يا هذا إن المصنف كالمصور، وإنى قد صورت فى تصنيفى صورة كانت لها أذنان فصلمتهما صلم الله أذنيك، وكان لها يدان فقطعتهما قطع الله يديك ... حتى عد أعضاء الصورة، فاعتذر إليه الرجل بجهله هذا المقدار، وتاب إليه عن المعاودة الى ...».

مآزق ...

كانت الفتن والأحداث خلال العصور الاسلامية توقع الناس فى مآزق، وكثير منهم لم يتخلصوا من هذه المآزق إلا بالفطنة والحيلة فى استخدام الكلام واتخاذ أساليب الكناية والتعريض.



ففى فتنة «عثمان» وما أعقبها من أحداث قال «معاوية» «صعصعة»: اصعد المنبر فالعن عليا. فامتنع من ذلك، وقال: اعفنى، فلم يعفه «معاوية». فصعد المنبر وحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: «معاشر الناس، ان معاوية أمرنى أن ألعن عليا، فالعنوه لعنه الله..» فهو يرغب إلى الناس أن يلعنوا معاوية الذى أمر بلعن على، فتخلص من المأزق، بل انتقم أشد انتقام.

وفى فتنة الخوارج كان رجل يسمى «شيطان الطاق» يسير، فلقيه أحد الخوارج بيده سيف، فقال له الخارجى: والله لأقتلنك أو تبرأ من على. فقال: «أنا من على ومن عثمان برىء ...» يريد أنه من شيعة على، وأنه يبرأ من عثمان!

وفى فتنة خلق القرآن، كان الخليفة يريد الفقهاء على أن يشهدوا بأن القرآن مخلوق، ولا يعفى من القتل إلا من شهد بذلك وأقر، وكان الفقهاء يدعون واحدا واحدا للشهادة، فلما جاءت نوبة «الحارث بن مسكين» قال «الشهادة للتوراة والانجيل والزبور والقرآن، هذه الأربعة مخلوقة ..» ومد أصابعه الأربع، فنسب الخلق إلى أصابعه، وجعل ذلك تعريضا وكناية، فاستخلص مهجته من القتل!

رقية كاذبة ...

فيما يسجله التاريخ من أقاصيص الناس، شواهد على أن تأثير الإيحاء كان معروفا بينهم، وأنهم كانوا يستغلونه فيما يزاولون من شئون.

يقول التاريخ أن «عبد الله بن جعفر» دخل على« «عبد الملك بن مروان» فألفاه مريضا يشكو ألما. فقال له: يا أمير المؤمنين أتأذن لى فى شىء ينفعك؟ قال: وما هو؟ قال: أن أدعو لك رجلا مغنيا اسمه «بديح» فإن عنده رقية لا تخيب. فقال: افعل. فدعا بالرجل، وطلب إليه أن يرقى الخليفة، فاستجاب، وقرأ فى سره ما قرأ،



ثم انصرف. وبات الخليفة ليلته هادئا قد خف عنه الألم. فلما أصبح قال: هاتوا «بديحا» المغنى، فجاءوه به، فقال له: اكتب لنا الرقية التى رقيتنى بها الليلة، لتكون عندنا. فجعل يتمنع بادىء بدء، وأخيرا قال: اكتبوا عنى. وإذا هو ينشد أبياتا منها:

دعى ما مضى واستقبلى العيش اننى
رأيت لذيذ العيش مستقبل العمر

فقال الخليفة: أى شىء هذا؟ فقال «بديح»: والله ما رقيتك يا أمير المؤمنين إلا بهذا الشعر! قال: ويحك، استر علينا. قال: كيف أستر حديثا أصبح الآن ملء الآذان، وقد سارت به الركبان فى كل مكان؟!

رقصات شعرية ...

عرفت الأمة العربية فن الرقص منذ صدر التاريخ، وقد زاوله الرجال على ايقاع الموسيقى، وعلى نغمات الغناء.

ومن التعبيرات التى تمثل لنا هذا الرقص ما تحدث به أحد الجلساء إلى خليفة عباسى، إذ قال: «ثم سمعت نقرا، لولا جلالة أمير المؤمنين لرقصت عليه» ...

وهذا «أبو الفتح البستى» ينتزع من الرقص الايقاعى معنى طريفا يصف به نفسه، فيقول:

إذا أبصرت فى لفظى قصورا وحفظى والبلاغة والبيان
فلا تعجل إلى لومى فرقصى على مقدار ايقاع الزمان

وشاعر آخر هو «السودى» يقول منتزعا معْنى آخر:

لقد غنى الحبيب لكل صب فأين الراقصون على الغناء



وفى «جمع الجواهر» يجعل أحد الشعراء من صوت ارتشاف الكئوس ومن اهتزاز الرءوس صورة للزمر والرقص طربا بالغناء، فيقول:

تشـــدو فنرقـــص بالـــرءو   س لها ونزمـــر بالكئـــوس

وهكذا نستجلى فى أوصاف الشعراء صورة من الحياة الاجتماعية نستمتع بما فيها من روعة وخلابة.

التعليم المختلط ...

ما زلنا نتحاور فى شأن التعليم: هل يختلط فيه الجنسان أو لا يختلطان! وفينا من يتساءل: هل يتحد البرنامج فى تعليم المرأة والرجل أو يكون لكل منهما ما يلائمه؟

يحدثنا «الأصفهانى» بما يشعرنا بأن هذه المشكلة كانت محلولة فى سلام وأمان، ولا يختلف فيها اثنان!

ففى هذه العصور السالفة - قبل ألف من السنين - كانت هناك مدرسة يتعلم فيها الفتيان والفتيات، وكان كل جنس منهما يتلقى نوعا من التعليم جديرا به، فالفتيان يتعلمون القرآن، والفتيات يتعلمن الشعر والغناء.

وهذا ما حكاه «الأصفهانى» فى كتابه:

كان «خليل المعلم» يؤدب الصبيان، ويعلم الجوارى الغناء، وذلك فى موضع واحد ... فحدثنى من حضره، قال: «كنت يوما عنده وهو يستمع إلى صبى يقرأ بين يديه: «ومن الناس من يشترى لهو الحديث ليضل عن سبيل الله بغير علم». ثم يلتفت إلى صبية فيردد على سمعها قول الشاعر:

اعتاد هذا القلـــب بلبـــاله   أن قربـــت للبـــين أحمالـــه



قال المتحدث: «فضحكت ضحكا مفرطا لما سمعت، فالتفت «خليل المعلم» إلى وقال: «ويلك. مالك»؟ فقلت: «ضحكى مما تفعل. انظر أى شىء أسمعك الصبى من القرآن، وأى شىء أسمعت أنت الصبية من الشعر. والله إنى لأظنك ممن يشترى لهو الحديث ليضل عن سبيل الله».

فقال«أرجو ألا أكون كذلك بإذن الله!».

كيف نكتب ؟

عبقرية «الجاحظ» كانت فى أنه يتفطن إلى الدقائق من أحوال النفس وإلى الخفايا من الحياة الاجتماعية، فتراه يحاول تعليلها، ولا تخلو محاولته من روعة وطرافة، وان فاتتها إصابة الهدف.

لاحظ «الجاحظ» أن الكاتب ربما تناول قلمه وليس فى رأسه شىء يمليه، ثم لا يلبث أن يتدفق عليه القول من حيث لا يحتسب، فعلل ذلك تعليلا يكشف عن ظرف وعن روح مرحة، فهو يقول:

«إن صاحب القلم يعتريه ما يعترى المؤدب عند ضربه وعقابه، فما أكثر من يعزم على خمسة أسواط، فيضرب مائة، لأنه ابتدأ الضرب وهو ساكن الطباع، فأراه السكون أن الصواب فى الاقلال، فلما ضرب، تحرك دمه، فأشاع فيه الحرارة، فزاد فى غضبه، فأراه الغضب أن الرأى فى الاكثار ... وكذلك صاحب القلم، فما أكثر من يبتدىء الكتابة، وهو يريد مقدار سطرين، فيكتب عشرة ...».

زوج وفرد!

ما معنى كلمة «زوج»؟ هل تدل على واحد أو على اثنين؟ نحن نقول: «هذا زوج



فلانة» فنعنى به شخصا واحدا، ونقول: «اشترينا زوجا من الدجاج» ونعنى بذلك أننا اشترينا دجاجتين اثنتين.

جمهور اللغويين فى تحقيقاتهم مصرون على أن «الزوج» يحمل معنى الواحد، ولكنه مشروط بأن يكون له قرين. فالزوج اذن واحد، والزوجان كل شيئين مقترنين، سواء أكانا متشاكلين أم متناقضين، كالذكر والأنثى، والليل والنهار ... ولذلك يجب أن تقول: اصطدت زوجين من الحمام، تريد حمامتين اثنتين، واشتريت زوجين من النعال، تريد نعلين للقدمين اليمنى واليسرى.

وعلى هذا التفسير الضيق جرى أصحاب المعجمات الحديثة، فيسروا السبيل إلى تخطئة الاستعمال العصرى الذى يدور اليوم على الألسنة والأقلام!

ولكن غير واحد من اللغويين الأقدمين ثاروا على هذا التضييق، فقالوا: «إن الزوج يستعمل بمعنى الواحد الذى له قرين، كالزوج للرجل أو المرأة إذا تزوجا. وكذلك يستعمل بمعنى التثنية، كزوج الحمام مقصودا به حمامتين، أو زوج النعال مقصودا به نعلين».

ومن الطريف أن اللغويين الأولين يثبتون أن العامة فى تلك العصور المتقدمة أولعوا باستعمال الزوج فى معنى الاثنين، وإن لم يكن ذلك من مذاهب العرب .. فالاستعمال العصرى إذن يستمد وجوده من أعراق قديمة فى الاستعمالات العامة، وقد كان من قديم مجالا للبحث والتعقيب، تأييدا لما تجرى به ألسن الناس.

وأما كلمة «الفرد» فمن معانيها أنها نصف للزوج المقصود به اثنين. وهى تشيع فى الاستعمال العصرى، فيقال: «فرد رز، وفردة حلق، وفردة حذاء» .. وليس شىء من هذا يجانب الصواب، فقد استعمل «الفرد» فى نصف كل ما هو زوجى من أعضاء الانسان ومن مختلف الأشياء.

جاء فى «المنتظم» للإمام «ابن الجوزى»: «يلبس الخف فردا أسود وفردا أحمر»، وجاء فى «تاريخ بغداد»: «وكان بفرد رجل» أى بقدم واحدة وجاء فيه:



«وأخذت فرد باب من أبواب بيته» أى مصراع باب. وجاء فى «المستطرف»: «أعجلت عن لبس خفها فلبست احدى فردتيه».

«أبو نواس» فى الحبس ...

جاهر الشاعر «أبو نواس» بشرب الخمر والمجون، وأفرط فى التبذل، فأمر الخليفة «الأمين» بأن يزج به فى محبس الزنادقة.

وكان صاحب السجن يدخل إلى المحبوسين ويتعهدهم ويسائلهم فى شئونهم، فلما دخل على «أبى نواس» جرى بينهما هذا الحوار:

- أزنديق أنت أيها المسجون؟
- معاذ الله أن أكون زنديقا ...
- أممن يعبدون الكبش أنت؟
- بل آكله بصوفه!
- أممن يعبدون الشمس أنت؟
- انى أبغض الجلوس فيها، فكيف أعبدها؟
- أتكون ممن يعبدون الديك؟
- لقد نقرنى ديك مرة فحلفت ألا أجد ديكا إلا ذبحته!
- فى أى شىء حبسوك إذن؟
- لأنى أشرب شراب أهل الجنة، وأصف نعمة الله على عباده.
- هذا لا يستاهل أن تحبس!

وخرج صاحب السجن يقول لنفسه: «والله لا أسكت على محبوس بغير ذنب». وأبلغ القصة إلى الخليفة، فضحك الخليفة من غفلة صاحب السجن، اذ جازت عليه



حيلة الشاعر فى الكناية عن الخمر بأنها شراب أهل الأبرار فى العالم الآخر، وأمر بتخلية سبيل «أبى نواس» اعجابا بلباقته فى التخلص ...

«تحليل» الخمر...

عرفنا «اياسا» مضرب المثل فى الذكاء وقوة الحجة وحضور البديهة، ويحكى له أن رجلا دخل عليه فناقشه على هذا النحو:

- هل ترى على من بأس إن أكلت تمرا؟
- لا بأس عليك أن أكلت منه ما طاب لك.
- هل ترى على من بأس أن أكلت معه بعض العشب وما تخرج الأرض من نبات؟
- لا يمنع من ذلك مانع ...
- فإن شربت عليهما ماء؟
- جائز
- ما دام هذا كله جائزا مباحا فلماذا تحرمون علينا أن نسكر، وإنما الخمر ما ذكرت لك: تمر وعشب وماء، فليس فى «تحليلها» إلا هذه الأشياء؟!

ولم يلبث «اياس» أن حاور الرجل على نحو حواره، فقال له:

- لو صببت عليك ماء، هل كان يضرك؟
- لا يضرنى منه شىء.
- لو نثرت عليك ترابا، هل كان يشج رأسك، أو يصيب منك مقتلا؟
- لا يقتل التراب أحدا ..
- فإن أخذت الماء والتراب فخلطهما وعجنتهما، وجعلت من ذلك لبنة عظيمة، فقذفتك بها، هل كان يضرك؟



- كنت تقتلني!
- هكذا شأن الخمر ... ولهذا كانت حراما!

عمود السلطان !

كان للخليفة «المعتضد» تابع أثير عنده، وكان هذا التابع عبدا رقيقا، ويوما وقف أمام القاضي «أبي يوسف بن يعقوب» في خصومة بينه وبين أحد الناس، فارتفع التابع على خصمه في المجلس، ادلالا بمكانته من الخليفة، فزجره الحاجب عن ذلك فلم يقبل، فأمره القاضي أن يقف مساويا لخصمه فلم يذعن، فقال له:

- إني سأدعو أحد النخاسين، وانه إن قدم على الساعة أمرت بيعك، وحملت ثمنك إلى مولاك أمير المؤمنين ...

فلم يجد التابع بدا من الطاعة والاذغان، ووقف بمساواة خصمه، فلما انقضى الحكم، رجع إلى سيده الخليفة يشكو إليه، ويبكي بين يديه، فقال له «المعتضد»:

- لقد توعدك القاضي بأن يعرضك للبيع، ولو أنه انجز بيعك لأجزت ما صنع، ولم أعمل على استردادك ممن اشتراك. فليست عندي منزلة تزن رتبة المساواة بين الخصمين في الحكم ... إن المساواة قوام الدين وعمود السلطان!

قدسية الحضانة

استقر الرأي على أن البيئة المنزلية ضرورية لتنشئة الطفل، ولتربية روحه وتهذيب مشاعره وامتدادها بالمقومات الانسانية الرشيدة، حتى أن الحكومات المتحضرة تتجه الآن إلى أن تجعل الأطفال الذين لا عائل لهم، في كفالة أسر بديلة من



أسرهم التى فقدوها، بعد أن كان هؤلاء الأطفــال يوضعــون فى الملاجـىء وفى دور الكفالة.

وهذا الاتجاه الحديث فى تربية الطفولة، وتقدير أثر الحضانة، كان موضع التفات القضاء الإسلامى فى مواضى العصور. وهناك قاضيان من أعلام القضاة فى صدر الإسلام، أحدهما يسمى «ابن شبرمة» والآخر يسمى «ابن أبى ليلى» كانا يريان أن هذا الرجل لا يجوز تعجيل قتله، وإنما يستأنى به، حتى يبلغ الولد الصغير سن الحلم، وينال قسطه من كفالة أبيه، وحضانته إياه، ثم يجرى على الرجل حكم القتل المؤجل .. وليس أقوى من ذلك فى التدليل على تقديس الحضانة، والاعتراف بأثر الكفالة الأبوية فى إعداد النشء الإعداد السليم.

حاجتنا إلى الشر...

من النظرات السديدة أن الشر فى هذه الحياة جزء من كيانها الذى تقوم به، وهو ضرورى للمجتمع لازم له لزوم الخير ...

وقد عبر عن هذا المعنى أمير الأدب العربى «الجاحظ» فى فقرات بليغة يقول فيها: «اعلم أن المصلحة فى أمر ابتداء الدنيا إلى انقضاء مدتها هى امتزاج الخير بالشر، والضار بالنافع، والمكروه بالسار، والضعة بالرفعة، والكثرة بالقلة .. ولو كان الشر صرفا هلك الخلق، ولو كان الخير محضا سقطت الخبرة، وتقطعت أسباب الفكرة، ومتى ذهب التخيير، ذهب التمييز، ولم يكن دفع مضرة، ولا اجتلاب منفعة، ولا صبر على مكروه، ولا شكر على محبوب، وبطلت فرحة الظفر، وعزت الغلبة. ولم يكن على ظهر الأرض محق يجد عز الحق، ومبطل يجد ذلة الباطل وموقن يجد برد اليقين، ومتشكك يجد كرب الحيرة، ولم تكن للنفوس آمال، ولم



تتشعب الاطماع. ومن لم يعرف الطمع لم يعرف اليأس، ومن جهل اليأس جهل الأمن، وعادت الحال بالانسان إلى حال السبع والبهيمة. ومن هذا الذى يسره أن يكون الشمس والقمر والنار والثلج أو برجا من البروج أو قطعة من الغيم أو مكيالاً من الماء أو مقدارا من الهواء؟ وكل شىء فى العالم فإنما هو للانسان، وهو يختبر كل شىء ويختار. وأين تقع لذة البهيمة بالعلوفة ولذة السبع بأكل اللحم من سرور الظفر ومن انفتاح باب العلم؟ وأين لذة درك الحواس من السرور بنفاذ الأمر والنهى والأخذ والترك؟ ولو استوت الأمور بطل التمييز، وإذا لم تكن كلفة لم تكن مثوبة!...».

أطول قصيدة ...

يدعو بعض النقاد إلى أن يترك الشعراء التزام القافية الواحدة للقصيدة ويرون فى هذا الالتزام ما يضيق به الشعر وقائلوه.

وقد ظلت وحدة القافية أظهر خصائص القصيدة فى مختلف العصور العربية، حتى أن الشعراء كانوا يتنافسون فى تطويل القصائد، إدلالا بالقدرة على الإطالة... ولعل أطول قصيدة عربية يذكرها تاريخ الشعر العربى هى القصيدة التى نظمها الشاعر المعروف «بابن شرشير الناشىء»، وكان هذا الشاعر ممن نزلوا بمصر، وأقاموا بها فى القرن الثالث الهجرى، وقصيدته أربعة آلاف بيت على روى واحد وقافية واحدة، ومما يذكر لهذا الشاعر أنه كان يقول فى خلاف كل معنى قالت فيه الشعراء، ويرى «المرزبانى» أنه رام أن يحدث لنفسه أقوالا ينقض بها ما جرى عليه أهل المنطق والشعراءوالعروضيون وغيرهم، فلم تلق آراؤه قبولا عند أهل «بغداد»، وكان فيها مقامه، فلجأ إلى «مصر» ولبث بها بقية عمره ... وقصيدته الطولى لم تحفظها لنا الأيام، ولكن «الناجم» ذكرها وذكر أنه أنشده إياها. ومن حديث هذا



الشاعر أنه شهد مجلسا فيه مغنية حسناء جاءوا معها برقيبة تحميها من العيون، فرأى الشاعر أن هذه الرقيبة أروع حسنا وجمالا من المغنية، فقال فيها:

فديتك لو أنهم انصفوك ... لردوا النواظر عن ناظريك!
تردين أعيننا عن سواك ... وهل تنظر العين إلا إليك؟
وهم جعلوك رقيبا علينا ... فمن ذا يكون رقيبا عليك؟

حرية الصمت

فى عهد سالف لإحدى الحكومات، أراد رئيس الحكومة أن يفرض على الصحف نشر ما يمثل سلطاتها، فامتنعت أكثر الصحف عن ذلك كل امتناع، وقالت إحداها فى معرض الدفاع عن موقفها: «إن لرئيس الحكومة أن يحد كما يشاء من حرية الكلام، ولكن ليس له أن يحد من حرية الصمت!»

والتاريخ يسجل لنا من الأحداث ما يدل على أن بعض الحكام كانوا يحدون من حرية الصمت بمقدار الحد من حرية الكلام. ومن أمثلة ذلك ما نكبت به الأمة الإسلامية فى عهد الدولة العباسية، حين ثارت فتنة القول بأن القرآن مخلوق أو غير مخلوق، فقد كان الخليفة يستدعى الفقهاء وأهل الرأى ويأخذ إقرارهم بخلق القرآن، فمن لم يقر كان مصيره السجن والعذاب.

ويذكر الخطيب البغدادى أنه كان بمصر عالم فقيه يسمى «نعيم بن حماد» أشخصه الوالى إلى العراق ليسألوه عن خلق القرآن، فأبى أن يجيب فيه بشىء مما أرادوه عليه، فألقى به فى السجن، وما زال رهين سجنه حتى قضى.

ويذكر المؤرخون شيخاً من أهل «أذنة»، ساقوه إلى الخليفة «الواثق» يرسف فى القيود، لامتناعه عن القول بخلق القرآن، وظل الرجل فى مجلس الخليفة يناظر



وينافح عن رأيه وموقفه حتى أمر «الواثق» بأن تقطع قيود الشيخ ويخلى سبيله، ولكن الشيخ لم يدع قيوده، بل أخذها ووضعها فى كمه، وقال:

- سأرغب إلى من يحضر وصيتى حين أموت فى أن يجعل هذه القيود بينى وبين كفنى، حتى أخاصم بها يوم القيامة من ظلمنى، فأقول: «يا رب، سل عبدك لم قيدنى وروع أهلى وولدى بغير ذنب جنيت؟!».

علامة الانصراف



الجالسون إلى الرؤساء وذوى المكانة يأنسون بمجلسهم ويحبون أن يطول، ولكنهم يخشون أن يكون فى جلوسهم اثقال، فيلتمسون فرصة استئذان، ولعلهم يخشون كذلك أن يكون الاستئذان مشعرا بمللهم من المجلس، فهم فى حيرة لا يدرون هل يقيمون أو ينصرفون؟

وقد فطن الى ذلك الملوك والأمراء من أهل العصور الغوابر، فكانوا يجعلون لمجالسهم أمارات ينتهى بها أمد الزيارة وينصرف عنهم الزوار.

فمن الفرس «كسرى أنوشروان» كان يمد رجله، فيعلم ندماؤه أنه يريد قيامهم فيمضون عنه.

ومنهم «فيروز» كان يدلك عينيه، ومنهم «بهرام» كان يرفع رأسه إلى السماء.

وفى الدول الإسلامية كان «معاوية» يقول: «العزة لله!».

و«عبد الملك بن مروان» كان يلقى بالقلم من يده.

وفى مجالس القضاء، كان القاضى يغلق الدواة، إيذانا بانتهاء مجلس الفصل بين المتخاصمين.

وقد أراد بعض الظرفاء أن يداعب أحد المشهورين بالبخل، فقال له: إن لكل رئيس علامة ينصرف بها جليسه عنه، فما علامتك التى تصرف بها جليسك؟

فأجاب البخيل العظيم: «علامتى أن أنادى: يا غلام، هات الطعام!».

دفاع عن النفس

ضاق «الرشيد» بما كان من مجون «أبى نواس» فأوعده بأن يقتله، فعجل إليه يدافع عن نفسه، وجرى بينهما هذا التحاور:

أبو نواس: اتريد أن تقتلنى شهوة لقتلى، أم تريد ذلك عن استحقاق؟

الرشيد: أريده استحقاقا.

أبو نواس: إن الله يحاسب، ثم يعاقب، فحاسبنى، بم استحققت القتل.

الرشيد: بقولك:

ألا فاسقنى خمرا وقل لى هى الخمر ولا تسقنى سرا إذاأمكن الجهر.

أبو نواس: لقد قلت هذا لأحد أعوانى، فهل أعلمك أنه استجاب لى وسقانى، وأنى شربت حقا؟

الرشيد: أظن ذلك.

أبو نواس: اتقتلنى على الظن، وبعض الظن إثم، وهل ترضى أن تزهق الروح لظن غير يقين؟

الرشيد: ألست القاتل:

ما جاءنا أحد ليخبـــر أنه في جنة منذ مـات أو فى نـار

أبو نواس: وهل جاءنا أحد من الموتى؟ هل يبعث إلى الدنيا من ضمتهم القبور؟ أتقتلنى على أنى قلت حقا؟ ألا تأنف أن تعاقب الصادقين بصدقهم فيما يقولون؟

الرشيد: ألست القاتل:

يا أحمد المرتجى فى كل نائبة قم سيدى نعص جبار السموات



أبو نواس: هل تستطيع أن تحكم بأن القول قد صار فعلا؟

الرشيد: لا أعلم .

أبو نواس: أتقتلنى على ما لا تعلم؟

الرشيد: دع هذا كله يا «أبا نواس» ... لقد اعترفت فى مواضع من شعرك بمنكرات توجب قتلك.

أبو نواس: لقد علم الله من قبلك ما علمت، فأخبر عن مثلى بأنه يقول مالا يفعل وذلك فى قرآنه: «والشعراء يتبعهم الغاوون، ألم تر انهم فى كل واد يهيمون، وأنهم يقولون مالا يفعلون» ..

هنا قال «الرشيد» لمن حوله من حراسه: «إخلواسبيل أبى نواس».

قمر صناعى ... قديم !

هجم الروس على قبة الفلك، فى عهدنا الحاضر، بقمر صناعى، كان حديثه ملء الدنيا وشغل الناس.

ولا جديد تحت الشمس، حتى صناعة القمر ...

يذكر التاريخ، فى غوابر القرون، نبأ رجل كان صاحب قمر مصنوع، بيد أن البون شاسع بين قمر الأمس وقمر اليوم، هذا جد وذاك هزل، هذا علم وذلك دجل، هذا حق وذاك خدعة ...

ولكنه على أية حال دليل على أن الخيال الإنسانى والوهم البشرى، هفا ذات يوم - فى سوالف الأيام - إلى أن يكون له قمر مصنوع ينافس قمر السماء، فتحقق له ذلك فى الماضى بالايهام والتضليل، ثم تحقق له فى الحاضر بسلاح العلم الحديث.

القمر الصناعى القديم كان فى منتصف القرن الثانى للهجرة، أعنى منذ اثنى



عشر قرنا وبعض سنين!

وكان الناس يرونه من مسيرة شهرين من مكانه، أو شهر فيما يقال...!

أما مكانه فقلعة تقوم فى «خراسان» أو «ما وراء النهر» ...

وأما صاحبه فرجل من أهل «مرو»، اسمه «بدر» بدأ أمره مشتغلا بصناعة الثياب، ثم تعلم شيئا من السحر، وكان مشوها لا يسفر عن وجهه، فاتخذ له وجها من ذهب يتقنع به، ولذلك قيل له: «المقنع».

ادعى هذا الرجل الألوهية بطريق التناسخ، وقال لمن حوله: «ان الله سبحانه تحول إلى صورة آدم، ولذلك قال للملائكة اسجدوا له، ثم تحول من آدم إلى صورة نوح، ثم إلى صور الأنبياء والحكماء واحدا بعد واحد» ومضى الرجل يقنع قومه بأن المناسخة انتهت إلى أن صار الله متمثلا فى شخص «بدر المقنع»!

ودعم الرجل دعواه بآيات من التمويهات السحرية، كان على رأسها صورة قمر يظهر للناس فى الجو احتيالا، وهو يبدو حينا ويغيب حينا آخر وقد فتن خلق كثير بدعوة ذلك الرجل، وغلبوا على عقولهم بتمويهه، فاتبعوه، ثم ما لبثوا أن كشفوا أمره، وعرفوا من سر قمره الصناعى أنه انعكاس للقمر الطبيعى باستخدام شعاع الزئبق.

حاصر الناس هذا الاله الزائف فى قلعته، وائتمروا به ليقتلوه، فلما أيقن بالهلاك، جمع نساءه اليه، وسقاهن سما قضى عليهن فى لحظات ثم تناول شربة من ذلك السم، فمات!

وقد ذكر «المعرى» فى شعره، فقال:

أفق إنما البدر المقنع رأسه

ضـــلال وغـــى مثـــل «بدر» المقنـــع

وكـــذلك ذكـــره فى نثـــره، إذ قـــال:



«ولو اتبع حقا مقروبا، لكفى سما مشروبا، ولكن الغرائز أعاد، ولابد من لقاء الميعاد ...».

هل المرأة «عضوة» مجلس؟

كتب عضو فى «مجلس الأمة» المصرى يقول: إن لفظ «العضو» لا يؤنث، وأنه بحث - مستعينا بغيره - عن مسوغ فى اللغة لاستعمال لفظ «عضوة» بالتأنيث، فلم يجد من دليل ... واستطرد من ذلك على سبيل الدعابة إلى أن العضوية مقصورة على الذكور دون الإناث، وأن هذه الحجة لغوية لمن ينكر على المرأة أن تشترك فى المجالس النيابية!

حقا إن «العضو» لم تلحق به علامة التأنيث وهو على صورته تلك، ولكنه يطلق على الذكر وعلى الأنثى أيضا، ويوصف به الذكر والأنثى جميعا، وإن ظل على صيغة التذكير وحدها. فمثلا تقول: الرأس عضو، وهو مذكر، وتقول: اليد عضو، وهى مؤنثة. ولا يستطيع أحد أن ينكر عضوية «اليد» لأنها مؤنثة غير مذكرة. وطوعا لهذا يقال: الرجل عضو مجلس الأمة، والمرأة عضو مجلس الأمة، وهما سيان.

ويبدو أن العرب حين قالوا: «عضو» للمذكر، استعملوا للمؤنث لفظ «العضة» - على وزن هبة وثقة - وفى كلام الله: «جعلوا القرآن عضين» أى جزأوه أجزاء، أو تفرقوا فيه، فآمنوا ببعضه وكفروا ببعض، وكل قطعة: عضة، أى عضو، ولنا بهذا أن نقول: هى عضة المجلس، أى عضو فيه، إن لم يكن ذلك مستثقلا.

وإذا كان العرب لم يستعملوا لفظ «العضوة» مفردة، فقد استعملوها جمعا ... وذلك أن «العضة» أصلها الصرفى عضوة، عند بعض اللغويين، واستدلوا بظهور


الواو عند الجمع، ومنه قول الشاعر:

هــذا طريــق يــأزم المآزمــا

وعضــوات تقطــع اللهازمــا

وقال اللغويون كذلك: «إن النسبة إلى «عضة» - بمعنى العضو المؤنث - عضوى، وقالوا: لك فى جمع «عضة» أن تقول: عضون، وعضوات. وهناك لفظ يماثل لفظ العضو وزنا ومعنى، وهو: شلو، وقد جاء فى حديث الرسول: «تقلدها شلوة من جهنم»، واذن فقد ألحق بلفظ «شلو» علامة التأنيث، وهو نظير لفظ العضو وزنا ورديفه معنى، ولنا أن نستأنس بذلك فى الحاق علامة التأنيث بلفظ عضو من باب التنظير والتسوية بين المتماثلين.

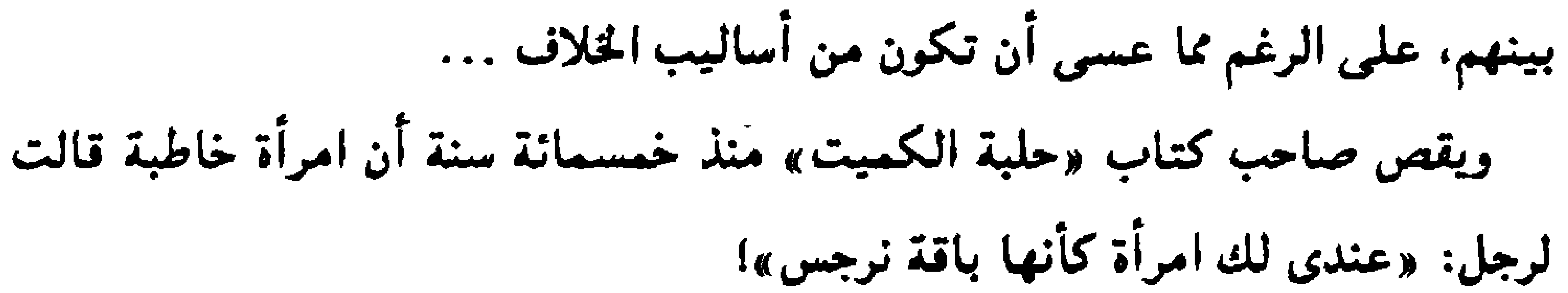
ونستخلص من هذا أن لفظ «العضو» يوصف به المؤنث كما يوصف به المذكر، دون افتقار إلى الحاق علامة التأنيث، فتقول: هذا عضو المجلس، وهذه عضو المجلس.

ويمكن أن نلحق علامة التأنيث بلفظ عضو، فنقول: عضوة، استنادا إلى أن ذلك هو الأصل الصرفى لكلمة «عضة» التى هى تأنيث عضو، بدليل قول العرب فى جمعها: «عضوات» وفى النسبة إليها: عضوى.

بقى شىء ... هو أن «العضو» اسم لكل عظم وافر من الجسم بلحمة، فعضو مجلس الأمة، أو غير مجلس الأمة، سواء أكان مذكرا أم مؤنثا، ليس «عضوا» على سبيل الحقيقة، بل على سبيل المجاز!

باقة نرجس!

النساء «الخاطبات» لهن أساليبهن فى الاحتيال على الأزواج والزوجات للجمع



بينهم، على الرغم مما عسى أن تكون من أساليب الخلاف ...

ويقص صاحب كتاب «حلبة الكميت» منذ خمسمائة سنة أن امرأة خاطبة قالت لرجل: «عندى لك امرأة كأنها باقة نرجس»!

فمالت نفس الرجل إليها، وسألها أن تخطبها له، ففعلت ... ولم يكن من شأن الرجال فى ذلك العهد أن يروا زوجاتهم قبل يوم الزفاف، وإنما يكتفون بالأوصاف ومشاهدة الوسيطات من النساء، فلما زفت «باقة النرجس» إلى ذلك الرجل، وكشفت عن قناعها، وجدها عجوزا، صفراء الوجه، بيضاء الرأس، دقيقة الرجلين من الهزال، مخضرة الساقين لما عليهما من شعر ... فلم يقربها، وعاد إلى الخاطبة يقول: «لقد كذبتنى» ... فقالت: «ما كذبتك، ولكنك رجل أبله، وصفتها لك بأنها باقة نرجس، ألم تر باقة النرجس قط؟ وهل تكون إلا كما رأيت؟»

يعيبون القمر

ما أكثر ما قيل فى القمر مدحا، ولكنه وجد مع ذلك من يعيبونه، وقد رأى أعرابى رجلا يرقب القمر، فقال له: وما ترقب فيه، وإنه لذو عيوب يشحب اللون، ويبلى الثوب، وينم على العاشق، ويدل السارق!

وقلوا: إن الإنسان إذانام فى ضوئه حدث فى بدنه نوع من الاسترخاء والكسل، وإذا وضع اللحم مكشوفا فى ضوئه تغير طعمه ورائحته ...

وقد استخدم أحد الشعراء فكرة ابلاء القمر للثياب، فقال يصف محبوبه وقد رآه فى قميصه البالى:

لا تعجبوا من بلى غلالته ... قد زر أزراره على القمر

وقد تصنع «ابن الرومى» هجاء القمر، فقال: إن فى وجهه كلفا يحكى النمش





فى وجنة برصاء، وإنه يعتريه النقصان حتى يصبح مثل قلامة الظفر، وأنه يدركه المحاق حتى يمحى من أديم السماء، ثم قال إنه إذا كان القمر يمكن أن ينال بالهجاء فليحذر الفضلاء ألسن الشعراء! ... وقد افتتح «ابن الرومى» أبياته فى هذا المعنى بقوله:

رب عرض منزه عن قبيح ... دنسته معرضات الهجاء

وختمها بقوله:

لا لأجل المديح بل خيفة الهجو ... اخذنا جوائز الخلفاء!

لغز فى القمر!

كانت الألغاز منذ العصور القديمة فنا من فنون الشعراء، يلتمسون به التفكهة وشحذ الفطنة. وقد ألغز فى القمر شاعر يسمى «إبراهيم المرادى»، فقال من قصيدة رواها له «النويرى»:

شيخ رأى آدم فى عصره ... وهو إلى الآن بخد نقى
فتارة ينزل تحت الثرى ... وتارة وسط السما يرتقى
وتارة يوجد فى مغرب ... وتارة يوجد فى المشرق
وتارة تحسبه سابحا ... يسرى بشط البحر كالزورق
وتارة تحسبه وهو فى ... أستاره والبعض منه بقى
هذا ويمشى الأرض فى ليلة ... أعجب به من موثق مطلق

لكى لا يتصدع البناء

تعددت حوادث اختلال المنازل أو سقوطها فى الفترة الأخيرة فى مدينة



«القاهرة»، وكان أفجع هذه الحوادث سقوط دار كبيرة على مقربة من شاطىء النيل، وقد اختلف المهندسون فى التعليل وبيان الأسباب، ومما قيل فى هذا الصدد أن هبوط منسوب النيل بعد موسم الفيضان هو العلة فيما كان من تزعزع البنيان، إذ هبطت الدعائم والأسس، فتصدعت الجدران ...

وقد أذكرنى ذلك الذى قيل بما كان من شأن المسجد التاريخى الكبير، مسجد «دمشق»، حين أراد «الوليد بن عبد الملك»، أن يبنيه منذ ثلاثة عشر قرنا، فإنه لما أراد بناء قبته، حفر لأركانها حتى وصل إلى الماء، وشرب منه ماء عذباً زلالا، ثم بنى بالحجارة، فلما ارتفعت الأركان، عقد عليها القبة، ولكنها ما لبثت أن سقطت. فاختار «الوليد» مهندسا طلب إليه أن يبنى القبة بناء محكما. فقال المهندس: «لى عليك شرط، وهو أن تعطينى عهد الله وميثاقه الا يشركنى فى بناء القبة أحد غيرى، وألا تعارضنى فيما أروم». فأعطاه «الوليد» عهدا وميثاقا، وقام المهندس ببناء الأركان، ثم سترها بالحصير، وأمر بوقف البناء.

ولبث «الوليد» سنة كاملة ينتظر اتمام القبة، والمهندس غائب لا يدرى أحد أين ذهب، وحضر المهندس بعد تمام السنة، فسأله «الوليد»: «لماذا عطلت البناء؟» فأجاب: «لأمر خفى على أمير المؤمنين وعلى البنائين، ولك أن تحضر معى حتى تقف على جلية الأمر... ».

وذهب «الوليد» لرؤية البناء، وجعل المهندس يكشف الحصير عن الأركان: فاذا هى قد هبطت بعد ارتفاعها، حتى ساوت الأرض ... فأعجب «الوليد» بحذق المهندس، وترك له بناء القبة وعقدها على الهيئة التى ظلت عليها قرونا بعد قرون...

وهكذا فطن المهندس - فى القرن الأول للهجرة - إلى أن الأركان لابد أن تنخفض، طوعا لحركة الماء تحت الأرض، فانتظر بها سنة حتى تستقر على وضع، دون أن يثقل عليها ببناء يتصدع إذا تحركت الأسس تحته.



بـــح !

من الكلمات الحكيمة للعالم اللغوى «الحجاج البلوى» قوله: «يكاد لا تتكلم العامة بشيء إلا وله أصل ومعنى، علمه من علمه، وجهله من جهله ...» وبعض الباحثين فى أصول الكلمات العامية يسارعون إلى التطويح به فى مرام بعيدة .. مجهولة، على حين أنها كانت وثيقة الصلة بالمادة العربية الفصحى، وإن كانت غير مشهورة ...

وفى العامية المصرية كلمة «بح» ينطق بها الطفل فى بواكير عمره، تلقينا من أبويه، الدالة على النفاد، فإذا قيل له: هل بقى معك حلوى أجاب: بح ... أى ليس معى منها شيء.

هذه اللفظة عربية الأصل، فهى مقتطعة من كلمة «بحباح» المبنية على الكسر، للدلالة على نفاد الشيء وفنائه، ولعل السر فى اقتطاعها أنها مركبة على مقطعين متشابهين، كأن حروفهما مكررة، فطاب للطفل أن يقتصر على مقطع منهما، ايثاراً للسهولة، ولذلك قال «بح» والأصل «بحباح» ...

وفى كتب اللغة أن «اللحيانى» قال: «زعم الكسائى أنه سمع رجلا من «بنى عامر» يقول: إذا قيل لنا: أبقى عندكم شيء؟ قلنا: بحباح! أى لم يبق».

وليس بعد هذا شك فى عروبة الأصل الذى اقتطعت منه لفظــة: بــح...

ينهى عن تعدد الزوجات

فى يوم شات، بارد الريح، بعث «المعز لدين الله» - وهو يومئذ خليفة فى شمال



أفريقية لم يتم له دخول «مصر» بعد - إلى جمع من كبراء قومه، وأمر بإدخالهم إليه، فإذا هو فى مجلس مفروش باللبود، وحوله كساء، وعليه جبة، ودونه أبواب مفتحة تفضى إلى خزائن كتب، وبين يديه منضدة ودواة وأوراق، فقال لمن حضر:

«يا اخواتى، أصبحت اليوم فى هذا الشتاء والبرد، فقلت: أترى اخواننا يظنون أننا فى مثل هذا اليوم، نأكل ونشرب ونتقلب فى الديباج والحرير، والخمر والغناء، كما يفعل أرباب الدنيا ... ثم رأيت أن أنفذ اليكم فأحضركم لتشهدوا حالى إذاخلوت دونكم، واحتجبت عنكم. فافعلوا فى خلواتكم مثل ما أفعل، ولا تظهروا الكبر والتجبر، وتحننوا على من وراءكم ممن لا يصل الىّ، كتحننى عليكم، وليتصل فى الناس الجميل، ويكثر الخير، وينتشر العدل. والزموا الزوجة الواحدة التى تكون لكم، ولا تشرهوا إلى التكثير منهن، فيتنغص عيشكم، وتعود المضرة عليكم، فحسب الرجل الواحد الزوجة الواحدة، ونحن محتاجون إلى نصرتكم بأبدانكم وعقولكم».

الانتساب إلى العلم

منذأسابيع كان الانتساب إلى «الجامعة» مشكلة بين مجلس الأمة ووزارة التربية والتعليم.

والقائلون بتحديد نطاق الجامعيين يستندون - فيما يستندون - إلى أن رسالة الجامعة رسالة توجيه ذهنى وصقل روحى واكساب لطابع البيئة الجامعية ومنهجها، قبل أن تكون درسا لموضوعات وتحصيلا لمعلومات فى الكتب والأوراق، ونظام الانتساب لا يكفل تحقيق رسالة الجامعة على هذا النحو.

وقد كانت مصر فى زمن الدولة الفاطمية مسرحا لخصومة عنيفة بين عالمين



جليلين فى شأن التعليم: أيكون من المعلم أم من الكتاب؟ وسبب هذه الخصومة أن الطبيب المصرى «أبو رضوان» ألف كتابا يتضمن أن تحصيل صناعة العلم من الكتب أوفق من المعلمين، فرد عليه الطبيب العراقى الوافد على مصر «ابن بطلان» مثبتا أن التعلم من الرجال أفضل من التعلم من الصحف، واحتج لذلك بأدلة تربوية وفلسفية نستخلصها فيما يلى:

أولا: أن الكتاب جماد، والمتعلم ناطق، والجماد غير مناسب للناطق، ولذلك يطيل الكتاب طريق الفهم ويصعبه، وأما المشابهة بين الناطق المعلم والناطق المتعلم فهى تقرب طريق الفهم وتسهله.

ثانيا: أن اللفظ المنطوق به أسرع إلى العقل وأعمق فيه من اللفظ المكتوب، لأن الألفاظ تصويت، والحاسة المناسبة لها هى السمع، وأما البصر فهو عن الألفاظ غريب.

ثالثا: أن الألفاظ حين يفيض المعلم فى النطق بها تكون أقرب إلى ما يريده العقل ويصوغه الفكر، وأما المثبت فى الكتب فهو يبعد عن ذلك بمقدار كبير أو غير كبير.

رابعا: أن المعلم طبع وأصل، والكتاب صورة وفرع، ولا شك أن الأصل والطبع خير من الفرع والصورة.

خامسا: إن المتعلم قد يستبهم عليه لفظ، فينقله المعلم إلى لفظ آخر، وأما الكتاب فألفاظه واقفة لا تنتقل، ولذلك يكون الفهم من المعلم أصح.

تلك خلاصة الأدلة الطريفة التى رد بها «ابن بطلان» على «ابن رضوان» ويذكر التاريخ أن «ابن رضوان» - ذلك الذى ينتصر لقضية التعلم من الكتب - لم يكن له فى نشأته معلم ينتسب إليه، ولكنه خرج نفسه بنفسه، حتى صار رئيس الأطباء فى عصره.



سكرتيرة لرئيس الدولة

يخطىء من يحسب أن المرأة لم يكن لها عمل فى عصور الدول الاسلامية، ولعلها كانت تعمل فى الخفاء أكثر مما كانت تعمل على أعين الناس، فقد كان نشاطها من وراء «حجاب».

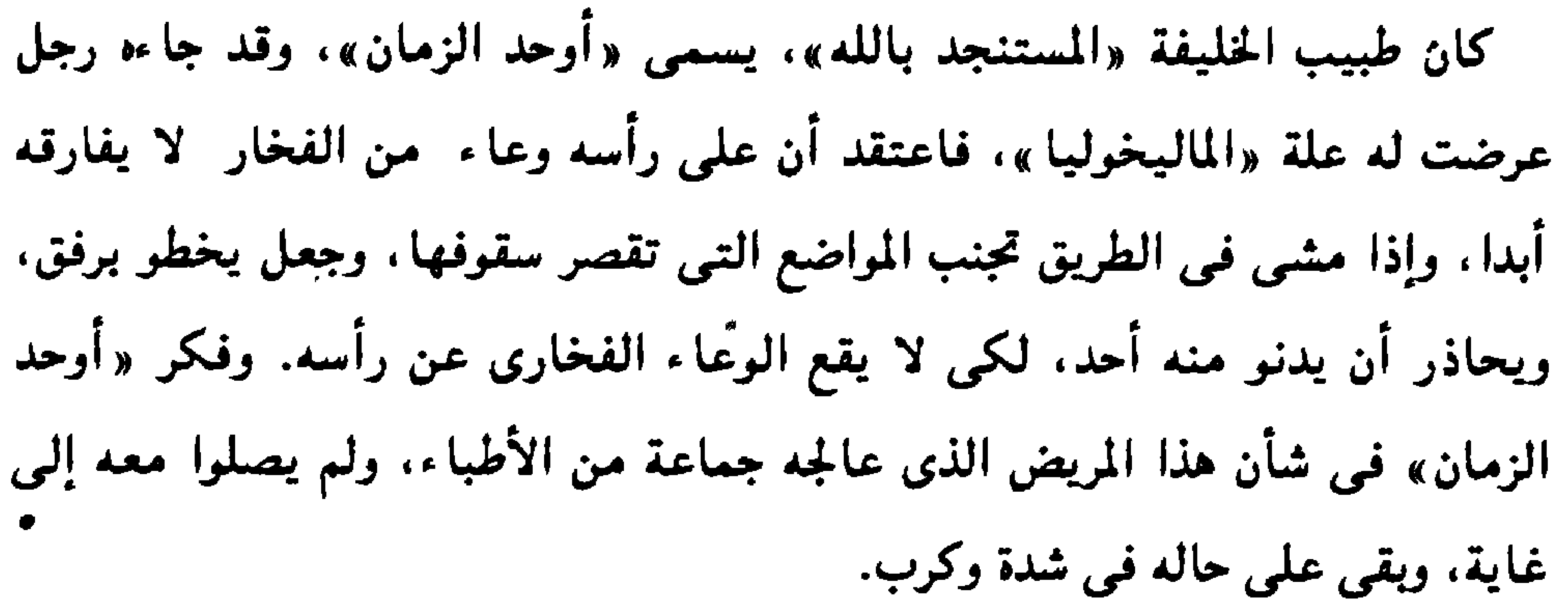
هذه سيدة من أهل بغداد، اسمها «الست نسيم»، اختارها الخليفة «الناصر» فى آخر أيامه «سكرتيرة» له، وذلك أنه ضعف بصره، وأدركه فى أكثر أوقاته سهو، وعرف أن هذه السيدة تكتب خطا قريبا من خطه، فجعلها بين يديه، تكتب الأجوبة، وتدون التوقيعات، فى مختلف شئون الدولة.

بيد أن هذه السيدة اغتنمت الفرصة، وطمعت فى المكاسب، واستعانت برجل من حاشية الخليفة، فكانت تتعمد التوقيع بما يحقق لها الأغراض الشخصية.

وأخيرا فطن وزير الخليفة إلى الاختلال والخطأ فى بعض الأجوبة والتوقيعات. فأنكرها وعرف سرها، وبذلك تخلص ديوان الخليفة «الناصر» من سلطان «الست نسيم».

«أوحد الزمان» يعالج الأوهام

يقول الشاعر «أبو نواس»: وداونى بالتى كانت هى الداء. وقد طبق الأطباء ذلك فى علاج بعض الأمراض النفسية، فانتهوا إلى أن الوهم علاجه الوهم، ولا سبيل غيره إلى الشفاء.



كان طبيب الخليفة «المستنجد بالله»، يسمى «أوحد الزمان»، وقد جاءه رجل عرضت له علة «الماليخوليا»، فاعتقد أن على رأسه وعاء من الفخار لا يفارقه أبدا، وإذا مشى فى الطريق تجنب المواضع التى تقصر سقوفها، وجعل يخطو برفق، ويحاذر أن يدنو منه أحد، لكى لا يقع الوعّاء الفخارى عن رأسه. وفكر «أوحد الزمان» فى شأن هذا المريض الذى عالجه جماعة من الأطباء، ولم يصلوا معه إلى غاية، وبقى على حاله فى شدة وكرب.

وكانت حيلة «أوحد الزمان» أنه أمر أحد غلمانه بإحضار خشبة كبيرة، وأمر غلاما آخر بإحضار وعاء فخارى يختفى به فى أعلى السطح.

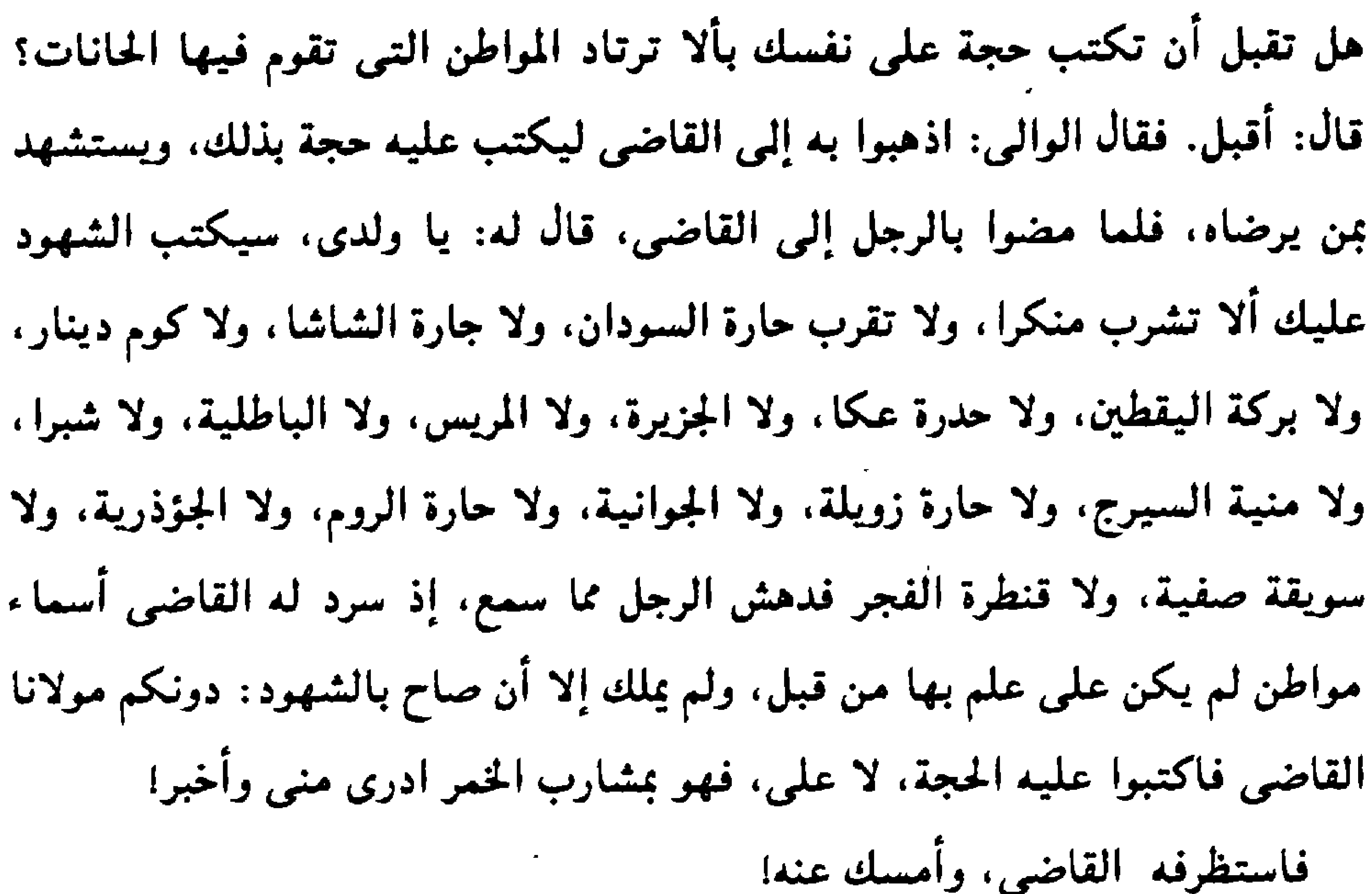
ودخل المريض على الطبيب، فأشار الطبيب إلى الغلام الذى يحمل الخشبة، فأقبل على المريض قائلا له: والله لابد أن أكسر هذا الوعاء الفخارى الذى تحمله على رأسك، واريحك منه. ثم أدار تلك الخشبة فى يده، وضرب بها فوق رأس المريض.

وعند ذلك اسقط الغلام الذى كان فوق السطح وعاءه الفخارى الذى كان يخفيه، فإذا هو ينكسر قطعا كثيرة.

فلما عاين المريض هذا كله، لم يشك فى أن الوعاء الفخارى الذى كان يتوهمه على رأسه هو الذى سقط أمامه وتكسر، فتم بذلك شفاؤه من علة الوهم، بفضل طبيبه الذكى «أوحد الزمان»!

القاضى أخبر!

اتهم أحد المصريين الظرفاء فى العصر المملوكى بأنه يتردد على الحانات، ويستتكر من شرب النبيذ، فعرضوا امره على الوالى، فأراد أن يستتيبه، فقال له:


هل تقبل أن تكتب حجة على نفسك بألا ترتاد المواطن التى تقوم فيها الحانات؟ قال: أقبل. فقال الوالى: اذهبوا به إلى القاضى ليكتب عليه حجة بذلك، ويستشهد بمن يرضاه، فلما مضوا بالرجل إلى القاضى، قال له: يا ولدى، سيكتب الشهود عليك ألا تشرب منكرا، ولا تقرب حارة السودان، ولا جارة الشاشا، ولا كوم دينار، ولا بركة اليقطين، ولا حدرة عكا، ولا الجزيرة، ولا المريس، ولا الباطلية، ولا شبرا، ولا منية السيرج، ولا حارة زويلة، ولا الجوانية، ولا حارة الروم، ولا الجؤذرية، ولا سويقة صفية، ولا قنطرة الفجر فدهش الرجل مما سمع، إذ سرد له القاضى أسماء مواطن لم يكن على علم بها من قبل، ولم يملك إلا أن صاح بالشهود: دونكم مولانا القاضى فاكتبوا عليه الحجة، لا على، فهو بمشارب الخمر ادرى منى وأخبر!

فاستظرفه القاضى، وأمسك عنه!

الطبيب الضرير

شهدت مصر فى الشهر الماضى «اسبوع النور والأمل»، لرعاية المكفوفين، وتمهيد وسائل العون لهم، لكى يكونوا أعضاء عاملين فى الحياة، بما يزاولون فيها من نشاط.

وفى مختلف عصور الأمة العربية كان للمكفوفين شأن مذكور، وكان لهم أثر ظاهر فى الفنون والآداب، تجلت فيه ملكاتهم وكفاياتهم، وتركوا من الكتب العلمية والأدبية ماله اعتبار، بل لقد وضع المؤرخ «الصفدى» كتابا فى تراجم أعلام المكفوفين والابانة عما لهم من مذاهب وعبقريات.

ومن أعجب ما سجله «القفطى» من أخبار الحكماء، أن أطباء «البيمارستان» العضدى ببغداد، كان من بينهم طبيب مكفوف ماهر فى صناعته، وقد تولى فى هذا



«البيمارستان» تدريس الطب لطلابه، وأملى مقالات فى المباحث الطبية. ولم يقتصر الأمر على هذه الناحية العلمية البحتة، وإنما كان ذلك الطبيب المكفوف يعالج المرضى، فيعتمد على تلاميذه فى معرفة سحنات الوجوه، ووصف ما يقتضيه التشخيص من أحوال، ويصل من ذلك إلى تقرير العلاج.

وكان اسم هذا الرجل «على بن ابراهيم» وقد شهد له معاصروه بأنه كان طبيبا فاضلا.

علائم الصباح

تزوج أعرابى أربع نسوة، فأراد اختبار عقولهن، وما يتميزن به من رهافة الحس، ولطف المشاعر، ودقة الملاحظة، فقال للأولى: «اذا دنا الصبح فأيقظينى»، فلما دنا الصبح قالت له: «قم»، فقال: «وما يدريك أن الصبح دنا»؟ فقالت: «غارت صغار النجوم»، وبردت الحلى على جسدى، وتلذذت باستنشاق النسيم». فقال لها: «اصبت، إن فى ذلك لدليلا».

ثم قال للثانية مثل مقالته للأولى، فلما أيقظته سألها عن علائم الصباح، فقالت: «لم تبق نابتة إلا فاحت روائحها، وعينى تطالبنى باغفاءة الفجر». فقال لها: «أصبت، إن فى ذلك لدليلا».

فلما بات عند الثالثة، سألها حين أيقظته عن مثل ذلك، فأجابت: «لم يبق طائر الا غرد، ولا ثوب إلا برد، وقد رقت الظلمة، فصار للعين فى الليل مجال، وما ذلك إلا من دنو الصباح»، فقال لها: «أصبت، إن فى ذلك لدليلا».

فأما الرابعة فإنه لما بات عندها، وسألها كما سأل ضرائرها، قالت له: «ابت نفسى النوم، وطلبنى فمى بالسواك، واحتجت إلى الوضوء»، فقال لها: «انت طالق، فإنك اسمجهن شعورا، وأقبحهن وصفا»!.

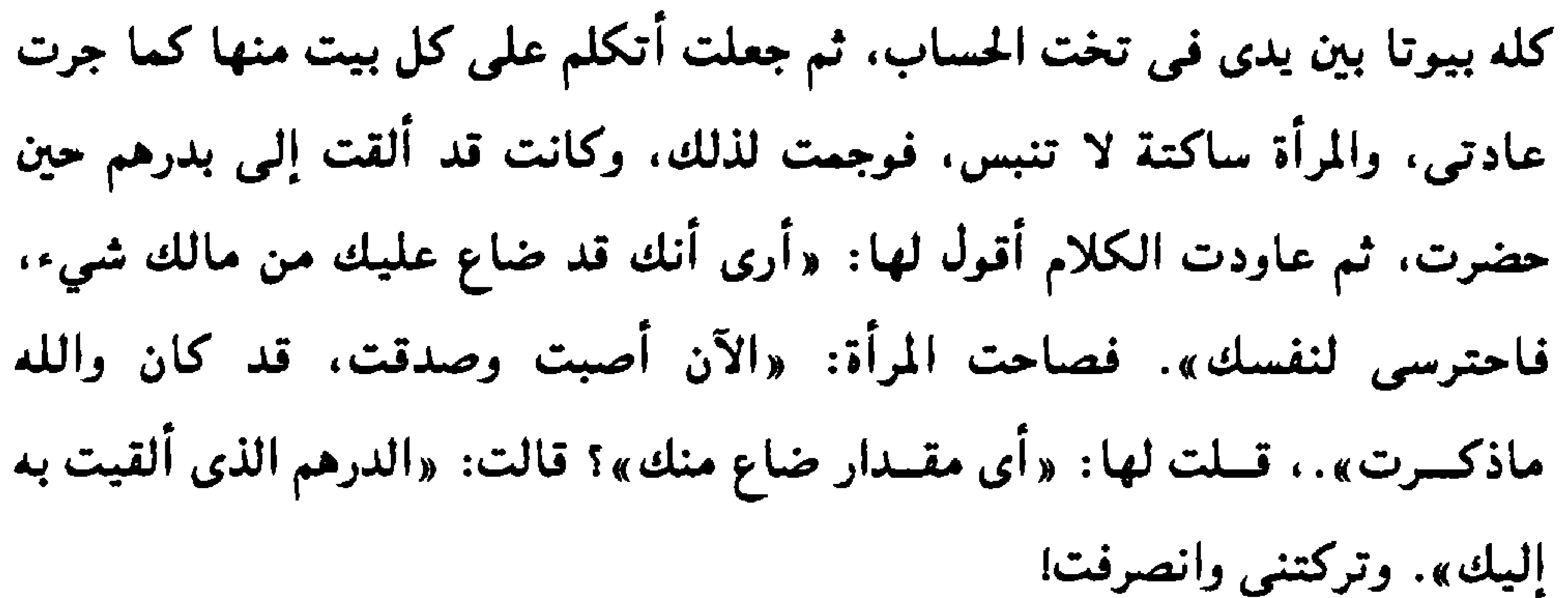


خصال الخمر

للخمـــرأسطـــورة عربية تكشـــف عن الخصـــال التى تتجلى على أصحاب الشراب، وقد تناقل هذه الاسطورة المؤلفون الأدباء فى العصر المملوكى، وهى تقـــول بأن «آدم» أبا البشر أراد أن يغرس كرمة ليعتصر منها خمرا طيبة وشرابا طهـــورا، ولكن «ابليس» تســـلل إلى غرس الكرمة فذبح عليها طاووسا، فـــشرب الفـــرس من دم الطاووس، فلما أورق شجـــر الكرمة جاء «ابليس» فذبح عليها قـــردا، حتى ارتوت من دمـــه، فلما ظهـــرت الثمرات أول ما ظهرت ذبح عليها أسدا، فلما ازدهت العناقيد ذبح عليهـــا خنزيـــرا، فكان دمه آخر ما شربت تلك الكـــرمة التى غرسها أبونا «آدم»، ولهذا أصبح شارب الخمـــر تعتـــريه الخصـــال التى تتميـــز بها تـــلك الأنـــواع المختلفة من الحيوان، فتراه أول ما يشربها مزهوا كما يزهو الطاووس، فإذا أخذ فى السكر لعب وصفق ورقص كشأن القرد، فإذا قوى سكره بدا منه عنف وحدة وسطوة كشأن الأسد، ثم هو فى آخر حالاته ينعقص ويتقبض، وقد انحلت عرى قوته، وبطل نشاطه، وتملكه الخمول، واستسلم للرقاد!

الدرهم الضائع

طالما ادعى المنجمون معرفة الأسرار، وقراءة الغيوب، وقد كانت صناعة التنجيم فى مصر بالغة الرواج، وممن اشتهروا بها فى الماضى البعيد رجل اسمه «رزق الله»، وقد روى عن نفسه طرفة حدثت له مع إحدى النساء، فقال: «سألتنى أن انظر لها فى مسألة تخصها فرصدت ارتفاع الشمس، وحققت درجة الطالع، ورسمت ذلك



كله بيوتا بين يدى فى تخت الحساب، ثم جعلت أتكلم على كل بيت منها كما جرت عادتى، والمرأة ساكتة لا تنبس، فوجمت لذلك، وكانت قد ألقت إلى بدرهم حين حضرت، ثم عاودت الكلام أقول لها: «أرى أنك قد ضاع عليك من مالك شيء، فاحترسى لنفسك». فصاحت المرأة: «الآن أصبت وصدقت، قد كان والله ماذكـرت».، قـلت لها: «أى مقـدار ضاع منك»؟ قالت: «الدرهم الذى ألقيت به إليك». وتركتنى وانصرفت!

بين العقل والواقع

هل يكفى مجرد النظر العقلى فى مواجهة الواقع؟ أليست التجربة العملية فى الحياة أدعى إلى النجاح من النظريات الجامدة؟ ذلك ما يجيب عنه شاعر عربى حكيم مضت عليه قرون، هو «العنترى»، إذ يقول من قصيدة فلسفية له:

العقـــل نـــــور اللـه إلا أنــه ... للعالم المحســوس غير ممــازج

فمتى اكتفيت بفعل عقل داخل ... فسدت أمورك كلها من خارج

مادح الشتاء

أذكر أن الأستاذ «عباس محمود العقاد» كتب فى مجلة «الهلال» مقالا ممتعا حول الشتاء، ختمه بقوله: «إن كل شيء يمكن أن تقال فيه كلمة ثناء، حتى الشتاء!»

وقد خص شعراء العربية باشادتهم وثنائهم فصل الربيع، فأشبعوا القول فى طيب نسيمه، ونضارة أزهاره، وعدوه زينة الدنيا وزخرف الحياة. بيد أن الشتاء لم يعدم



مادحا بين الشعراء، فقد اختصه بمدحه الشاعر الأديب الناقد «أبو هلال العسكرى»، صاحب كتاب «الصناعتين» و«ديوان المعانى»، وهو من أدباء القرن الثالث الهجرى، وقد أبدع فى التماس خصال جميلة تتوافر فى الشتاء دون غيره من الفصول، وضمنها قصيدة عامرة، نقتطف منها هذه الأبيات:

ان روح الشتاء خلص روحى	من حرور تشوى الوجوه وتكوى
برد الماء والهواء كان قد	سرق البرد من جوانح خلو
ريحه تلمس الصدور فتشفى	وغماماته تصوب فتروى
لست أنسى منه دماثة دجن	ثم من بعده نضارة صحو
وغيوما مطرزات الحواشى	بوميض من البرق وخفو
كلما أرخت السماء عراها	جمع القطر بين سفل وعلو
وهى تعطيك حين هبت شمالا	برد ماء فيها ورقة جو
فى ليال أطلن مدة درسى	مثلما قد مددن فى عمر لهوى

كنافة وكعك!

من أبرز المعالم فى شهر رمضان إقبال الناس على «الكنافة» يتفننون فى صنع صوانيها وحشوها بالطيبات.

ويظهر أن حب «الكنافة» فى شهر الصوم على وجه خاص أصبح حبا وراثيا عند الصائمين، يجرى فى عروق الأبناء بالوراثة عن الآباء.

وفى النصوص الأدبية القديمة ما يشهد بأن أجدادنا كانوا يحبون صوانى الكنافة فى القرن السابع، أى قبل سبعمائة سنة.

فهذا الامام «البوصيرى» صاحب القصيدة المشهورة التى نظم «شوقى» على



غرارها «نهج البردة»، يعتب على قاض معاصر له اسمه «عماد الدين» أنه لم يقدم له «كنافة رمضان» وذلك فى قوله:

ما أكلنا فى ذا الصيام كنافة ... آه وابعدهـــا علينـــا مسافـــة
قال قوم: ان العمـــاد كريـــم ... قلت: هذا عنـدى حديث خـرافـــة
فاعلموه عنى ولا تعتبونـــى ... إن عندى فى الصوم بعض الحرافة

ومثل كنافة رمضان فى القدم كمثل «كعك العيد» و«الفطرة» فقد نظم «البوصيرى» أيضا قصيدة رفعها إلى الوزير «بهاء الدين» شكا فيها حاله فى شهر رمضان وفى العيد، ومنها قوله:

إليك نشكـــو حالنـــا إننـــا ... عائـــلة فى غايـــة الكثـــرة
صامـوا مع النـــاس ولكنهم ... كانـــوا لمن يبصـــرهم عبـــرة
وأقبل العيـــد وما عندهـــم ... قمـــح ولا خبـــز ولا فطـــرة
ترحمهم إن أبصـــروا كعكـة ... فى يـد طفـــل أو رأوا تمـــرة

كل واطلب تعب الأكل!

من طرائف ما كتبه أحد الأدباء فى آخر القرن الماضى، أن قصر الخلافة العثمانية كانت له عادة مألوفة فى شهر رمضان، تلك هى اقامة ولائم إفطار تحضرها طوائف مختلفة من الناس، وكل من يحضر هذه الولائم يقبض بعد إفطاره مبلغا من المال، وهو يسمى بالتركية: «ديش كراسى» أى أجرة الأسنان أو نظير التعب الذى يلقاه الآكل فى مضغ الطعام وازدراده!

وهذه عبارة الأديب فى كتابه «ماهنالك» - ويقال إنه «المويلحى» الكبير :

«هذه عادة قديمة من عوائد بيت السلطنة، وهى أن يعطى لمن يفطر فيه بعد الافطار،



من الصدر الأعظم إلى شيخ الإسلام، إلى من يسعده الحظ بالافطار فيه من آحاد الناس، صرة من النقود تناسب قدر المفطر، فيعطى من ألف ليرة إلى ربع ليرة، وفى أواخر الشهر يفطر الضباط والعساكر فى القصر السلطانى، فيعطى للضابط أجرة أسنانه قيمة مرتبه الشهرى، ويعطى للعسكرى كذلك. وقد انحصرت هذه العادة فى السنوات الأخيرة فى طائفة الجواسيس الذين يقدمون تقاريرهم إلى الباب العالى، حيث يعرفهم جلالة السلطان بأشخاصهم».

يا عباد الله

ما أن يجاوز الليل منتصفه فى شهر رمضان، حتى ينطلق المسحرون فى الاحياء الإسلامية، يشقون بمصابيحهم أستار الظلام، وهم يتغنون بأناشيد مختلفة تتميز بهذا النداء التقليدى: «يا عباد الله».

والتاريخ يدلنا على أن «المسحرين» كانوا يلتزمون التغنى بذلك الهتاف منذ العصور السوالف، بل إن التاريخ يدلنا على أن التغنى به لم يكن مقصورا على الرجال، فقد كان هناك بعض المسحرات الفاتنات!

فلقد سجل صاحب «حلبة الكميت» فى القرن الثامن الهجرى بيتين لشاعر أغفل اسمه يتغزل فى مسحرة، ويصفها بأنها شمس تطلع وقت السحور، فكيف يأكل الناس والشمس طالعة؟

وهذان بيتاه:

عجبت فى رمضان من مسحرة

قالت ولكنها فى قولها ابتدعت:

«تسحروا يا عباد الله» قلت لها:

كيف السحور وهذى الشمس قد طلعت؟



في ضيافة البساتين

ابتهج العرب بمولد الجمهورية العربية المتحدة التى تضم سورية ومصر، وقد كانت الصلات الأدبية منذ العصور القديمة وثيقة بين أدباء مصر والشام، يتراسلون ويتزاورون ويتطارحون الشعر ويتبادلون الرأى، وكثير ما قرأنا فى انساب الادباء هذا الازدواج المصرى الدمشقى أو الدمشقى المصرى، ونذكر منهم «البدرى المصرى الدمشقى» صاحب كتاب «نزهة الأنام فى محاسن الشام». وقد وصف لنا هذا الأديب زيارة «شمس الدين بن الصانع الحنفى» للأمير الشاعر «مجير الدين بن تميم».فقال: «يحكى عن شمس الدين أنه لما قدم من القاهرة نزل عند الأمير الشاعر بدمشق، وكان النهر يمر بداره المأنوسة، فأجلس الامير ضيفه على النهر ليتمتع بطيب هوائه، فرأى الضيف القاهرى ما يمر من الفواكه على وجه الماء، وجعل يتناول منها ما استطاب، ثم التفت إلى الأمير بقوله: «انت يغنيك هذا النهر عن شراء الفاكهة». وسأله: «كيف تقع هذه الفواكه فى النهر؟» فأجابه «ابن تميم»: «إن هذه الناحية مشهورة بالبساتين، وعلى شاطىء النهر منها كثير، فتشتبك الاشجار، ويشتمل بعضها على البعض، فيلقى النسيم بثمرها على النهر، فيحمله الماء على صفحته كما ترى».

شهوة الطعام

الطبيب «ماسرجويه» من أشهر أطباء الدولة الأموية والعباسية، ويبدو أنه كان معنيا بدراسة الأغذية، فإن مؤرخيه يذكرون له كتابا عنوانه «قوى الأطعمة»، ومما



يشهد لذلك قصته التى جرت له يوما وقد جلس يزاول مهنته، إذ قدم عليه رجل غير عربى وقال له: «اشكو اليك علة لم يصب بمثلها أحد». فسأله عن علته، فأجاب الرجل: «انى إذا أصبحت ألفيت بصرى قد أظلم، وسمعت من معدتى مثل حس الكلام، ولا تزال حالتى كذلك حتى اطعم شيئا، فإذا طعمت سكن عنى ما أجد، ثم لا يكاد النهار ينتصف حتى يعاودنى ما كنت فيه، فإذا أكلت ذهب ما بى من ظلمة عينى وتصابح معدتى. وما هى إلا أن تغرب الشمس حتى أرانى فى ذلك الكرب الذى لا يخلصنى منه إلا معاودة الاكل، فلما سمع الطبيب شكواه، قال له: عليك وعلى دائك غضب الله، فإن هذا الداء الكريم قد أساء إلى نفسه، إذ اختارك موضعا له، وانى والله لوددت أن يكون هذا الداء لى ولأبنائى، بدلا منك، فكنت أعطيك به نصف ما أملك» فقال الرجل: «لا أفهم ماذا تريد؟» فقال الطبيب: «هذه صحة لا تستحقها، اسأل الله نقلها عنك، إلى من هو أحق بها منك.

غراميات زهرة !

من الأزهار التى هتف الشعراء بوصفها زهرة «النيلوفر» ... هى نبتة هندية الأصل، تنبت من تلقاء نفسها فى الماء العذب إذا وقف فى أرض طيبة.

ومن شأن هذه الزهرة أن تواجه مطلع الشمس، وتزداد أوراقها تفتحا كلما ازدادت الشمس من سطوع، ومتى حان الأصيل أخذت الأوراق فى الانضمام، حتى تغطس فى الماء عند الغروب.

ولزهرة «النيلوفر» حديث عجب ... ذلك أن طائرا لطيفا يتدانى منها عند مهبط الشمس، فتنضم أوراقها عليها، وتغيب به فى الماء، وتظل كذلك طول الليل، فإذا برق الصبح، طفت الزهرة على وجه الماء، وتفتحت منها الأوراق، فينطلق من بينها



الطائر الذى بات ضجيعها ليله كله!

وقد وصف غراميات هذه الزهرة شاعر من شعراء العصر المملوكى اسمه «عبد الجليل بن دهبول» فقال:

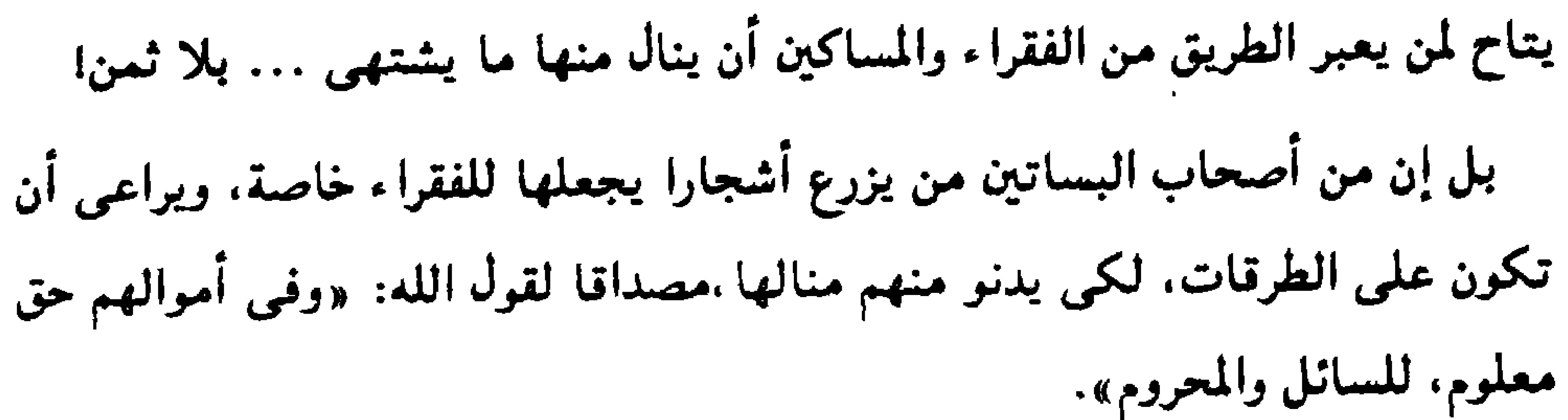
وبركة تزهو بنيلوفر
نسيمه اشبـــه ريـح الحبيـب
حتى إذا الليـل دنـا وقتـــه
ومالت الشمس لحين المغيـــب
أطبق جفنيـــه على الفـــه
وغاص فى الماء حذار الرقيـب

زكاة الربيع

كانت روح التكافل الاجتماعى قوية فى كيان الأمة العربية على امتدادالعصور، فكان الناس يتفننون فيما يسمونه «المراحم» التى تشعر بالتآزر والتعاون بين مختلف الطبقات، وكانت هذه المراحم «ضرائب اختيارية» سلطانها على النفوس أقوى من سلطان القانون ...

ومن طريف هذه المراحم أو الضرائب التى يحدثنا بها تاريخ الأمة العربية،أن أصحاب البساتين فى دمشق كانوا يفرضون على أنفسهم شيئا ما أجدره أن يسمى: زكاة الربيع!

وذلك أنهم حين تينع الثمار فى البساتين، وتعرض للبيع، لا ينسون الفقراء والمساكين الذين تقعد بهم رقة الحال عن شراء أطايب الفاكهة. فكل صاحب بستان يلزم نفسه بأن يضع على باب بستانه كل يوم مجموعة مما يجتنيه من الثمار، حتى



يتاح لمن يعبر الطريق من الفقراء والمساكين أن ينال منها ما يشتهى ... بلا ثمن!

بل إن من أصحاب البساتين من يزرع أشجارا يجعلها للفقراء خاصة، ويراعى أن تكون على الطرقات، لكى يدنو منهم منالها ،مصداقا لقول الله: «وفى أموالهم حق معلوم، للسائل والمحروم».

مهرجان للشعراء ...

فيما بين النيل والجبل، جنوبى مدينة «الفسطاط» كانت تمتد رقعة من الأرض تكسوها الخضرة، ويغمرها الماء وقت الفيضان، وتتناثر حولها البساتين العامرة بالزهر والثمر.

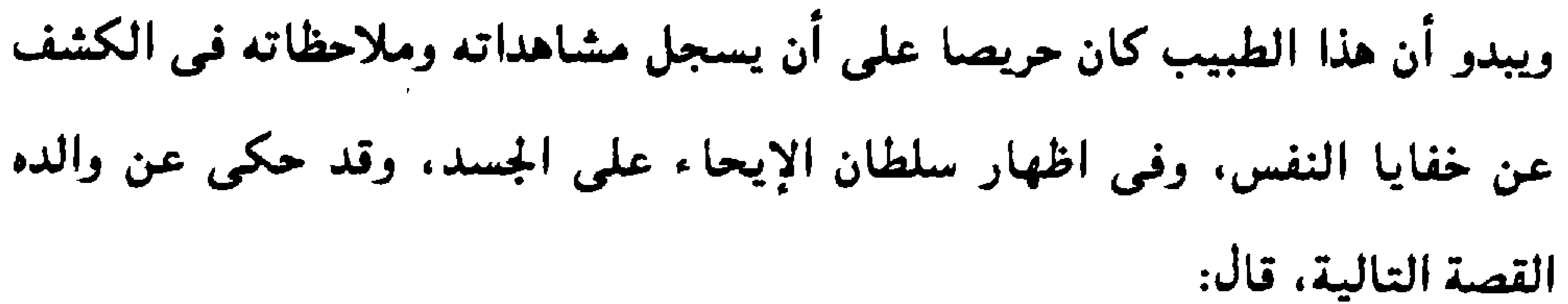
وفى عهد «الآمر بأحكام الله الفاطمى» بنيت منظرة تطل على هذه البقعة التى كانت تسمى «بركة الحبش»، وهى منظرة من خشب مدهونة فيها طاقات تشرف على خضرة البركة.

وقد طلب الخليفة الفاطمى إلى عدة من الشعراء المصريين من مختلف البلاد أن يصفوا هذا المكان البهيج، فلما وردته قصائدهم أمر بكتابتها وتصوير أصحابها، فكانت تتراءى على جانب كل من هذه الطاقات قصيدة مكتوبة على قطعة من النسيج، مع صورة الشاعر واسمه واسم بلده، وعلى الجانب الآخر رف لطيف مذهب.

ولما دخل «الآمر» وقرأ الأشعار، أمر بأن توضع على كل رف صرة مختومة فيها خمسون دينارا، وأن يدخل كل شاعر فيأخذ صرته بيده، ففعلوا ...

خفايا النفس ...

فى القرن الرابع الهجرى، كان يعيش فى مصر طبيب اسمه «محمد التميمى»،


ويبدو أن هذا الطبيب كان حريصا على أن يسجل مشاهداته وملاحظاته فى الكشف عن خفايا النفس، وفى اظهار سلطان الإيحاء على الجسد، وقد حكى عن والده القصة التالية، قال:

سكر ذات يوم سكرا شديدا مفرطا غلب فيه عقله، وكان يسكن فى خان، فسقط من موضع عال فيه، فحمله صاحب الخان، حتى أدخله إلى الحجرة التى يسكنها، فلما أصبح أحس بوجع ضئيل فى مواضع من جسده، دون أن يدرى له سببا، فلم يعبأ به، وخرج من الخان لبعض شأنه، فلما رجع قال له صاحب الخان: «ينبغى أن تحمد الله على سلامتك» فسأله: «لماذا؟» فأجابه: «أما علمت ما نالك البارحة؟» قال: «لا» قال: «إنك سقطت وأنت سكران». قال: «من أى موضع؟» فأراه الموضع الذى سقط منه، فلما شاهد علوه أحس بوجع وضربان لم يجد معه سبيلا إلى الصبر، وأقبل يضج ويتأوه، ولم يستقر به حال إلا بعد أن جيء له بطبيب شد على مفاصله، وأقام فى الخان أياما كثيرة لا يبرح، وهو يتوجع ويتألم ...

وهكذا يتحدث طبيبنا المصرى منذ ألف عام عن أثر الإيحاء.

أيهما أحب ؟

كان «إسحاق الموصلى» إمام الموسيقى فى العصر العباسى يتصل «بالفضل» و«جعفر»، فقال يصفهما: «أما جعفر فإنى لا أصل إليه الا على عسر، فإذا وصلت إليه قبلت يده، فلا يلتفت إلى بطرف، ولا ينعم على بحرف، ثم أصير إلى منزلى، فأجد صلته وبره وهداياه وتحفه قد سبقتنى، فأبقى حيران فى أمره ... وأما



«الفضل» فإنى ما أغشى بابه الا ويتلقانى ويهش لى ويخصنى ويسألنى عن دقيق أمرى وجليله، ويصحبنى من بشره وطلاقة وجهه وتهلله ورقة نغمته ويعجزنى عن الشكر، وليس غير ذلك ...».

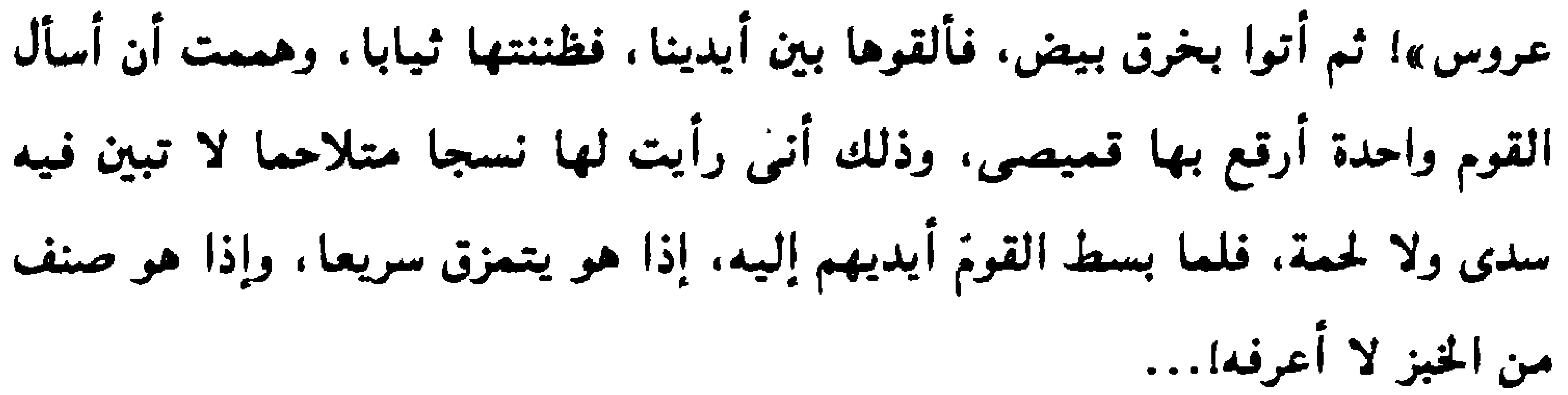
فلما سمع الخليفة «الرشيد» منه هذا الوصف، قال له: «أما الفضل فيرضيك بقوله، وأما جعفر فيرضيك بفعله، فأيهما أحب اليك؟ وفعل أيهما من نفسك أوقع؟ «فأجاب: «إنما يرضينى الفضل».

وقد علل الفيلسوف «مسكويه» ذلك بأن «من الناس من يحب الثراء والمال، ومنهم من يحب الكرامة والجاه، والمال ليس مطلوبا لذاته وإنما ليتوصل به إلى المآرب، والكرامة أشرف من المال، وهى تطلب لذاتها، لما تحصل النفس عليه من الالتذاذ الروحانى. واذا كان محبو المال أكثر من محبى الكرامة فلأن الذين يتميزون بفضائل النفس عددهم قليل...».

أعرابى فى عرس

يتناقل المؤلفون الذين يجمعون طرائف الأدب العربى حديث أعرابى من البادية جاء إلى المدينة يزورها أول مرة، فاتفق أن رأى حفلا وزينة، فقال يصف ما رأى:

«ألفيت الناس مقبلين ومدبرين، وعليهم ثياب حكوا بها ألوان الزهر، ودخلت بيتا قد زينوا وجهه بالفرش، وتجلى فيه شاب تنال فروع شعره كتفيه، والجمع حوله سماطان، فقلت: «السلام عليكم أيها الأمير». فجذب رجل يدى، وقال: «هذا


عروس»! ثم أتوا بخرق بيض، فألقوها بين أيدينا، فظننتها ثيابا، وهممت أن أسأل القوم واحدة أرقع بها قميصي، وذلك أنى رأيت لها نسجا متلاحما لا تبين فيه سدى ولا لحمة، فلما بسط القومُ أيديهم إليه، إذا هو يتمزق سريعا، وإذا هو صنف من الخبز لا أعرفه!...

ثم أتوا بطعام كثير من حلو وحامض، وحار وبارد، فأكثرت منه، وأتوا بعده بشراب أحمر، فلما نظرت إليه، قلت: «لا حاجة لى به، أخاف أن يقتلنى!» وكان بجانبى رجل ناصح لى، فقال لى: «يا أعرابى إن شربت الماء انتفخ بطنك، فخذ من هذا الشراب، فهو خير لك.» فلم أزل أشرب ولا أمل، حتى تداخلنى كبر وصلف لا أعرفه من نفسى، وانتابنى بكاء لا أعرف سببه ولا عهد لى بمثله، ثم أحسست اقتدارا على أمرى حتى ظننت أنى لو أردت نيل السقف لبلغته، ولو ساورت الأسد لغلبته، وجعلت التفت إلى جارى فتحدثنى نفسى بأن أهتم أسنانه أو أهشم أنفه!

ثم هجم علينا رجل قد علق فى عنقه جعبة دقيقة الوسط، مشبوحة بالخيوط، مكسوة بقطعة فرو، كأنهم يخشون عليها البرد، فاستخرج منها صوتا يشاكل بعضه بعضا! ...

ثم خرج إلينا رجل آخر، فى قميص قصير، فجعل يقفز كأنه يثب على ظهور العقارب!...

ثم ظهر بيننا رجل معه خشبة عينها فى صدرها، عليها خيوط أربعة، فاستخرج من جنبها عودا فوضعه على اذنه، ثم زم خيوطها، وعرك آذانها، وجعل يحركها بمجسة فى يده فنطقت ورب الكعبة، فقلت لمن حولى: «ما هذه الدابة» فقالوا: «هذا هو العود الذى يسمى «البربط»، فقلت: «آمنت بالله أولا، وبالبربط ثانيا!...»

ثم أخذتنى نومة لم يوقظنى منها إلا حر الشمس من الغد!

إلغاء الألقاب

كان «شعيب بن حرب» من أهل «خراسان»، وكان من الزهاد المتعبدين الذين يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، لا يبالون فى سبيل ذلك لوم لائم.

وبينما هو يوما فى طريق «مكة» إذ رأى «الرشيد»، فقال فى نفسه «لقد وجب الأمر والنهى»، ثم خشى أن يتصدى للخليفة، فيضرب عنقه ولكنه تشجع وقال: «لابد من ذلك» وانتظر قليلا حتى دنا منه «الرشيد» فصاح: «ياهرون، لقد أتعبت الأمة، ولم يستقم أمرك!» فقال «الرشيد» لحراسه: «خذوه».

ثم أدخله الحراس على «الرشيد» وهو فى مجلسه على كرسى، وبيده عمود يلعب به، فقال له: «ما حملك على أن تدعونى باسمى، دون كنيتى؟».

فأجاب «شعيب»: «أنا أدعو الله باسمه فأقول يا الله، ولا أدعوك أنت باسمك؟ وما تنكر من دعائى باسمك، وقد سمى الله فى كتابه أحب الناس إليه «محمدا»، وكنى أبغض الخلق إليه «أبا لهب».

فقال «الرشيد»: «اخرجوه عنى!».

اثنتان أم ثمان ؟

ينشد الرواه من شعر «مجنون ليلى» قوله:

أصلى فـلا أدرى إذا ما ذكرتهـــا

اثنتين صليت الضحــى أم ثمانيــا



وقد طاب لبعض النقاد أن يتساءلوا: لماذا خص الثمانى بالعدد؟ أتراها ضرورة القافية؟

ولما سئل «الصلاح الصفدى»: «ما وجه الترديد بين الاثنتين والثمانى؟» أجاب بقوله: «إن «قيسا» صاحب «ليلى» كان لكثرة السهو، واشتغال الفكر، يعد الركعات بأصابعه، ثم إنه يذهل، فلا يدرى: هل الأصابع التى ثناها هى الركعات التى صلاها، أو هو صلى بعدد الأصابع المفتوحة؟»

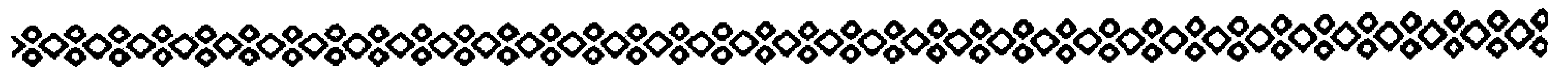
وقد علق «بهاء الدين العاملى»: «لله دره فى هذا الجواب الرائق الذى صدر عن طبع أرق من السحر الحلال، والطف من الخمر إذا مزج بالماء الزلال. وان كنا نعلم أن «قيسا» لم يقصد إلى ذلك ...».

لغة الكتاب المقدس

إن من يقرأ الكتاب المقدس يلمس فى لغته وأسلوبه طابعا خاصا فى تقويم العبارات وتفصيل الجمل، وهو طابع يختلف عما هو مألوف فى النثر من الأساليب.

ويبدو أن هذا الأسلوب المتميز عريق فى القدم، لا يد للمحدثين فيه. ودليل ذلك أن إمام المؤلفين فى السيرة «ابن اسحاق» - وقد عاش فى القرن الأول للهجرة - يثبت نصا من الإنجيل فيه تلك الصبغة التعبيرية التى نأنسها حتى اليوم فى لغة الكتاب المقدس. فهو يقول:

«مما أثبته يحنس الحوارى من نسخ الإنجيل عن عهد عيسى بن مريم أنه قال: «من أبغضنى فقد أبغض الرب، ولولا أنى صنعت بحضرتهم صنائع لم يصنعها أحد قبلى ما كانت لهم خطيئة، ولكنهم من الآن بطروا وظنوا أنهم يعزوننى، وايضا للرب، ولكن لابد من أن تتم الكلمة التى فى الناموس. إنهم أبغضونى مجانا. فلو



قد جاء المنحمنا هذا الذى يرسله الله إليكم من عند الرب وروح القدس. هذا الذى من عند الرب خرج، فهو شهيد على، وانتم أيضا، لأنكم قديما كنتم معى، فى هذا قلت لكم لكيما لا تشكوا».

خدمات طبية فى السجون

فى عهد الخليفة «المقتدر بالله» كان الوزير اسمه «على بن عيسى الجراح»، ويبدو أنه رجلا واسع الأفق، كبير القلب، فقد أمر بإنفاذ ضروب من الإصلاح الاجتماعى تدل على شخصيته الممتازة، وفى مقدمة ما أمر به أنه طلب إلى كبير أطباء الدولة «سنان بن ثابت» الذى كان رئيس «البيمارستان» فى «بغداد» - أن يشمل السجون بلون من الخدمات الطبية لكيلا يحرم السجناء رعاية الطب، وقد حفظ لنا التاريخ رسالة الوزير إلى كبير الأطباء فى هذا الشأن، وهذا نصها:

«فكرت - مد الله في عمرك - فى أمر من فى المحابس، وانهم لا يخلون من كثرة عددهم، وجفاء أماكنهم، أن تنالهم الأمراض، وهم معوقون عن التصرف فى منافعهم، وعن إلقاء من يشاورونه من الأطباء فيما يعرض لهم من أمراضهم. فينبغى - أكرمك الله - أن تفرد لهم أطباء يدخلون إليهم فى كل يوم، وتحمل إليهم الأدوية والاشربة وما يحتاجون إليه، وتتقدم إليهم بأن يدخلوا سائر المحابس، ويعالجوا من فيها من المرضى، ويزيحوا عللهم بما يصنعونه لهم إن شاء الله ...».

وقد أنفذ الطبيب إشارة الوزير.

الخمار الأسود

من أظرف ما يرويه التاريخ من أساليب الدعاية والإعلان، أن تاجراً - على عهد



الخليفة المهدى العباسى - جاء إلى «المدينة» ومعه ثياب يبيعها، فتم له بيعها إلا مجموعة من الخمر السود لم يبع منها خمارا واحدا، لزهد النساء فيها، فشكا التاجر أمره إلى شاعر موسيقى يسمى «ابن جندب» فقال له: «ما قولك فى أن أروجها لك، أترضى أن أقاسمك ربحك منها حين تباع؟» فرضى التاجر بالشرط، فنظم الشاعر قوله:

قل للمليحة فى الخمار الأسود   مـاذا فعلت بزاهـد متعبـد

قد كان شمـر للصـلاة ثيابـه   حتى وقفت له بباب المسجـد

ردى عليه صلاتـه وصيامـه   لا تقتليه بحـق دين محمـد

وزاد على ذلك أنه صنع للأبيات لحنا جميلا، وطلب إلى أحد المغنين أن يشدو به، فشاع اللحن فى المدينة، وحسن موقعه من الاسماع، فلم تبق المدينة امرأة إلا طلبت شراء خمار أسود، فأغلى ثمنها، ولكنها لم تلبث أن نفدت جميعا. واقتسم التاجر والشاعر ما تيسر لهما من ربح موفورا

مصور النبات

فيما بين القرن السادس والسابع الهجرى، كان يعيش «رشيد الدين بن الصورى» متنقلا بين مصر والشام، وهو من أعلام الطب الذين عنوا بدراسة الأدوية والعقاقير، وقد عكف على النبات يتعرف أمره فى مراحل نموه ويسجل مظاهره بالتصوير، وإليك ما كتبه عنه صاحب «عيون الأنباء»، إذ قال:

«كان يستصحب مصورا، ومعه الأصباغ على اختلافها وتنوعها، ويتوجه به إلى المواضع التى بها النبات، مثل جبل لبنان وغيره من المواضع التى قد اختص كل منها بشىء من النبات، فيشاهد النبات ويحققه، ويريه للمصور، فيعتبر لونه،



ومقدار ورقه وأغصانه، ويصوره بحسبها، ويجتهد فى محاكاتها ... ثم إنه سلك أيضا فى تصوير النبات مسلكا مفيدا، وذلك إنه كان يرى النبات للمصور فى أبان ظهوره وطراوته، فيصوره، ثم يريه أيضا وقت نضجه وكماله، فيصوره تلو ذلك، ثم يريه اياه أيضا فى وقت ذبوله ويبسه، فيصوره، فيكون الدواء الواحد يشاهده الناظر إليه، وهو على مختلف الأنحاء التى يراه عليها فى الأرض، فيكون تحقيقه له أتم، ومعرفته به أبين».

مناقب العصا

كان للعصا شأن كبير عند العرب، وقد عنى تاريخ الأدب بتسجيل ما يتصل بالعصا من طرائف، ومما يذكرونه من ذلك أن «الحجاج بن يوسف» أمير العراقين فى عهد المروانيين لقى أعرابيا، فأراد أن يجاذبه الحديث، إذ كان حديث الأعراب لا يخلو من ظرف ولطف، فقال له: «يا أعرابى، ما بيدك؟» قال «عصاى». قال: «ما نفعها لك؟» فأجاب الأعرابى: «أذود بها عن نفسى إذا تعمدنى أحد بمكروه، وأسوق بها دابتى فلا تتوقف عن السير، واستند إليها فى مشيتى ليتسع خطوى، وأثبت بها حين أعبر مجرى الماء، وهى تؤمننى أن أعثر فى الطريق، واذا اشتد بى الحر أو البرد ألقيت عليها كسائى فأتقى أذى الشتاء والصيف، وإنها لتدنى منى ما بعد عنى، وأحمل بها حقيبتى على ظهرى، وأنا مع ذلك أقرع بها الباب المغلق، وأزجر بها الكلب العقور، ثم هى تنوب مناب الرمح فى الطعان، وتقوم مقام السيف عند منازلة الأقران. وقد ورثتها عن أبى، وسأورثها ابنى من بعدى، وأهش بها على غنمى، ولى فيها مآرب أخرى!»



حول الكعبة

كان للكعبة فى الجاهلية من القدسية ورفعة المقام ما كان لها فى ظل الإسلام، وقد عنى العرب بها أيما عناية، فجعلوا منها متحفا فنيا يروق العين بما فيه من صور وتزاويق.

ويقول المؤرخون إن العرب زوقوا سقف الكعبة وحيطانها من بطنها ودعائمها، وصوروا فيها الأنبياء والملائكة والشجر.

وظلت الكعبة على حالها، محلاة بالصور، تتناثر فيها الأصنام المعبودة، حتى كان يوم فتح مكة على عهد الرسول، فأمر بكسر ما فى الكعبة من الأصنام، وطمس ما فيها من صور.

وتذكر الروايات المختلفة أن الرسول رأى فى الكعبة صور الملائكة على هيئة النساء، فأمر بمحوها، كأنه لم يرض أن يتمثل الناس ملائكة السماء على هيئة معينة يختارونها وفق أهوائهم الخاصة.

كذلك تذكر الروايات أن الرسول رأى صورة «إبراهيم الخليل» وبين يديه قداح يستقسم بها، فأمر بمحوها، مستنكرا أن ينسب إلى خليل الله هذا العبث من الاستقسام بالازلام. وفى الروايات أن الرسول وضع كفيه على إحدى الصور، وقال: «امحوا جميع الصور إلا ما تحت يدى»، ثم رفع كفيه عن صورة عيسى وأمه عليهما السلام. وشهد بعض الرواة صورة عيسى فى حجر أمه مريم فى أحد أعمدة الكعبة، إلى أن حدث الحريق زمن الأمويين.

ترى هل نستأنس بهذه الروايات فى فهم موقف الإسلام الصحيح من اتخاذ الصور وصنع التماثيل؟

ألـوان

■ شتم فلسفى

خرج بعض الفلاسفة مع تلميذ له، فسمع صوت مغن من بعيد، فقال لتلميذه: إمض بنا الى هذا المغنى لعله يثير فى نفوسنا معنى شريفا » فلما اقتربا منه، سمعا صوتا رديئا، وتأليفا قبيحا، فقال الفيلسوف لتلميذه: «يزعم أهل الكهانة والزجر أن صوت البومة يدل على موت الإنسان ، فإن كان ذلك حقا فصوت هذا المغنى يدل على موت البومة! »

■ الحب بلاء:

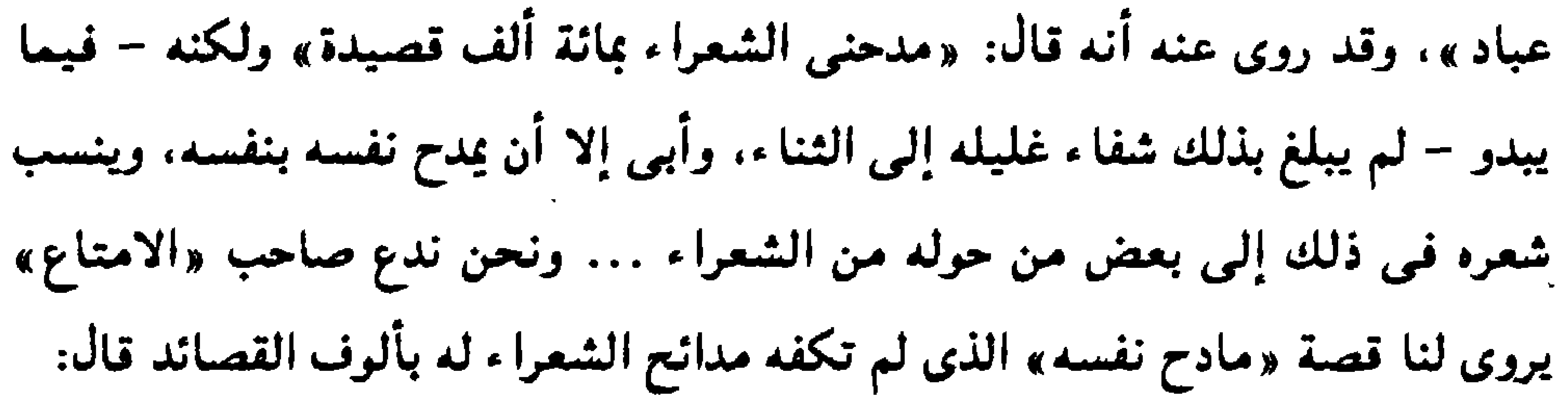
جلس رجل يتودد إلى سيدنا «يوسف»، فقال له: «إنى أحبك!» فأجابه «يوسف» «إليك عنى، فما نكبنى إلا الحب ... أحبنى أبى فألقيت فى الجب، وصرت عبدا يباع ويشترى. واحبتنى امرأة العزيز فلبثت فى السجن بضع سنين! »

■ جائزة البخيل

مدح أحد الشعراء صاحب شرطة، وكان بخيلا لا يجيز الشعراء على مدحهم اياه، فسأله الشاعر جائزته، فقال له: «أما أن أعطيك شيئا من مالى فلا يكون هذا أبدا، لكن أبيح لك أن ترتكب جناية تختارها، ولا أعاقبك بها! »

مادح نفسه !

هذا أديب يشهد له المؤرخون بأنه كان فى فضائله ومكارمه «نادرة الدهر، وأعجوبة العصر»، عاش فى القرن الرابع الهجرى، وتولى الوزارة فى دولة «بنى بويه» ودام فيها ثمانى عشرة سنة، وله تصانيف حسان، ذلك هو «الصاحب بن


عباد »، وقد روى عنه أنه قال: «مدحنى الشعراء بمائة ألف قصيدة» ولكنه - فيما يبدو - لم يبلغ بذلك شفاء غليله إلى الثناء، وأبى إلا أن يمدح نفسه بنفسه، وينسب شعره فى ذلك إلى بعض من حوله من الشعراء ... ونحن ندع صاحب «الامتاع» يروى لنا قصة «مادح نفسه» الذى لم تكفه مدائح الشعراء له بألوف القصائد قال:

«كان يعمل فى أوقات كالعيد وفصل الربيع شعراء، ويدفعه إلى «أبى عيسى بن المنجم» ويقول له: قد نحلتك هذه القصيدة، فأمدحنى بها فى جملة الشعراء، فيفعل ذلك «أبو عيسى» وهو بغدادى محكك، قد شاخ على الخدائع وتحنك، وينشد، فيقول له الصاحب عند سماعه شعره فى نفسه، ووصفه بلسانه، ومدحه من تحبيره: «أعد يا أبا عيسى، فإنك والله مجيد، أحسنت يا أبا عيسى، قد صفا ذهنك، وجادت قريحتك، وتنقحت قوافيك، ليس هذا من طراز ما أنشدتنا إياه فى العيد الماضى، فالمجالس تخرج الناس،وتهب لهم الذكاء، وتزيدهم فطنة ..» ثم لا يصرفه عن مجلسه إلا بجائزة سنية، وعطية هنية، ويغايظ الجماعة من الشعراء وغيرهم، لأنهم يعلمون أن «أبا عيسى» لا يقرض مصراعا، ولا يزن بيتا، ولا يذوق عروضا ...».

وأغلب الظن أن «الصاحب بن عباد» لم يكن يقصد مدح نفسه بقدر ما كان يقصد مكايدة الشعراء الذين يطرقون بابه مادحين.

حيل .. لصيد الفيل !

الا تعجب لهذا الفيل الضخم الغليظ، حين تعلم أنه رقيق المشاعر، ناعم الخصال، طروب؟ لقد عرف ذلك منه صائدوه، فكانوا يحتالون لصيده باللهو والطرب والزينة وروائح الطيب؟



وثمة حيله يصطنعها الزنوج لاصطياده، تلك هى أن يعمدوا إلى نوع من الأشجار، فيأخذوا ورقه وقشره، ويجعلوه فى الماء الذى اعتادت الفيلة أن تشرب منه، فإذا وردت ذلك الماء وشربت فإنها تسكر من ورق ذلك الشجر وقشره، فتسقط على الأرض، ولا تستطيع القيام، فتقتلها الزنوج بالحراب، وتنتزع منها الأنياب!

على أن الفيل كان يجلب حيا إلى الديار المصرية - فيما يروى مؤرخو القرن الثامن الهجرى - بحيلة طريفة، تلك هى أن أهل النوبة يعمدون إلى الطرق التى تمشى الفيلة فيها قاصدة الماء، فيحفرون هناك أخاديد ويسقفونها بالخشب الضعيفة، ويسترونها بالنبات والتراب، فإذا مر الفيل عليها انكسرت به تلك الأخشاب الضعيفة، فيسقط فى إلا خدود، فعند ذلك يتبادر إليه جماعة من الرجال بأيديهم العصى الرقاق، فيضربونه الضرب الوجيع، ثم يخرج إليه رجل منهم فى ثوب مغاير لثيابهم فيضربهم ويصرفهم عنه، ثم يقف هو بالقرب من الفيل، ثم ينصرف فيرجع أولئك الرجال ويضربون الفيل حتى يؤلموه، فيعود ذلك الرجل، ويرى الفيل أنه يضربهم، فيتفرقون عنه ... يفعلون ذلك أياما متوالية، والرجل يؤانس الفيل، ويأتيه بالمأكل والمشرب، حتى يألفه ويقرب منه، وينام بجواره، فيجىء أولئك الرجال، فلا يراهم الفيل حتى يوقظ صاحبه بخرطومه، ويطلب منه أن يردهم عنه، فيفعل... فإذا علم أن الفيل استأنس وزال استيحاشه، وألف ذلك الرجل، حفر أمامه بتدريج وتوطئه، فيخرج الفيل من الأخدود، وقد سلس قياده، وزال عناده، فيمضى به صاحبه إلى مركب على النيل، ولا يلبث أن يشد وثاقه ... إلى مصر!

روائح الجنة !

للشاعر العباسى «أبى العتاهية» أرجوزة مزدوجة يطلقون عليها اسم «ذات



الأمثال»، لأنها فيما يقال حوت أربعة آلاف مثل. ومن أبياتها المشهورة التى يجرى بها إلاستشهاد:

ان الشبـاب حجـة التصابـى   روائـح الجنـة فى الشبـاب

وقد سئل «أبو العتاهية»: «أي شعر قلته أجود وأعجب إليك؟» فأجاب:

«قولى: إن الشباب والفراغ والجدة   مفسدة للمرء أى مفسده

وقولى أيضا: «إن الشباب حجة التصابى   روائح الجنة فى الشباب»

ورأى «الجاحظ» أن «فى قول «أبى العتاهية» روائح الجنة فى الشباب معنى من معانى الطرب الذى لا يقدر على معرفته إلا القلوب، وتعجز عن ترجمته الألسنة، إلا بعد التطويل وادامة التفكير الجزيل، وخير المعانى ما كان إلى القلب أسرع منه إلى اللسان .. ».

والمعنى المتعارف المتبادر إلى الأذهان فى معنى البيت، أن المراد بروائح الجنة ما يكون من التمتع بالشباب ولذائذه، وتشبيه ذلك بحياة الجنة، فكأن الشباب نسمة من نعيم الجنان.

ولم أعرف من ينشد هذا البيت أو يضبطه بالكتابة، إلا ضبط «الجنة» بفتح الجيم ... فهل تحتمل الكلمة ضبطا آخر يختلف به المعنى؟ ذلك ما لاح لى، قلت: لعل كلمة «الجنة» هنا بكسر الجيم، بمعنى النشاط والفورة والاعجاب بالنفس، فالمقصود فى البيت أن الشباب فيه روائح الجنون من الخيلاء والنزوة والانطلاق، والمادة اللغوية «جنن» تحتمل هذه المعانى، ومن مأثور التعبير: فلان فى جن نشاطه، وفى جن شبابه.

ويبدو أن كلمة «ريح الجنة» بكسر الجيم تعبير قديم بهذا المعنى، فإن «ابن المقفع» - وعهده قريب من عهد «أبى العتاهية» - يقول فى رسالة «الأدب الكبير» ما نصه: ليس من هذا شىء إلا وهو ريح جنة تسلب العقل وتذهب الوقار... ».



وتوجيه البيت هذه الوجهة يصرف معناه إلى النصح الذى هو موضوع الشاعر فى أرجوزته التى منها هذا البيت، فهو لا يريد أن يشيد بالشباب، ولا أن يقول أنه فيه نعيم الجنة، وإنما يقصد إلى التحذير مما فى الشباب من شرة فيها روائح الجنون ... ويشهد لهذا أن ذلك البيت يقترن فى رواية الأرجوزة بالبيت القائل:

إن الشباب والفراغ والجدة مفسدة للمرء أي مفسدة

وقد جرى الكتاب والشعراء على وصف الشباب بالجنون أو التجنن أو الجنة، ومن ذلك ما يرويه صاحب «العقد» لأحد الشعراء:

قالت عهدتك مجنونا، فقلت لها: إن الشباب جنون برؤه الكبر .

التداوى .. بالغذاء

اتجه البحث الطبى فى هذه الأيام إلى الإشادة بالأغذية فى العلاج وأصبحت الكلمة الشائعة فى هذه الناحية: أعدل عن الدواء إلى الغذاء .. وقد حفظ لنا تاريخ الطب العربى فى «الأندلس» اسم رجل عاش فى القرن الرابع الهجرى، هو «ابن واقد» كان معنيا بعلم الأدوية أيما عناية، ومما يعرف لهذا الطبيب الذى تخصص فى علم الأدوية أنه كان ينادى فى ذلك الزمن القديم بمثل ما ينادى به الطب الحديث من التعويل على الغذاء فى العلاج، وإليك نص ما كتبه صاحب «عيون الأنباء» فى وصف ابن وافد»:

«كان له فى الطب منزع لطيف، ومذهب نبيل، وذلك أنه كان لا يرى التداوى بالأدوية، ما أمكن التداوى بالأغذية، أو ما كان قريبا منها، فإذا دعت الضرورة إلى الأدوية، فلا يرى التداوى بمركبها، ما وصل إلى التداوى بمفردها، فإذا اضطر إلى المركب منها، لم يكثر التركيب، بل اقتصر على أقل ما يمكنه منه. وله نوادر محفوظة، وغرائب مشهورة، فى الإبراء من العلل الصعبة، والأمراض المخوفة،



بأيسر العلاج وأقربه ...».

عيد الجامعة الأزهرية الألفي

في هذه السنة بدأ الأزهر عامة الأول بعد الألف ...

لست أعني مسجد الأزهر ولكن أعني المعهد الأزهري العلمي، فإن الأزهر بوصفه مسجدا لإقامة الشعائر الدينية أسبق تاريخا وأقدم عمرا، بيد أنه لم يتخذ معهدا للدرس والبحث وتخريج العلماء إلا منذ سنة ٣٧٨هـ، فهو إذن قد استكمل أعوامه الألف في يومه الحاضر ...

في سنة ٣٧٨هـ التي مرت عليها الآن ألف سنة، رغب الوزير «يعقوب بن يوسف» إلى الخليفة «العزيز بالله» في أن يكون الجامع الأزهر معهدا علميا ينقطع له الفقهاء ويعقدون حلقاتهم فيه، وأن تجرى على هؤلاء الفقهاء أرزاق ثابتة وأن تكون لهم بجوار الجامع دار خاصة يقيمون فيها، فاستجاب الخليفة لتلك الرغبة، وكانت عدة الفقهاء الذين استهل بهم المعهد رسالته العلمية خمسة وثلاثين.

ذلك ما يسجله لنا المؤرخ المصري «المقريزي» في خططه، وما يؤيده فيه غيره من مؤرخي تلك الحقبة ...

فكيف لا يحتفل الأزهر بهذا العيد الألفي لمعهده العلمي؟ وكيف لا يكون الاحتفال مجالا فسيحا لألوان من الدراسات التاريخية والاجتماعية لتلك المؤسسة العلمية التي هي أطول نظائرها عمرا وأبعدها عهدا وأعلاها صيتا؟

إنه واجب الأزهر أولاً، ولكنه مع ذلك واجب الجامعات المصرية والعربية في مختلف البلاد أيضا، فعليها جميعا أن تتلاقى في الاحتفال بعيد الجامعة الأزهرية، تلك الجامعة الأم التي حملت رسالة العلم والمعرفة خلال عشرة قرون.

مبلغ رجائنا أن تجد هذه الدعوة سمعا ...



ألفاظ هائلة

حينما أخذت الحضارة الإسلامية تتزود بالعلوم والمعارف، كالمنطق والفلسفة، راع أهل الأدب أن يسمعوا من الكلام ما لا يفهمونه، حتى إذا فسر لهم وجدوه عندهم من البداءة التي لا تخفى، وإنما الذى يختفيه عليهم ما يصاغ فيه من الجمل الغامضة، ومما يروى من أمثلة ذلك أن قوما سألوا «محمد بن الجهم» أن يذكر لهم مسألة من علم «المنطق» حسنة لطيفة، فقال لهم: «ما معنى قول الحكيم: أول الفكرة آخر العمل، وأول العمل آخر الفكرة؟» فلم يستطيعوا أن يفطنوا إلى الجواب، فسألوه تأويل مالم يفهموا، فقال لهم: «إذا قال رجل: إنى صانع بيتا، وقعت فكرته أول ما تقع على السقف، ثم انحدر فعلم أن السقف لا يقوم إلا على حائط، وأن الحائط لا يقوم إلا على أس، وأن الأس لا يقوم إلا على أصل، ثم ابتدأ فى العمل بالأصل، ثم بالأس، ثم بالحائط، ثم بالسقف، فكان ابتداء تفكره آخر عمله، وآخر تفكره ابتداء عمله، وهذا معناه أن أول الفكرة آخر العمل، وأن آخر العمل آخر الفكرة! ...».

وقد علق الأديب «ابن قتيبة» فى القرن الثالث الهجرى على هذا بقوله: «فأية منفعة فى هذه المسألة؟ وهل يجهل أحد هذا حتى يحتاج إلى إخراجه بهذه الألفاظ الهائلة؟!».

دار السلام ...

كانت ثورة العراق مثارا للحديث عن «بغداد»، وقد طاب لبعض الأدباء المتحدثين عنها أن يسموها «دار السلام» ...



وهذه المدينة اختطت قبل الإسلام، وقد جددها وعمرها الخليفة «المنصور» سنة ١٤٥هـ، ولم يرض أن يكون اسمها «بغداد» فسماها «مدينة السلام» أو «دار السلام»، لأن ما حوالى دجلة كان يسمى «وادى السلام» أو أن الخليفة أراد تشبيهها بالجنة التى من أسمائها «دار السلام»، وفى القرآن: «لهم دار السلام عند ربهم» ...

على أن بعض النقدة من العلماء كرهوا أن يطلق اسم الجنة على غيرها من مدائن الدنيا، فاختاروا أن تسمى «بغداد»: مدينة السلام، لا: دار السلام.

وهناك من أعلام العلماء من لم يستسيغوا هذا التزمت، فجرت على ألسنتهم تسمية «بغداد» دار السلام، ومن شعر العلامة «شهاب الدين الآلوسى» قوله:

إن بغداد جنة الأرض فيها ... كل حبـر مهـذب قمقـام
وهى فيها من السقام سلام ... ولذا سميت بدار السلام

ممثلات .. فى «خيال الظل»

معروف أن لعبة «خيال الظل» كانت شائعة فى مصر منذ العصر الفاطمى، وأنها كانت مظهرا بدائيا لفن التمثيل ...

ويبدو من وصف الشعراء لهذه اللعبة وما يجرى فيها أنها كانت مسرحا للغناء والرقص والتمثيل جميعا ...

كذلك يبدو من وصفهم أن النساء كن يشتركن فى الأداء، وقد يلوح هذا مستغربا فى عصر كان الحجاب سائدا فيه فلم تكن المرأة تسفر لجمهرة الناس، ولعل الذى سوغ للمرأة اشتراكها فى لعبة «خيال الظل» يومئذ أن التمثيل والرقص والغناء فيها كان من وراء ستار أبيض تسلط خلفه الأضواء، فتظهر خيالات



لشخوص على الستار للعيون، وإذن فلا شبهة فى حرمة، ولا استيحاء من سفور!

وحسبنا أن ننقل أبيات الشاعر «المناوى» فى وصف لاعبة بخيال الظل، كانت تؤدى دورها رقصا وغناء:

وجارية معشوقة اللهـــو أقبـلت بحسن كزهر الروض تحت كمام
إذا ما تغنت قلت شكوى صبابة وإن رقصـت قلنا حبـاب مـدام
أرتنا خيال الظل والستر دونهـا فأبدت خيال الشمس تحت غمام

طرائف الأعراب

■ حب: فى المعدة: قيل لأعرابى: «ماذا ترى فى الحب اليوم؟»؟ قال: «كان الحب فى القلب، فانتقل إلى المعدة، إن أطعمت الحبيبة صاحبها شيئا أحبها وإلا فلا، وكان الرجل يحب المرأة فيطوف بدارها حولا، ويفرح أن رأى من رآها، فإن ظفر منها بمجلس تشاكيا وتناشدا الأشعار، فأما اليوم فإنهما إذا اجتمعا لم يشكوا حبا ولم ينشدا شعرا...!».

■ خيبة أمل: حدث أعرابى عن نفسه، قال: «كنت قبيحا طويلا، وتاقت نفسى إلى الزواج، فخطبت امرأة قصيرة جميلة، ليأتى ولدى منها فى جمالها وطولى، فزوجونى إياها على هذه الصفة، فجاء الولد قبيحا مثلى قصيرا مثلها!...».

■ مال الله: ولى أحد الأمراء أعرابيا على عمل له، فأصاب منه خيانة فعزله، فلما أقدمه إليه قال له: «يا عدو الله، أكلت مال الله!» فقال الأعرابى: فمال من آكل إذا لم آكل مال الله؟ لقد راودت ابليس أن يعطينى فلسا فما فعل!...».

■ يوم القيامة: جىء بأعرابى إلى أحد الحكماء ليؤاخذه بجريمة ارتكبها فكتب الأعرابى قصته فى كتاب، ورفعه إلى الحاكم وهو يقول: «هاؤم اقرءوا كتابيه»



فقيل له: «يا أعرابى، هذه آية من القرآن تقال يوم القيامة!» فقال الأعرابى: «يومكم هذا شر من يوم القيامة، إن يوم القيامة يؤتى فيه بحسناتى وسيئاتى وأنتم جئتم بسيئاتى وتركتم حسناتى!».

صورة للنبى فى الصين

■ يقص علينا «المسعودى» فى النصف الأول من القرن الرابع الهجرى، أن رجلا من «قريش» كان يعيش فى «البصرة» وهو من أرباب النعم، وذوى الأحوال الحسنة،فلما حدثت فتنة الزنج المعروفة فى التاريخ، آثر الخروج من «البصرة» وظل يتنقل من بلد إلى بلد، حتى انتهى إلى «الصين»، وهناك أقام بباب الملك يطلب لقاءه، ويذكر أنه من بيت نبوة العرب، فأذن له ملك الصين فى الوصول إليه، وقال الملك لترجمانه: «قل لهذا العربى، أتعرف صاحبك إن رأيته؟» يعنى رسول الله صلوات الله عليه، فأجاب العربى: «وكيف لى برؤيته، وهو عند الله عز وجل؟» فقال الملك: «لم أرد هذا، وإنما أردت صورته» فقال العربى: «أجل» فأمر الملك بإحضار سفط متعدد الادراج، وتناول منه درجا، وقال للترجمان: «أره صاحبه» ويقول العربى حكاية عن نفسه: «فرأيت فى الدرج صور الأنبياء، فحركت شفتى بالصلاة عليهم، فسألنى الملك عن تحريكى لشفتى، فقلت: أصلى على الأنبياء، فقال: ومن أين عرفتهم؟ فقلت: بما هو مصور من أمورهم. هذا نوح فى السفينة بمن معه، وهذا موسى وبنو اسرائيل، وهذا عيسى بن مريم على حماره والحواريون حواليه. ويستطرد العربى فيقول إنه رأى فوق كل صورة كتابة طويلة فيها ذكر أسماء الأنبياء ومواضع بلدانهم ومقادير أعمارهم وأسباب نبواتهم وسيرهم، ثم يقول: «ثم رأيت صورة نبينا على جمل وأصحابه محدقون به، فى أرجلهم نعال



عربية من جلود الإبل، وفى أوساطهم الحبال قد علقوا فيها المساويك، فبكيت، فقال الملك للترجمان: سله عن بكائه، فقلت: هذا نبينا وابن عمنا محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم. فقال الملك صدقت».

ختان عالمى

فى منتصف القرن الرابع الهجرى، كان ختان «المعز لدين الله» لأبنائه الثلاثة...

ويروى المؤرخون أنه لما عزم على ذلك، كتب إلى ولاة البلاد التى تقع فى حوزته، من «برقة» إلى «سجلماسة»، وما بين هذين البلدين، وكذلك جزيرة «صقلية»، وسائر ما امتد إليه سلطانه من حضر وبدو، فى بحر وبر، وسهل وجبل، يأمرهم بإجراء الختان لكل من احتوتهم تلك البقاع من الأولاد، لا فرق بين حر وعبد، وأبيض وأسود، ودنىء وشريف، على اختلاف الملل والنحل، وذلك مدة شهر، وتوعد الولاة إن لم ينفذوا أمره، وطلب إليهم أن يقوموا بجميع النفقات اللازمة لهذا الإجراء، مع منح الأولاد ما يصلح أحوالهم من مطعم ومشرب وكسوة، بمقدار رتبهم ودرجاتهم، فكان ما حمل إلى جزيرة «صقلية» وحدها من المال - سوى الخلع والثياب - خمسين حملا من الدنانير، كل حمل عشرة آلاف دينار، ومثل ذلك إلى كل عامل من عمال مملكته ليفرقه على أهل ولايته. وبلغ عدد من ختن من أهل «صقليه» وحدها خمسة عشر ألف صبى، وفى بلد «المعز» نفسه كان يختن فى كل يوم من أيام الشهر اثنا عشر ألف صبى وفوقها ودونها. وقدر وزن الأكياس المفرغة مما أنفق فى هذا الختام العالمى بمائة وسبعين قنطارا.بمناسبة ختان أولاده - من شاء ومن لم يشأ من أولاد الناس فى مملكته ... ولقد حدث هذا قبل أن يفتح «المعز لدين الله» بلاد «مصر» ولذلك لم يشمل أهلها أمره الكريم!.

يغلط ليأكل

جلس الخليفة «المأمون» يستمع إلى «أبى العباس» وهو يقرأ عليه رقاعا رفعها الناس إلى الخليفة، تحوى مالهم من شكايات ومطالب. ومرت رقعة عليها اسم فلان ابن فلان «اليزيدى»، فقرأها «أبو العباس»: «الثريدى» فضحك «المأمون» وقال لخادمه: «يا غلام، هات صحفة مملوءة ثريدا لأبى العباس، فإنه جائع!» فاستحيا «أبو العباس» وقال: «ما أنا بجائع، ولكن صاحب الرقعة أحمق، نقط على الياء ثلاث نقط!».فقال «المأمون»: «ما أنفع حمقه لك!» وجيء له بالصفحة المملوءة ثريدا، فخجل أن يمد إليها يده، فقال له المأمون: «أقسمت عليك أن تميل إليها فتأكل» فاستجاب، وأكل حتى اكتفى.

ثم عاود القراءة، ومرت به رقعة عليها اسم فلان ابن فلان «الحمصى» فقرأها: «الخبيصى»، والخبيص صنف من الحلواء يعمل من التمر والسمن فقال «المأمون»: «يا غلام، هات جاما مملوءا خبيصا لأبى العباس، فإن طعامه كان مبتورا» فاستحيا «أبو العباس»، وقال: يا سيدى، صاحب الرقعة أحمق، فتح الميم، فصارت ذات سنين، فقال «المأمون»: لولا حمقه وحمق صاحبه مت من الجوع!» وجيء له بجام مملوء خبيصا، وحلف عليه «المأمون» أن يأكل ففعل.

ثم عاود القراءة متحرزا، فما غلط فى كلمة، ولا سقط بحرف، حتى انقضى المجلس ...

منشار العمر

«رضى الدين الرحبى» طبيب كان يعيش فى «مصر» منذ ثمانمائة سنة، وقد كان



طويل العمر، لم توافه منيته إلا بعد أن أتم مائة من الأعوام ...

ومما يؤثر عنه أنه كان معنيا بحفظ صحته، يلتزم فى سائر أيامه أشياء لا يخل بها أبدا، منها أنه كان يتوخى ألا يصعد فى سلم، فإذا كان له مريض يفتقده، لم يذهب إليه إلا إذا كان فى موضع لا يتطلب صعودا .. وكان يصف السلم بأنه «منشار العمر».

وقد قال لابنه يوما: «إننى منذ اشتريت هذه الدار التى أنا ساكن فيها، قبل خمس وعشرين سنة، ما أعرف أنى تركت هذه القاعة، وصعدت إلى الحجرة التى فوقها، إلا يوم استعرضت الدار واشتريتها، وكان ذلك آخر عهدى بتلك الحجرة إلى يومى هذا...».

الكهولة والشيخوخة

فيما كنت أطالع قصة ترجمها أديب مكين، قرأت الجملة التالية: «جف عوده، وخطه المشيب، حتى خلفه كهلا، ودهشت حين علمت أنه لم يجاوز الاثنين والخمسين من عمره».

وقد استعمل الكاتب كلمة «الكهل» وأراد بها الطاعن فى السن، وهو فى هذا الاستعمال مسوق بما يجرى على أقلام كثير من الكتاب، إذ يستعملون الكهولة لهذا المعنى.

والحق أن الكهولة هى اكتمال الرجولة، وهى العصر الذى يلى عصر الشباب، واللغويون يختلفون فى تحديد عمر الكهل، فمنهم من يقول بأنه من الثلاثين إلى الأربعين، ومنهم من يمده إلى تمام الخمسين.

وإذن فالكهولة دون الشيخوخة والهرم، ولكن جمهرة الناس يحسبون الكهل أسن



من الشيخ، وهذا الحسبان وهم لغوى لا ترضاه فصاحة التعبير.

كاتب «الحجاج»

كان «الحجاج» والى «العراق» فى عهد الدولة الأموية، وقد خدم اثنين من خلفائها، هما «عبد الملك» وابنه «الوليد». وكان «سليمان بن عبد الملك» ناقما عليه، ولكنه لم يتول الخلافة إلا بعد موت «الحجاج». فلما تولى الخلافة أراد أن ينتقم منه فى شخص كاتبه «يزيد»، فاستدعاه اليه، وكان قصيرا دميما عظيم البطن، فقال له: «لعن الله من اشركك فى أمانته، وولاك عمله!» فقال «يزيد»: «لا تقل هذا يا أمير المؤمنين، فإنك رأيتنى والأمور مدبرة عنى، ولو رأيتنى والأمور مقبلة على، لاستعظمت منى ما استصغرت!» فقال «سليمان» لجلسائه: «قاتله الله، ما أشد عقله، وأحد لسانه!» ثم قال «ليزيد»: «أترى صاحبك «الحجاج» يهوى بعد فى نار جهنم، أم سقط إلى قرارها؟» فأجاب «يزيد»: «لا تقل ذلك يا أمير المؤمنين، فإن «الحجاج» كان يعادى من يعاديكم، ويوالى من يواليكم، وقد بذل مهجته لكم، فهو يوم القيامة يحشر عن يمين أبيك «عبد الملك»، وعن يسار أخيك «الوليد»، فاجعله من الجنة أو النار حيث شئت!».

واعجب «سليمان بن عبد الملك» بذلك الرجل الذلق اللسان، والقوى الحجة، وكشف عن أمره، فلم يجد عليه خيانة، لا درهما ولا دينارا، فعزم على أن يستكتبه، فقال له «عمر بن عبد العزيز»: «أنشدك الله يا أمير المؤمنين ألا تحيى ذكر «الحجاج» باستخدامك كاتبه» فقال سليمان: «إنى كشفت عنه، فلم أجد عليه خيانة فى درهم أو دينار!» فقال «عمر»: «أنا أوجدك من هواعف منه فى شأن الدراهم والدنانير!» فقال «سليمان»: «من هو؟» قال «عمر»: هو ابليس، مامس



درهما ولا دينارا بيده، وقد أهلك الخلق!»

فأمسك «سليمان» عن أن يصطنع كاتب «الحجاج».

لا عزاء للسيدات

لا تكاد صحيفة يومية تخلو فى باب الوفيات من قول النعاة: «ولا عزاء للسيدات». والذين يكتبون هذا يعنون أنهم لايعقدون مجلسا للنساء، فهم يعفونهن من الحضور للمواساة.

واللغة تعرف من معنى «العزاء» أنه «الصبر»، فكأن هؤلاء الكاتبين يقولون: «ولا صبر للسيدات»! وربما كان حقا أن السيدات ليس عندهن صبر، ولكن هذه الحقيقة ليست من غرض الكاتبين حين يستعملون تلك الجملة فى المناعى.

وليس من المستحيل تخريج الجملة وتوجيهها وجهة تدنيها من الصواب، فيقال مثلا أن المقصود بالعزاء: مجلس العزاء، أى: لا يقام مجلس للعزاء، بيد أن فى هذا من التكلف ما فيه.

وصواب هذا التعبير يسير، وهو أن تستعمل كلمة «التعزية» مكان كلمة «العزاء»، والتعزية هى الدعوة إلى العزاء، أى الصبر، واذن يقال: «لا تعزية للسيدات».

ولكن الويل للصواب المهجور من الخطأ المشهور.

دفاع عن الحقد

سخط «الرشيد» الخليفة العباسى على رجل من كبراء «بنى هاشم»، هو «عبد



الملك بن صالح»، وألقى به مقيـــدا فى الحبس.

ويوما كان «الرشيد» فى مجلسه، وعنده «الاصمعى» و«يحيى بن خالد البرمكى» فأمر «الرشيد» باستدعاء ذلك الرجل الحبيس، فجاء يرفل فى قيوده، وأخذ يجادله، فأراد «يحيى البرمكى» أن يضع من مقام «عبد الملك» عند «الرشيد» فقال له: «بلغنى أنك حقود!» فأجابه الرجل: «أصلح الله الوزير، إن يكن الحقد هو بقاء الخير والشر عندى، انهما لباقيان فى قلبى!»، فالتفت «الرشيد» إلى «الاصمعى»، وقال له: «يا أصمعى حررها (أى سجلها) فوالله ما احتج أحد للحقد بمثل ما احتج به «عبد الملك»، فلا تفتك مقالته!».

وأغلب الظن أن كلمة ذلك الرجل الهاشمى هى التى أوحت من بعد إلى الشاعر «ابن الرومى» أن ينظم بيتيه الرائعين فى الدفاع عن الحقد، وهما قوله:

وما الحقد إلا توأم الشكر فى الفتى

وبعض السجايا ينتســبن إلى بعــض

فحيث ترى حقــدا على ذى مســاءة

فثم ترى شكرا على واسع القــرض

الفالوذج

من الألوان المشهورة فى الحلوى، ذلك اللون الذى نسميه فى اللهجة العامية المصرية: «البالوظة».

ولو أراد كاتب أن يكتب اسم هذه الحلوى لعدل عن استعمال هذا اللفظ العامى الشائع، وقال: «الفالوذج» كما هى فى كتب اللغة والأدب القديم.

والكلمتان من أصل واحد، هو اللغة الفارسية، والكلمة العامية أقرب إلى ذلك



الأصل الفارسى من التعريب الذى سجلته الكتب اللغوية والأدبية فى العصور المواضى.

فالفرس ينطقون الكلمة «بالوذة»، وأول حروفها باء تنطق بين الباء والفاء، أو على تعبير بعض اللغويين: باء مخلوطة بالفاء، وآخر حروفها هاء ساكنة على أصل اللسان الفارسى، ومن حروفها الذال المعجمة، كما فى الكثير من كتب اللغة، ولكن «الشيرازى» اللغوى يقول أن الأصل «بالودة» بالدال المهملة.

ولما عرب العرب هذه الكلمة، جعلوا الحرف المترجح بين الباء والفاء: فاء، وجعلوا الدال: ذالا: ثم جعلوا الهاء الأخيرة: جيما. وبعضهم جعلها: قافا، فقال: فالوذق!

وعندى أننا لو قلنا: «البالوذة»، لحققنا غرضين: الأول القرب من أصل الكلمة الفارسى، والآخر القرب من الاستعمال الدارج على ألسنة الناس جميعا.

وفى ميدان التعريب متسع للجميع!

كريم بالوراثة

الكرم سجية فى العرب أصيلة، والعرب هم الذين اشتهر فيهم «حاتم الطائى» بكرمه البالغ، وهم الذين ضربوا به الأمثال السائرة، فهو إذن أكرم قومه الكرماء.

ويبدو أن أم «حاتم» هى التى أرضعته بلبانها هذه الفضيلة، وهى التى أورثته إياها، فطار له فى الكرم ذلك الصيت البعيد.

وأم «حاتم» اسمها «عتبة»، وقد توافر لها الثراء، فلم تكن تمسك يدها عمن يقصدها فى طلب العون، وأسرفت فى ذلك إسرافا عرفه اخوتها عنها، فخافوا أن يفضى بها الإنفاق إلى اتلاف المال، فتعيش فى ضنك، ولذلك استولوا على ما تملكه



من الإبل، وحجروا عليها، فلما تبين لهم أنها تألمت لما تجده من الحاجة، أطلقوا لها طائفة من إبلها، فجاءتها امرأة كانت تسألها فى كل سنة إحساناً، فما لبثت «عتبة» أن قالت للمرأة: «دونك هذه الإبل، فامضى بها، فوالله لقد عضنى الجوع، وذقت طعم الحرمان، فما أطيق أن أرد سائلا ...» وأنشأت تقول:

لعمرك انى عضنى الجوع عضة فأقسمت إلا أمنع الدهر جائعا
فقولوا لهذا اللائمى اليوم اعفنى وإن أنت لم تفعل فعض الاصابعا
فماذا ترون اليـــوم إلا طبيعـــة فكيف بتركى فى الحياة الطبائعا

وعلى هذا النهج كانت سيرة «حاتم» فى الناس، متأثرا بما كان لأمه فى ميدان الكرم من أثر مشهود!

وفاء المحبين

يتفنن المحبون فى التعبير عن وفائهم، إرضاء لقلوبهم العامرة بالحب، وأشدهم حيرة فى التفنن من يريدون التعبير عن الوفاء لحبيب راحل فالوفاء هنا للذكرى وللروح!

هذه «لبنى» صاحبة «قيس بن ذريح» ظلت على عهدها له، وبلغت من الوفاء فى حبها أنها نذرت نذرا عجيبا وعملت على تحقيقه، وذلك أنها لا ترى غرابا إلا قتلته، إذ كان حبيبها «قيس» يتشاءم بمرأى الغراب!

وتلك أعرابية فى البادية، صادفها «الأصمعى» فى بعض أسفاره، وراعه منها أنها لا تتكلم أبداً، فسأل من حولها: «أخرساء هى؟» فأجابوه: «لا، ولكن كان زوجها معجبا بنغمتها، فلما توفى عنها، أطبقت فمها، فما تتكلم بعده، وإنما تكتفى بالاشارة حين تقتضيها الضرورة أن تفعل!».



تصفيق قديم

أصبح «التصفيق» دلالة عالمية على الاستحسان، فى شتى المجالس والمحافل، لمختلف المناسبات فإلى أى زمن ترجع هذه الدلالة؟ لاريب فى أنها ترجع إلى عهود بعيدة، وفى أخبار الدولة الأموية والدولة العباسية نعثر على تصفيق قديم!

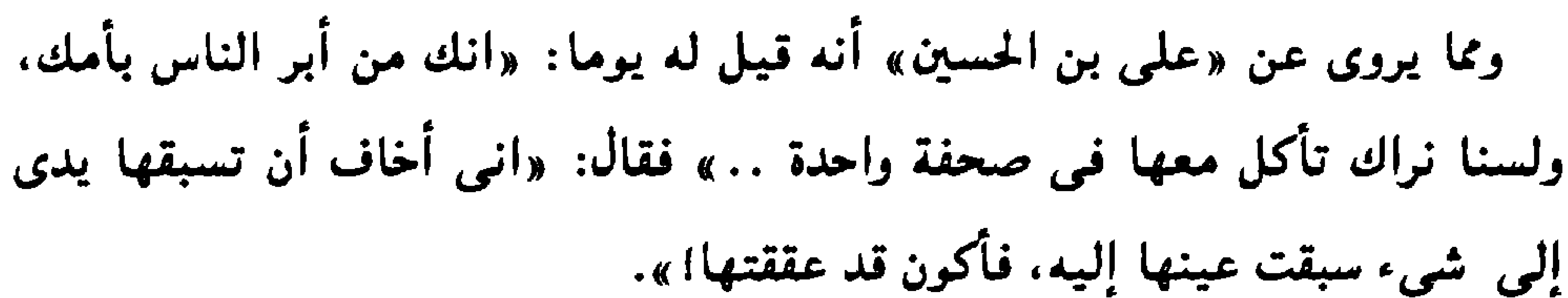
ففى كتاب «الشعر والشعراء» يحدثنا «ابن قتيبة» أن الشاعر الراجز «أبا النجم العجلى» أنشد «هشاما» رجزا له، ثم يقول: «وهشام يصفق بيديه استحسانا».

وفى كتاب «مروج الذهب» يحدثنا «المسعودى» فى أخبار «المتوكل» أنه كان يستمع إلى مغنية تسمى «محبوبة» بعد جفوة كانت بينه وبينها، ويقول الراوى: «فصفق المتوكل طربا، وصفقت معه».

فالتصفيق كان منذ أبعد العهود، للطرب وللاستحسان، والانسان من قديم هو الإنسان!

أبناء بررة

دخل السجن «يحيى البرمكى» وابنه «الفضل»، وذلك على عهد «الرشيد»، وكان من عادة «يحيى» ألا يتوضأ إلا بماء مسخن، فمنعهما السجان من إدخال الحطب فى ليلة باردة، فانتظر «الفضل» حتى نام أبوه، ثم نهض إلى قمقم كان يسخن فيه الماء، فملأه ثم أدناه من المصباح، فلم يزل قائما والقمقم فى يده حتى أصبح وقد سخن الماء، فلما استيقظ أبوه من نومه، وهم بأن يتوضأ، وجد الماء سخنا!.



ومما يروى عن «على بن الحسين» أنه قيل له يوما: «انك من أبر الناس بأمك، ولسنا نراك تأكل معها فى صحفة واحدة ..» فقال: «انى أخاف أن تسبقها يدى إلى شىء سبقت عينها إليه، فأكون قد عققتها!».

وقيل «لعمر بن ذر»: «كيف كان بر ابنك بك؟» قال: «ما ماشيته قط نهارا إلا مشى خلفى، ولا ماشيته ليلا إلا مشى أمامى، ولا رقى سطحا وأنا تحته!».

خبر ظريف

حدث «أبو نصر» عن نفسه، قال:

«رأيت أبا نواس يوما، وهو يكنس مسجدا، فهالنى الأمر، وعجبت لذلك الشاعر الماجن المعروف بالمنكرات: كيف أراه على هذه الصورة؟ فقلت له: «ما هذا يا أبا نواس؟» فأجابنى:

«أردت أن يرفع إلى السماء فى هذا اليوم خبر ظريف»!

اللحم ... بين الأطباء والأدباء

يرى الاطباء ان اللحم يحل محل الانسجة التى تتلف من الجسد بسبب ما يبذل من جهد.

ومن عجب أن أخيله الأدباء تسبق أحيانا حقائق العلماء، فهذا هو الاديب الناقد «أبو هلال العسكرى» الذى كان يعيش فى القرن الرابع الهجرى، يقول فى كتابه «ديوان المعانى» ما نصه:

«حاجة الإنسان إلى الطعام، إنما هى من أجل ما يأخذ الهواء من جسده،



فيحدث فيه خلل، فإذا أكل اللحم، فقد رم الجسد بما هو من جنسه، فكأنه رقع الديباج بالديباج!»

وهكذا يعبر «العسكرى» تعبيرا أدبيا فيه مسحة الخيال عن حقيقة علمية، ولعل تعبيره لا يختلف فى جوهره عما يقول به الطب الحديث!

البقاء للأصلح !

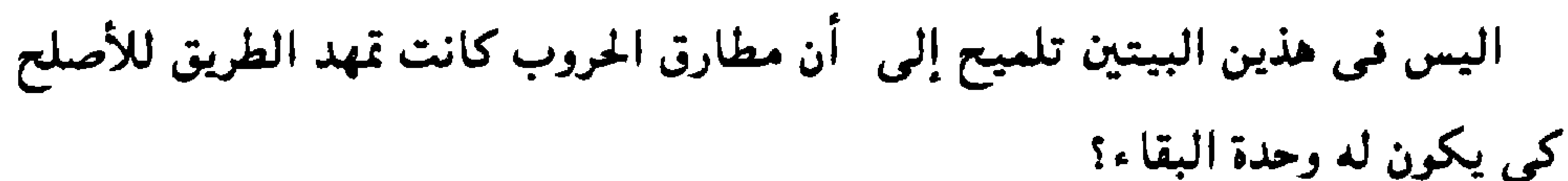
يتنادى الباحثون الاجتماعيون فى العصر الحديث بأن الحروب كانت ضرورية للمجتمع البشرى، إذ كان فيها تمحيص للكتل البشرية وانتخال لما فيها من قوة على مسايرة ركب الحياة فى تقدمه إلى الامام، وذلك طوعا لنظرية طبيعية، هى نظرية: البقاء ... للأصلح!

والعرب القدامى يقولون فى أمثالهم: «بقية السيف أنمى عددا» ومعنى المثل لا يحتاج إلى مزيد بيان، فالمقصود ببقية السيف من يخرجون من الوقائع والمعارك سالمين، وهؤلاء أشد نماء وازدهارا على الأيام.

وفى الشعر الجاهلى ما يتضمن هذا المعنى أيضا، فالرواة ينقلون لنا قصيدة «عفيرة» التى أرادت تحميس قومها وإغراءهم بمحاربة «عمليق» الذى كان ينتهك أعراض أولئك القوم، ومن قولها فى تلك القصيدة:

ولا تجزعوا للحرب يا قوم اننا
نقوم لاقوام مـــرارا على رجــــل

فيهلك فيها كل وغـد موكــــل
ويسلم فيها ذو التجارب والفضل



اليس فى هذين البيتين تلميح إلى أن مطارق الحروب كانت تمهد الطريق للأصلح كى يكون له وحدة البقاء؟

هذا عذره

كان الأمير «معن بن زائدة» يقدم ابن أخيه «يزيد» على أولاده، ويحتفى به أكثر مما يحتفى بهم، فعاتبته فى ذلك زوجته، فقال لها: «سأريك ما تبسطين به عذرى فى تفضيل ابن أخى على أولادى»

ولما جن الليل، طلب الأمير إلى خادمه أن يدعو أولاده إلى مجلسه، فلم يلبثوا حتى جاءوا فى الغلائل المطيبة، والنعال المزركشة، فسلموا، وجلسوا.

وقال الأمير لخادمه: «ادع ابن أخى يزيد».

فلم يلبث أن حضر «يزيد» عجلا، وعليه سلاحه، فوضع رمحه بباب المجلس، ثم دخل، فقال له عمه: «ما هذه الهيئة؟» فأجاب: «جاءنى رسول الامير، فسبق وهمى إلى أنه يريدنى لمهم من الأمر، فلبست سلاحى، وقلت: إن كان الأمر كما توهمت، مضيت لما يريده؛ وان كان غير ذلك فإن نزع السلاح من أيسر الأشياء»!

هنا رغب الامير إلى أولاده والى ابن أخيه فى الانصراف، فلما مضوا عنه، التفت إلى زوجته، يقول لها: «أما زلت عاتبة على فى تقديم ابن أخى على أولادى؟»

قالت: «قد استبان لى عذرك!»

معنى الكرامة

حدث «الاصمعى» عن نفسه قال: «مررت بكناس فى البصرة يكنس بعض



النواحى، وهو يتغنى بقول الشاعر:

وأكرم نفسى اننى إن أهنتها   وحقك لم تكرم على أحد بعدى

فعجبت من كناس يتغنى بالكرامة، وأقبلت عليه أقول: «والله ما يكون من الهون شيء أكثر مما بذلت نفسك له، فبأى شيء أكرمت نفسك؟»

فأجاب الكناس: «والله إن من الهوان لشرا مما أنا فيه»

فقلت: «وما هو؟»

قال: «الحاجة إليك وإلى أمثالك من الناس!»

فانصرفت عنه، وأنا أجد خزيا لا يجده أحد ...».

ارفع رأسك

كان «عمر بن الخطاب» يرى أن التدين الحق يقتضى الجد فى الحياة، وكان يحب من الرجل المتدين ألا يفرط فى التخشع، ولا يبالغ فى إظهار علامات التنسك.

وقد رووا عنه أنه رأى فى طريقه رجلا مطأطئا رأسه، فاستوقفه، وقال له: «ارفع رأسك، فإن الإسلام ليس بمريض».

وكذلك رووا عنه أنه نظر يوما إلى رجل يظهر النسك، ويتماوت، فلوح له بالسوط في يده، وقال له: «لاتمت علينا ديننا، أماتك الله!»

أشيــــاء

اختلف علماء النحو فى كلمة «أشياء»، ولماذا هى ممنوعة من الصرف، لا يدخلها التنوين؟



ويقص علينا «ابن الجوزى» أن أحد الوعاظ وقف فى مسجد ينصح للناس فى مسائل من الدين. فسأله بعض من يستمعون إليه: «لماذا لم تنصرف أشياء؟».

فلم يفهم الواعظ ما قصد إليه السائل، وسكت هنيهة، ثم صاح قائلا: «أنت تسأل سؤال الملحدين، فقد نهانا الله أن نسأل عن أشياء، وذلك فى كتابه الكريم، إذ يقول: «يأيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء».

بين الأدب والعلم ..

لم يعد مفهوم الأدب اليوم، أن يقتصر على دراسة الآثار البليغة فى الشعر والنثر، فلابد أن يلم الأديب بثقافة عصره وحضارة مجتمعه ليكون أدبه تعبيرا حيا.

وأدباؤنا القدامى كانوا يرون هذا الرأى، ويفرقون بذلك بين الأديب والعالم، فالأديب يجب أن يتناول كل شىء، والعالم هو الذى يختص بشىء.

فهذا «عبد الله بن مسلم بن قتيبة» يقول: «من أراد أن يكون عالما فليطلب فنا واحدا، ومن أراد أن يكون أديبا فليتفنن فى جميع العلوم».

وذلك «ياقوت» ينقل هذا النص: «والفرق بين الأديب والعالم أن الاديب من يأخذ من كل شيء أحسنه فيألفه، والعالم من يقصد إلى فن من العلم فيتعلمه».

وممن دعا إلى التخصص فى العلم «الخليل بن أحمد» إذ يقول: «اذا أردت أن تتعلم العلم لنفسك، فاجمع من كل شيء شيئا، واذا أردت أن تكون رأسا فى العلم فعليك بطريق واحد ...».

كرسى المصحف

فى المساجد حتى يومنا هذا، كراس توضع عليها المصاحف عند فتحها للتلاوة،



وكرسى المصحف فى صورته الحاضرة لوحان من الخشب يتشابكان بما يشبه المفاصل من خشب اللوحين.

وكرسى المصحف على هذه الصورة هو الذى يصفه شاعر مصرى اسمه «ظافر بن القاسم»، توفى فى القرن السادس الهجرى، إذ يقول فى وصفه على لسان الكرسى:

انظر بعينيك فى بديع صنائعى   وعجيب تركيبى وحكمة صانعى
فكأننى كلا محب شبكت   يوم الفراق أصابعا بأصابع

حامل الأسرار

كان «الجاحظ» يتتبع طبائع الناس فى شئونهم الاجتماعية، ويصورهم فى هذه الطبائع تصويرا فكها، ولكنه صادق عميق. ومن ذلك ما حدثنا به عن طبيعة إفشاء السر، وضيق الصدور بما تحمل من أمانة الأخبار والحكايات، وقد صور لنا الفيلسوف العربى «إبراهيم النظام» بأنه كان أضيق الناس بحمل سره، وأنه كان أشد ما يكون ضيقا بذلك إذا أكد عليه صاحب السر، فإذا لم يؤكد عليه، فربما نسى القصة، وبذلك يسلم صاحب السر من إفشاء سره. ويحكى لنا «الجاحظ» أن رجلا اسمه «قاسم التمار» قال مرة للفيلسوف «النظام»:

«سبحان الله .. ما فى الأرض أعجب منك. أودعتك سرا، فلم تصبر على إفشائه يوما واحدا. والله لأشكونك إلى الناس!».

فقال «النظام» لمن حوله: «يا هؤلاء سلوه، هل أفشيت له سره مرة أو مرتين أو ثلاثا أو أربعا؟ فعلى من الذنب؟!».

ويعلق «الجاحظ» على ذلك بأن «النظام» الفيلسوف لم يرض أن يشارك صاحب السر فى ذنب الإفشاء، وإنما صير الذنب كله لصاحب السر، إذ لم يحتفظ بسره



لنفسه خاصة، فأودعه غيره، تخلصا منه، ثم جاء يلومه على أنه أفشاه!

حيلة للمحاباة

الشاعر العباسى «ابن هرمة» كان لا يستطيع الامساك عن شرب الخمر، وكان يقيم فى «المدينة» فإذا شرب وسكر، أخذه رجال الشرطة إلى الوالى، فأقام عليه الحد الشرعى، وهو الجلد. ماذا يصنع «ابن هرمة» ليضمن لنفسه حرية الشرب، ويسلم من أن يجلد؟

وفد على الخليفة «المنصور» يمدحه بقصيدة غراء، فقال له الخليفة: «سل حاجتك» قال: «يا أمير المؤمنين، تكتب إلى عاملك فى المدينة ألا يقيم حد السكر فى، إن وجدنى سكران» فقال «المنصور» «هذا حد من حدود الله، وما كنت لأعطله، فهل من حاجة غيره؟» قال: «لا والله يا أمير المؤمنين، فاحتل لى بحيلة!».

ولم يعدم الخليفة «المنصور» حيلة يحقق بها رغبة الشاعر ...

وكانت الحيلة التى تحولها الخليفة أنه كتب إلى والى المدينة ما يأتى: «من أتاك بابن هرمة وهو سكران فاجلده مائة جلدة، واجلد ابن هرمة ثمانين!» فرضى «ابن هرمة» بهذا الكتاب. ومضى به إلى المدينة.

فكان رجال الشرطة إذا مروا بهذا الشاعر السكير، وهو صريع من السكر، قال بعضهم لبعض: «من يشترى ثمانين جلدة بمائة جلدة!» واعرضوا عنه ...

التقييم والتقويم

شاعت فى الايام الاخيرة كلمة «التقييم» بمعنى بيان قيمة الشىء، فيقولون:



«هذا تقييم جديد للمشكلة»، و«ذلك تقييم حديث لنظرية المعرفة»، وقد لاحظت - كما لاحظ غيرى من نقاد اللغة - ان هذا التعبير لا تقره قواعد الصرف، فإن «التقييم» مأخوذ من كلمة «القيمة» وهى واوية الأصل، فعلها «قوم»، وإذن فالصواب أن يقال: «التقويم»، لا «التقييم». ذلك ماكنا نقول، ولكن الحق أن نقاد اللغة الاقدمين كانوا يلجأون إلى التخريج والتعليل حين يشيع استعمال أو صيغة على غير قواعد الصرف والاشتقاق، مادامت حاجة التعبير تدعو إليهما.

يقول «المتنبى»:

وقد يتزيا بالهوى غير أهله ويستصحب الإنسان من لا يلائمه

وقد اعترض «ابن جنى» على قوله «يتزيا»، إذ الصواب «يتزوى» لأنه من «الزى» وأصله «زوى»، وقال «للمتنبى»: «هل عرفت فى اللغة: يتزيا، أو وجدته فى كتاب قديم؟»فأجاب: «لا» فقال له: «فكيف تقدم عليه؟» فأجاب: «جرت به عادة الاستعمال!» فقال «ابن جنى»: أترضى بشىء تورده العامة؟».

وانتصر نقاد اللغة «للمتنبى» وعللوا قوله «يتزيا» بأنه قلب الواو ياء للتخفيف، وذلك مثل قول العرب، ديموا، أى أصابتهم الديمة، وهى المطر الدائم وأصلها من دام يدوم، ولكن لما رأوا «الديمة» بياء انسوا بها وأخلدوا إليها، لخفتها، وكذلك قال العرب: عيد وأعياد، وكان القياس أن يقولوا: أعواد، وقالوا: التعييد، وقياسه التعويد، وصغروه على «عييد» وقياسه «عويد» لأن الأصل: عاد يعود، فمن الخير أن نقول: «التقييم»، لبيان القيمة، ونترك «التقويم» لمعنى إصلاح المعوج.

الإنسانية فى الأدب

لم يشق الأدب بشىء قدر ما شقى بفكرة العنصرية والتعصب، وقليلا ما نلمح



روح الإنسانية فى تقدير الأثر الأدبى على وجه عام، وبين أدباء العرب فى العصور الخوالى من كانت عندهم تلك النزعة الإنسانية الشاملة فى النظر إلى الأدب، ومن هؤلاء «ابن قتيبة» فى القرن الثالث الهجرى، إذ يقول وهو يختار من مختلف الأشعار:

«لم أسلك فيما ذكرته من شعر كل شاعر سبيل من قلد، أو استحسن باستحسان غيره، ولا نظرت إلى المتقدم منهم بعين الجلالة لتقدمه، والى المتأخر بعين الاحتقار لتأخره، بل نظرت بعين العدل إلى الفريقين، وأعطيت كلا حظه، ووفرت عليه حقه، فإنى رأيت من علمائنا من يستجيد الشعر السخيف لتقدم قائله، ويضعه فى المتخير منه، ويرذل عنده الشعر الرصين، ولا عيب له عنده إلا انه قيل فى زمانه، أو أنه رأى قائله ... ولم يقصر الله العلم والشعر والبلاغة على زمن دون زمن، ولا خص به قوما دون قوم، بل جعل ذلك مقسوما بين عباده فى كل دهر، وجعل كل قديم حادثا فى عصره، وكل شريف خارجيا فى أوله، فقد كان «جرير» و«الفرزدق» و«الأخطل» وأمثالهم يعدون محدثين، ثم صار هؤلاء قدماء عندنا، ببعد العهد منهم...».

الخط العربى فن

فى هذه الأيام التى يدور فيها الحديث حول الكتابة العربية وتيسيرها نرى الباحثين المحافظين على التراث العربى يشفقون أن يتجه التفكير إلى تغيير الكتابة، فنفقد الخط العربى الذى صقلته العصور والأحقاب، وجعلت منه فنا جميلا.

والواقع أن جمال الخط العربى وفنيته أمران يشهد لهما الذوق السليم عند مختلف الأمم ... والعجيب أن بعض الأمم التى لا تتكلم العربية ولا تعرف الخط



العربى، تتخذ من نماذج هذا الخط حلية وزينة، وتجد فيه متعة العين.

كتب الخليفة «المأمون» بعض رسائل إلى ملك الروم بالعربية بخط فنان اسمه «الاحول»، وقد بقيت هذه الرسائل فى بلاد الروم حتى شهدها سفير عربى زار تلك البلاد فى يوم عيد، فإذا هم قد علقوا تلك الرسائل للزينة على باب أحد المعابد.

وفى أيام الخليفة «المعتمد» وصلت رسائل إلى ملك الروم بخط فنان اسمه «سليمان بن وهب»، فلما رآها قال: «ما رأيت للعرب أحسن من هذا الشكل، وما أحسدهم على شىء حسدى إياهم عليه»

ويقول راوى الخبر الذى نقله صاحب «أدب الكتاب»: «أن ملك الروم لا يقرأ الخط العربى، وانما راقه اعتداله وهندسته وحسن موقعه ومراتبه ...».

العقد

يقول الكتاب: «هو فى العقد الثالث أو الرابع من العمر» يعنون أنه فى العشرة الثالثة أو الرابعة من سنيه فما صواب نطق «العقد»: أبفتح العين أم بكسرها وما معنى العقد؟

أما الأقدمون فقد نطقوا «العقد» بفتح العين، ومعنى العقد عندهم: ثنى الاصابع للحساب، ولما كانت عدة أصابع اليدين عشرا، فقد أصبح معنى العقد أنه عشر سنين. والعلماء يعتبرون «العقد» مرادفا للحساب، وهو فى عرفهم واحد من الدلالات الخمس، وهى: اللفظ، والخط، والإشارة، والعقد، والحال.

هذا ما أثبتته اللغة والعلم فى عصور العربية الماضية، وهو يقضى بأن ينطق «العقد» بفتح العين، إذ لا معنى لنطقه بكسرها إذا أريد به العد والحساب.



ولكن ماذا يمنع من أن يقال «العقد» بكسر العين حملا على معنى آخر للكلمة؟ لماذا لا يحمل على تشبيه مجموعة السنين العشر بعقد من العقود المنظومة فيه عشر حبات؟

إذا حمل على هذا كان تعبيرا جديدا، لا تأباه العربية، وإن لم تعرفه فى عصورها الخالية ...

بخل الشعراء

ينظم الشاعر ما تجود به قريحته، فيكون منه الجيد والردىء، ويتعلق النقاد برديئه يوسعونه ذما ولوما ... وربما جمع الشاعر شعره فلا يسقط منه إلا القليل، إما رغبة فى التكاثر، وإما ضنا منه بجهد بذله، أو عجبا منه بما نظم، أو لأن بنات الأفكار كفلذات الأكباد لا يهون منها شىء و«المبرد» العالم الناقد كان يتمنى للشاعر «أبى تمام» أن يسقط الردىء من شعره، حتى يسلم من النقد، وهو يعلل حرص الشعراء على الاحتفاظ بشعرهم كله، فيقول فى محاورة بينه وبين بعض معاصريه: «لأبى تمام استخراجات لطيفة، ومعان ظريفة، وجيدة أجود من شعر البحترى ومن شعر من تقدمه من المحدثين، وشعر «البحترى» أحسن استواء من «أبى تمام» لأن «البحترى» يقول القصيدة كلها فتكون سليمة من طعن طاعن أو عيب عائب، و«أبو تمام» يقول البيت النادر، ويتبعه البيت السخيف، وما أشبهه إلا بغائص البحر، يخرج الدرة والحصاة فى نظام واحد، وإنما يملكه هو وكثير من الشعراء البخل بأشعارهم، وإلا فلو أسقط من شعره ما أنكر منه لكان أشعر نظرائه....».



لماذا يحبون الحياة

لم يألف الكتاب فى أدعيتهم أن يظهر منهم حب الحياة، وان يبدوا فى طول العمر، فهم يستنكفون من ذلك فى الدعاء لأنفسهم، وإنما المألوف منهم أن يكون دعاؤهم طلبا للهداية والتوفيق، أو حسن الختام.

بيد أن هناك من يخرج على المألوف، ويعلل ذلك بفلسفة ذلك هو «المسعودى» المؤرخ يقول فى كتابه «المروج» يفسح الله لنا فى البقاء، ويمد لنا فى العمر، ويسعدنا بطول الأيام فنعقب تأليف هذا الكتاب بكتاب آخر ...».

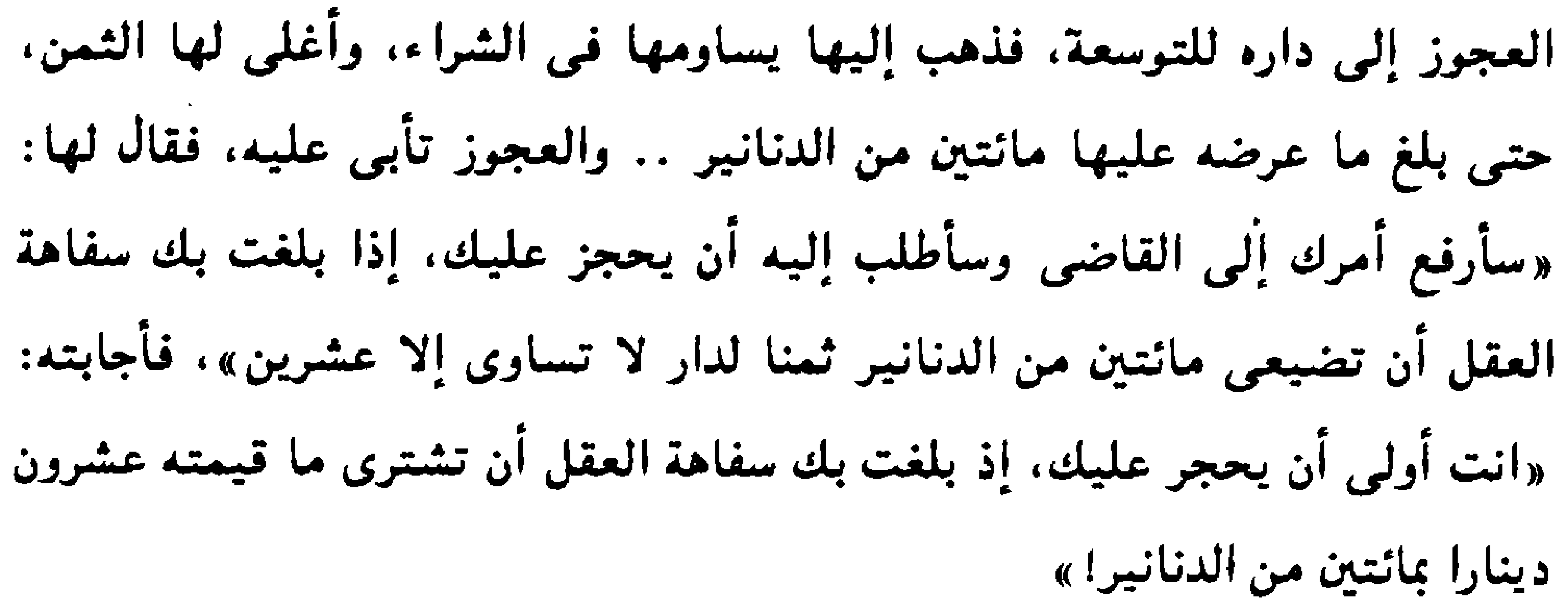
أما «ابن الجوزى» - وهو من أكثر العلماء تأليفا - فقد كان شرفا يجدر بالمرء أن يستطيله ويغتنمه، فهو يقول: «الله الله فى مواسم العمر، والبدار البدار قبل الفوات، فنافسوا الزمان، نسأل الله أن يعرفنا شرف أوقات العمر ...».

وهو ينعى على الزاهدين فى طول البقاء، ويجهر بقوله: «اللهم بلغنى آمالى من العلم والعمل، وأطل عمرى لأبلغ ما أحب».

وأنه ليصف نفسه - وهو فى السبعين من عمره - فيقول: «خلقت ولى همة عالية، تطلب الغايات، بلغت السن وما بلغت.. فأخذت أسأل تطويل العمر، وتقوية البدن، وبلوغ الآمال ...».

أيهما السفيه ؟

يقص علينا العاملى فى «كشكوله» أن بعض أكابر «البصرة» بنى دارا حسنة وكان فى جوارها دار تساوى عشرين دينارا، لامرأة عجوز، فأراد أن يضم دار


العجوز إلى داره للتوسعة، فذهب إليها يساومها فى الشراء، وأغلى لها الثمن، حتى بلغ ما عرضه عليها مائتين من الدنانير .. والعجوز تأبى عليه، فقال لها: «سأرفع أمرك إلى القاضى وسأطلب إليه أن يحجز عليك، إذا بلغت بك سفاهة العقل أن تضيعى مائتين من الدنانير ثمنا لدار لا تساوى إلا عشرين»، فأجابته: «انت أولى أن يحجر عليك، إذ بلغت بك سفاهة العقل أن تشترى ما قيمته عشرون دينارا بمائتين من الدنانير!»

فلم يحر الرجل جوابا، وبقيت الدار فى يد العجوز ...

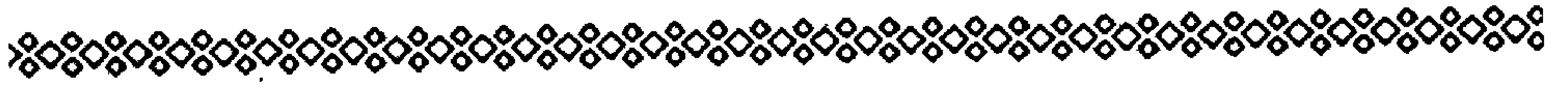
الطعام والكلام

كان العرب ينصحون بترك الكلام على الطعام، وينقل لنا «الجاحظ» عن ملوك «آل ساسان» فى بلاد الفرس أنهم كانوا إذا قدمت موائدهم لم ينطق منهم ناطق بحرف، حتى ترفع الموائد، فإن إضطروا إلى كلام، كان مكانه إشارة أو إيماءة، وكانوا يقولون: ان هذه الاطعمة سر الحياة، فلزام على الإنسان أن يجعل ذهنه فى مطعمه، ويشغل به روحه وجوارحه، حتى تأخذ كل جارحة قسطها منه!

وقد ذكروا أن الطبيب الاقدم «كيومرث» هو أول من أمر بالسكوت عند الطعام، لكى تسكن النفس، ومتى شغل الإنسان عن طعامه بضرب من الضروب، كان ذلك منه تركا للحكمة،وخروجا عن الصواب.

خليفة ... أمي

كان الخليفة العباسى «المعتصم» أميا، وذلك لأنه ضاق فى صغره بالتعليم فى



المكتب، ويروون أن «الرشيد» سمعه يوما يقول حين بلغه وفاة صبى من أترابه: «لقد استراح من المكتب!» فقال له «الرشيد»: «أو قد بلغت منك كراهة المكتب هذا المبلغ؟» وأمر بإخراجه منه، وإعفائه من الدرس فيه ...

ومما يذكر من حديث «المعتصم» أنه لما تولى الخلافة، ورد عليه كتاب من صاحب البريد بالجبل يصف فيه خصب السنة، وقد جاءت فى الكتاب هذه العبارة: «وفيه كثر الكلأ»، وكان للخليفة كاتب اسمه «أحمد بن عمار» يقرأ له الكتب، فسأله الخليفة: «ما الكلأ؟» ولم يكن الكاتب يعرف أن الكلأ هو العشب، فقال: «لاأدرى!» فقال الخليفة: «إنا لله وإنا إليه راجعون، خليفة أمى، وكاتب أمى!».

حول الكعبة

تؤثر عن الأعراب طرائف فى فى كل منحىً من مناحى الحياة، ذلك لأنهم يمثلون فى تصرفاتهم وتعبيراتهم سذاجة الفطرة، وصراحة القول. وإذا كان أهل الظرف من الأدب قد صنعوا طرائف أعرابية فلا شك فى أنهم قد صنعوها على مثال ما سمعوا من الأعراب، حتى تصور مالهم من شمائل وطباع.

ولقد كانت للأعراب طرائف حول الكعبة ...

منها أن أعرابيا أراد أن يحج، فدخل مكة مسرعا قبل سائر الناس، وعجل إلى الكعبة يتعلق بأستارها، وهو يقول: «اللهم اغفر لى قبل أن يزدحم عليك طلاب المغفرة!»

ومن طرائفهم أن أعرابيا وقف عند المشعر الحرام يدعو الله قائلا: «اللهم اغفر لى وحدى!»

فقيل له: «لو عممت بدعائك، فإن الله واسع المغفرة!».



فقال: «اكره أن أثقل على ربى!».

ومما ينقل عن الأعراب كذلك أن أعرابيا وقف متضرعا فى الكعبة يقول: «اللهم كن فى عون أمى».

فقيل له: «يا أعرابى، نسيت أباك، فما بالك لا تطلب من الله عونا؟».

فأجاب: «ذاك رجل يحتال لنفسه!».

تفتيش غير قانونى

ينقل بعض رواة الاخبار أن الخليفة الراشد «عمر بن الخطاب» كان ماشيا فى إحدى الليالى يعس، أى يتفقد شئون الناس فى جنح الليل، فسمع من أحد البيوت غناء، وقام فى نفسه أن هذا البيت فيه ريبة، فتسلق السور، وصعد، فرأى رجلا وامرأة خاليين يشربان الخمر، فقال «عمر» للرجل: «يا عدو الله، أحسبت أن يسترك الله وأنت على معصية؟!»

فقال الرجل: «يا أمير المؤمنين، لا تعجل علينا، ان كنت أنا قد عصيت الله فى واحدة، فقد عصيت أنت الله فى ثلاث: الأولى أنك تجسست، والله يقول: «ولا تجسسوا». والثانية أنك تسورت البيت، والله يقول: «وأتوا البيوت من أبوابها». والثالثة أنك دخلت بغير استئناس وسلام، والله يقول: «لا تدخلوا بيوتا غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها». فماذا أنت قائل يا أمير المؤمنين فيما صنعت؟»

فقال عمر: «أسأت إليك، فهل تعفو؟».

فقال الرجل: «أعفو وتعفو: ولك منى ألا أعاود ما رأيت!».



كاتب السر

جاءنا العصر الحديث بكلمة «السكرتير»، وشاعت أيما شيوع، فنهضت لها كلمة عربية تحاول أن تحل محلها، هي كلمة «كاتب السر»، وفي الأيام الأخيرة نهضت كلمة عربية أخرى لأداء هذا المعنى، هي كلمة «الأمين» .

والناس يختلفون في الكلمة الأولى، منهم من يقول: «كاتب السر» ومنهم من يقول «كاتم السر».

ولهذه الكلمة تاريخ. ففي زمن الأمويين أطلق اسم «الكاتب» على من يتولى كتابة الرسائل عن الخليفة، وفي زمن العباسيين بقي الاسم، ولقب صاحبه أحيانا بلقب الوزير، إذ كانت مهمة الكتابة موكولة اليه.

وكان منصب «الكاتب» خطيرا، فهو - كما يصفه المؤرخون -: «أول داخل على الملك، وآخر خارج عنه، ولا غنى عن مفاوضته في آناء ليله وساعات نهاره، إذ هو لسانه وعينه وأذنه ويده».

وفي «مصر» - أيام «المنصور قلاوون» - أضيفت كلمة «السر» إلى «الكاتب»، فأصبح لقب ديوان الانشاء: «كاتب السر».

ويقول «القلقشندي»: «واعلم أن العامة يبدلون الباء من كاتب السر بميم، فيقولون: «كاتم السر»، وهو صحيح المعنى، لأنه يكتم سر الملك. أو من باب إبدال الباء بالميم في لغة ربيعة، وإن كان العامة لا يعرفون ذلك..».

وإذن فكلمة «كاتب السر» كلمة تاريخية ديوانية مرت بطور بعد طور، وكلمة «كاتم السر» استعملها العامة منذ قرون، ولكنها ليست اللقب الرسمي لمنصب كاتب السر، والطور الجديد هو إطلاق كلمة «كاتب السر» على من يتولى مهمات كتابية وإدارية في الهيئات والمنظمات ديوانية أو غير ديوانية.



بريد من الوهم

يحاذر المحبون أن يذيعوا أسرار الهوى، وان يبوحوا بما تكن السرائر وهم فى سبيل ذلك يتوقون أن تراهم العيون: عيون العاذلين والعاذلات.

وهنالك محب أمره عجب ... لقد أفرط فى الخشية والتوقى، ولم يكتف بالحذر من عيون الناس، وإنما تجاوز ذلك إلى الحذر من عينه ومن عين من يحب، فهو لا يبوح بحبه لعينه، حتى لا تنقله إلى عين الحبيب، فتذيع بين نظراتهما أسرار الهوى الكمين!

ماذا هو فاعل اذن؟ انه يتخذ من «الوهم» بريدا ورسولا، وان «الوهم» لقادر أن يؤدى الأمانة، ويبلغ الرسالة.

تلك هى الصورة الطريفة الفذة التى عبر عنها الشعر، فتغنت به إحدى المغنيات لصاحب لها يطارحها الهوى.

واليك الأبيات كما رواها «الحصرى» فى القرن الخامس الهجرى:

لعمرك ما استودعت سرى وسرهـــا
نسوانا حذارا أن تذيع السرائـــر
ولا خاطبتها مقلتـــاى بنظـــرة
فتعلم نجوانا العيون النواظـــر
ولكن جعلت الوهم بينى وبينهـــا
رسولا فأدى ما تكن الضمائر
أكاتم ما فى النفس خوفا من الهوى
مخافة أن يغرى بذكرك ذاكـــر



طبيب أذن

كان «عبد الله بن جعفر» من سادات العرب، وقد عرف عنه شغفه بالطرب، وكان الخليفة الأموى «معاوية» يكرمه، فإذا قدم عليه أنزله داره الخاصة به.

وليلة ذهب «معاوية» إلى «جعفر» يزوره فى مجلسه، فلما نهض للقائه، وأخلى له المجلس، قال «معاوية»: «من كان معك؟» فأجاب: «طبيب يداوى الآذان!...» فقال «معاوية»: «مره فليرجع، فإن بأذنى علة ...».

فلما رجع الرجل، أدناه «معاوية» منه، وأراه أذنه، وقال له: «انظر ما ترى فيها» فنظر الرجل نظرة، ثم قال: «هى مسدودة، وتحتاج إلى فتح وتنقية». فقال «معاوية»: «لقد أمكنتك منها، فشأنك بها. ولا تضع يدك عليها إن كنت غير حاذق بعلاجها ..».

ولم يكن طبيب الاذن هذا المزعوم إلا مغنيا اسمه «بديح المليح»، فاندفع يغنى بين يدى الخليفة «معاوية»، وطرب الخليفة للغناء، فجعل يحرك يديه ورجليه. وفطن أخيرا إلى حقيقة «طبيب الأذن»، وقال له: «ان اذنا تسمع غناءك لا تبالى ما تجده من ألم!».

التخلف

من التعبيرات المتعارفة السائغة، أن تقول: «اعتذر من التخلف» أو تقول: «تخلف عن الجلسة». وأنت تريد من التخلف التغيب وعدم الحضور.

وليس من الهين تخطئة المشهور، والمجاز فى التعبير باب ميسور، ولكن الدقة



اللغوية تقتضينا أن نتعرف معانى الكلمات على وجهها الصحيح، ولنا بعد التعرف أن نتصرف بما يهدى إليه الذوق، وما تدعو إليه حاجة البيان.

التخلف فى اللغة هو التأخر، ولا ريب أن التأخر نسبى، وربما كان زمنيا أو مكانيا، وأما الغيبة فهى نفى الحضور على الإطلاق. فإذا قلت: فلان تخلف عن الجلسة، فذلك لا يعنى أنه لم يحضر فى وقت منها، إلا أن تكلفت فى التأويل والتخريج، وذلك لأن التخلف هو تأخر مجرد، والتأخر لا يفيد معنى التغيب المطلق.

جاء فى اللغة قولهم: «قوم خلوف» أى غائبون. فهل لنا أن نفهم ذلك أن مادة «خلف» تحمل معنى التغيب فيما تحمل من المعانى؟ ربما!.

من أراد دقة التعبير أبقى كلمة «التخلف» للتأخر دون نفى الحضور مطلقا، واستعمل لنفى الحضور كلمة «التغيب».

ولا تثريب على من يستعمل «التخلف» فى معنى «التغيب»، ولكن عليه أن يعلم أن هذا تجوز فى الاستعمال، وأنه تعبير محدث تستدركه معجمات اللغة فى المستقبل القريب أو البعيد!

العلاج ... بالموسيقا !

منذ تسعة قرون كان الأطباء العرب يعرفون أن الموسيقا دواء وعلاج: دواء للبدن، وعلاج للنفس.

ذلك هو الطبيب «ابن جزلة» - وقد ولد فى القرن الحادى عشر الميلادى - يكتب فى ذلك بوضوح، ويعلله تعليلا وافيا، ودونك ما نقله «التجانى» عن كتابه المخطوط فى تقويم الابدان:

الموسيقا من الأدوات النافعة فى حفظ الصحة وردها، وتختلف بحسب اختلافها طباع الأمم، وقديما وضعت هذه الصناعة لبحث النفوس على السنن الصحيحة، ثم



استعملها الأطباء فى شفاء الابدان المريضة، فموقع الالحان من النفوس السقيمة موقع الأدوية من الأبدان المويضة، وأفعالها فى النفوس ظاهرة، من مشى الجمال عند الحداء، وشرب الخيل عند الصفير، ومرح الأطفال لسماع الغناء، وهى تحدث أريحية ولذة، وتعين على طول الصلاة والدراسة، والأطباء يستعملونها فى تخفيف الآلام، على مثال ما يستعمله الحمالون لتخفيف الاثقال...».

كـــلام الناس!

ما أكثر كلام الناس فى الناس!

ولقد كان أهل الرأى والحكمة يختلفون فى موقفهم من كلام الناس عنهم، ووقوعهم فيهم. فمنهم من كان يأبى أن ينزل عن حقه، وله فى ذلك تعليل طريف، فقد رووا أن رجلا جاء إلى «ابن سيرين» وقال له: «قد نلت منك بحديث يسوؤك، فأحل لى ما فعلت، وسامحنى» فأجابه «ابن سيرين»: «لا أحل ما حرم الله عليك، أما ما كان لى فهو لك»!

وعلى العكس منه حكيم قيل له: «فلان شتمك واغتابك» فقال: «هو فى حل مما فعل» فقيل له: «لماذا تحله، وسيئاته تحسب فى حسناتك يوم القيامة؟» فأجاب: «لا أحب أن يكون ميزانى عند الله مملوءا بأوزار اخوانى!»!

ومن الحكماء من كان لا يبالى كلام الناس ، فقد قيل لاحدهم: «فلان يشتمك بالغيب» فقال: «لو ضربنى بالسياط فى الغيب لم أبال به»!

وأكثر من هذا نبلا وسماحة نفس ذلك الحكيم الذى قال صاحبه: «انى مررت بجمع من الناس يشتمونك شتما رحمتك منه»! فقال الحكيم: «هؤلاء الذين شتمونى أولى بالرحمة منى، فاطلب لهم الرحمة لا لى، واعلم بأن الظالم أحوج من المظلوم إلى أن ترحمه»!



ماء عذب .. من البحر

لم يقف العلم مكتوف اليدين إزاء حاجة الإنسان إلى تحويل ماء البخار ماء عذباً صالحا للشرب. وقد أفلح العلم. ولكن الناس منذ أقدم العصور لم ينتظروا حتى يفرغ العلم من إجراء التجارب فى المختبرات، ومن اختراع الآلات.

لقد احتالوا لذلك ما وسعهم أن يفعلوا، ومن حيلهم فى العصر الذى نسميه «العصر الجاهلى» عند العرب، ما يذكره صاحب كتاب «بلوغ الارب» إذ يقول: «كانت لهم طرق من العلاج، لدفع مضرة ماء البحر، إذا اضطر أحد منهم إلى الشرب منه، وذلك بأن يجعلوا الماء فى قدر، ويجعلوا فوق القدر قصبات، ويجعلوا على القصبات صوفا جديدا منفوشا، وبعد ذلك يوقدون تحت القدر، حتى يرتفع البخار إلى الصوف، فإذا كثر البخار فيه أخذوا الصوف وعصروه، ولا يزالون يكررون هذا حتى يجتمع لهم ما يريدون من الماء، فيكون فى البخار ماء عذب، ويبقى فى القدر الزعاق، أى الملح ...».

والفضل للحاجة التى تفتق الحيلة، وناهيك بالحاجة إلى الماء العذب!

«خواجات» ... فى العصر العباسى

لبثنا حقبة فى مطلع نهضتنا الحديثة، بخلد بثقتنا إلى الاجانب - أو كما كنا نسميهم «الخواجات» - فيما نزاول من شئون الحياة، فمتى كان الصانع أو الطبيب أو التاجر أجنبيا، أو «خواجة» يحمل على رأسه القبعة فقد ضمن لنفسه الإقبال والتقدير.

وهذا طبيعى فى مطالع النهضات ... ومثل هذا حدث فى أول العصر العباسى،



حين أخذ العرب فى مزاولة الطب على منهجه العلمى، ولكن القوم لم يكونوا يثقون وقتئذ إلا بالأطباء الأجانب من هنا وهناك ...

وهذه قصة طبيب عربى، لذلك العهد، يسمى «أسد بن جانى»، أصابه الكساد، فقيل له: «السنة وبيئة، والأمراض فاشية، وأنت عالم، ولك صبر وخدمة، ولك بيان ومعرفة، فكيف يصيبك هذا الكساد؟».

فأجاب الطبيب العربى: «أما واحدة فإنى عندهم عربى، وقد اعتقد القوم قبل أن أتطبب، بل قبل أن أخلق، أن العرب ليسوا مهرة فى الطب! ... واسمى ثانية «أسد» وكان ينبغى أن يكون أعجميا ... وعلى جسدى رداء قطن أبيض، وكان ينبغى أن يكون رداء حرير أسود ... وأخيرا لفظى عربى، وكان ينبغى أن تكون لغتى غير لغة العرب...».

وقد رأينا كيف أعاد التاريخ نفسه، وصدق المثل: «ما أشبه الليلة بالبارحة»!

عقوبة الحيوان

هل يعاقب الحيوان إذا كانت منه أذية وشر؟

لقد نال الحيوان عقوبته على يد بعض الولاة والحكام ...

أقام «الرشيد» رجلا على بعض الولايات، فكان يعاقب البهائم، ويقول: «بئس الوالى انا إذا لم أنفذ العقوبة فى كل من يسىء». ولما استقدمه «الرشيد» ليسأله فى ذلك، أجاب: «الناس والبهائم عندى سواء فى الحق، ولو وجب الحق على بهيمة وكانت أمى أو أختى لاقمت عليها الحد، ولم تأخذنى فى الله لومة لائم!»

فضحك منه «الرشيد» وأمر بعزله.

وكان فى الولاة من اسمه «ربيع العامرى» فقتل كلبا لانه اعتدى على كلب مثله بالقتل، فقال فيه أحد الشعراء:



شهـدت بأن الله حـــــق لقـــاؤه

وأن «ربيع العامرى» رقيـــــع

أقاد لنا كلبـــا بكلب ولم يـــدع

دماء كــلاب المسلمـين تضـــيع

وكان فى «المهدية» من بلاد المغرب قاض أطلقوا عليه لقب «ذابح القردة» لأنه حكم بذبح قردا اتهم بالعدوان على الناس، فقال فيه «المهدوى»:

غرائب الدهـــــر قـد كثـــرن ولا

أغرب من حكـم ذابح القــــــردة

أحل ذبـــح القـــرود محتسبـــا

وحرم الفضل، بئسما اعتمـــــده

وتهكم به «الحنفى» فى قولـه:

عاب عليه صنيعـــه نفـــــــر

وما درى الجاهلـون ما قصـــــده

يذبح من كان شبـــه صورتـــه

لكى ترى فى الوجوه منفـــــردة

وهكذا لقيت عقوبة الحيوان على أيدى الولاة والحكام أقسى ألوان السخرية والاستهزاء!

نقد...

ذهب الشاعر «مروان بن حفصة» إلى الخليفة «المأمون» يمدحه، قائلا فيه:



أضحى أمام الهدى «المأمون» مشتغلا

بالدين والنـــاس بالدنـيا مشاغيــل

فلم يهتم «المأمون» لما سمع، وأمسك عن إجازة الشاعر.

فوقع ذلك من نفس «مروان» أسوأ موقع، ومضى شاكيا إلى وجيه من وجهاء الدولة، هو «عمارة بن حمزة» فقال له «عمارة»: «لم تصب فيما مدحت به الخليفة فإنك ما زدت على أن صيرته عجوزا معتكفة فى محرابها! اذا كان الخليفة مشغولا بالدين وحده، فمن لأمور الناس يرعاها؟ ... هلا قلت كما قال «جرير»

فلا هو فى الدنيــا مضيـــع نصـــيبه

ولا غــرض الدنيــا عن الدين شـــاغلـه

ففطن مروان» إلى العلة فى إهمال الخليفة له، وأدرك أنه أخطأ حين مدحه بشىء لا يليق أن يمدح به القائم على شئون الناس!

فتنــة المــرأة!

كان «أبو المبارك الصابى» من ظرفاء الدولة العباسية، يبعث إليه الكبراء ليلطفهم بأسماره، وفى مجلس له ساقه الحديث إلى النساء ومحلهن من قلوب الرجال.

قال: «ألستم تعلمون أنى قد أربيت على المائة، فينبغى لمن كان كذلك أن يكون وهن الكبر قد أمات حنينه إلى النساء وتفكيره فى الغزل». قالوا: «صدقت!».

قال: «وينبغى لمن عود نفسه تركهن، والتخلى عنهن، سنين ممدودة أن يكون الاعتياد وتمرين الطبيعة، وتوطين النفس، قد حط عنه ثقل المنازعة إلى النساء». قالوا: «صدقت!».



قال: «وينبغى لمن لم يذق طعم الخلوة بهن، ولم يجالسهن، ولم يسمع حديثهن وخلابتهن للقلوب، الا يكون قد بقى معه من تذكارهن شيء». قالوا «صدقت!».

قال: «وينبغى لمن سخت نفسه عن السكن والولد، وعن أن يكون مذكورا بالعقب الصالح، أن يأمن الوساوس فى وصال النساء، ويكفل لنفسه الزهد والسلوة وموت الخواطر فى شأنهن». قالوا: «صدقت!».

قال: «وينبغى لمن لم يذق لحما منذ ثمانين سنة، ولم تمتلىء عروقه من الشراب مخافة الزيادة من التشهى والنقصان من العزم، أن تكون نفسه ساهية لاهية عن هذا الباب الذى احتمل هذه المكاره فى سبيل الكف عنه، فسكنت حركته، واجتمعت له أسباب اليأس.» قالوا: «صدقت!».

قال: «فإنى بعد جميع ما وصفت لكم من كبرة السن، ومن الحيطة الشديدة، ومن فرط التحفظ، أسمع نغمة المرأة، فأظن مرة أن كبدى قد ذابت، وأظن مرة أنها قد انصدعت، وأظن مرة أن عقلى قد اختلس، وربما اضطرب فؤادى عند ضحك إحداهن، حتى أحسب أنه قد خرج من فمى ... فكيف ألوم عليهن غيرى؟».

قالوا: «صدقت ...».

فروق لغوية ...

الأصل فى الألفاظ أن ينفرد كل لفظ بمعناه، ولكن هناك كثيرا من الالفاظ تتداخل معانيها وتتشابه أو تتقارب، والكاتب الدقيق هو الذى يتحرى فروق الألفاظ، فيعرف لكل منها مقامه فى الاستعمال وهذه أمثلة:

١- العرب تفرق بين «المطايب»، و«الأطايب»، فالمطايب إنما توصف بها اللحوم ونحوها، فيقال: مطايب اللحم أى أحاسن ما فيه، وأما الاطايب فتوصف بها



الفاكهة، فيقال: أطايب الفاكهة أى أجودها وأنضجها.

٢- وثمة فرق بين العواصف والقواصف، فالعواصف الرياح المهلكة فى البر، بدليل قوله تعالى: «ولسليمان الريح عاصفة»، والقواصف الرياح المهلكة فى البحر، بدليل قوله تعالى: «فنرسل عليكم قاصفا من الريح فنغرقكم بما كفرتم».

٣- وفرق بين المستمع والسامع، فالمستمع المصغى القاعد للاستماع المتفرغ له، والسامع هو الذى يطرأ عليه الكلام فيسمعه من غير قصد ولا تفرغ.

٤- وفرق بين الهم والغم، فالهم يكون لأمر ينتظر أن يقع، والغم إنما يكون لأمر واقع.

٥- وفرق بين التمنى والترجى، فالتمنى طلب ما يمكن وقوعه ومالا يمكن، وأما الترجى فهو طلب ما يمكن وقوعه فقط.

وعلى هذا النحو تتبين الفروق اللغوية بين الألفاظ فى دلالتها على المعانى لمن يريد الدقة فى التعبير.

جراحة.. وشجاعة

يذكر المؤرخون فى العصر الاموى أن «عروة بن الزبير» أصيبت رجله بما يسمى «الاكلة». فقيل له: «اقطع رجلك، والا أفسدت عليك جسدك كله» فلما وافق على ذلك، قيل له: «نسقيك الخمر حتى لا تجد لذلك ألما» فقال: «لا أستعين بحرام على ما أرجو من عافية» فقيل له: «نسقيك المرقد، وهو شراب يفقد الاحساس بالألم» فقال: «ما أحب أن أسلب عضوا من أعضائى وأنا لا أجد لذلك ألما». ورأى حوله قوما فأنكرهم، فقيل له: هؤلاء يمسكونك، فإن الألم ربما يعذب معه الصبر» فقال: «أرجو أن أكفيكم ذلك من نفسى». فلما قطعت رجله أغلى له الزيت فى مغارف



الحديد، فحسم به موضع القطع، فغشى عليه ثم أفاق وهو يمسح العرق عن وجهه، ويقول: «اللهم إنى كانت لى أطراف أربعة، فأخذت واحدا وأبقيت لى ثلاثة، فلئن أخذت لقد أبقيت، ولئن أبتليت لقد عافيت».

ذلك ما ذكره المؤرخون، وتلك جراحة بكل أوضاعها الطبية فى العصر الاموى: تشخيص يثبت فساد الجرح، لا علاج له الا البتر. ونصح بالتخدير لإمكان إجراء الجراحة، وحسم لموضع البتر بتطهير الجرح ووقف النزف.

وانظر بعد ذلك كيف ترفع الرجل عن شرب ما هو محرم عليه وإن أباحته الضرورة، وكيف كان تكريمه لجسده إذ أبى أن يشهد توديعه لقدمه حين تبتر وهو يقظ الحس.

ثم انظر كيف كانت شجاعة الرجل واحتماله وقوة عزمه، وكيف كان يعلل نفسه فيما أصابه ...

سياسة «المهدى» ...

ما أكثر من كانوا يتخذون السعاية والوشاية سبيلا إلى مغنم ينالونه عند ذوى السلطان، وقد كان بعض الخلفاء من متانة الخلق وحصافة الرأى ما يجعلهم يردون كيد الوشاة إلى نحورهم، وقد سجل لنا التاريخ درسا كريما ألقاه الخليفة «المهدى» على رجل أحب أن يسمعه وشاية، واليك كلمة «المهدى» التى تتجلى فيها سياسته الحكيمة ازاء قالة السوء.

«إنما لنا الابدان، وليس لنا القلوب، من استتر عنا لم نكشفه، ومن بادانا وصارحنا طلبنا توبيته، ومن أخطأ أقلنا عثرته، فإنى أرى التأديب بالصفح أبلغ منه بالعقوبة، والقلوب لا تبقى لوال إذا استعطف لا ينعطف، واذا قدر لا يعفو، واذا



ظفر لا يغفر، وإذا استرحم لا يرحم...».

دلني على السوق !

لما ضاق الرسول بمن يناوئون دعوته الدينية من أهل مكة، وهاجرَ مع بعض أصحابه إلى المدينة، عقد مؤاخاة بين المكيين المهاجرين والمدنيين الأنصار.

وكان من نصيب «عبد الرحمن بن عوف» المهاجر أن كانت المؤاخاة بينه وبين «سعد بن الربيع» الأنصارى.

فقال: «سعد» لصاحبه: «انى أكثر الأنصار مالا، فأقسم لك نصف ما عندى، وأن لى امرأتين، فانظر أيتهما أرضى لك، فسمها لى، اطلقها حتى إذا انقضت عدتها كانت لك زوجا ...».

فقال «عبد الرحمن»: «بارك الله لك فى مالك، وبارك الله لك فى أهلك، أما أنا فلا مأرب لى فيها، دلنى على السوق...».

وما لبث أن دخل فى السوق يبيع ويشترى، حتى نما كسبه، وأصبح فى رفاهية من عيشه.

زواج لم يتم

كان «يوحنا بن ماسويه» من أشهر الأطباء فى عهد الخليفة العباسى «المعتصم»، وكان لهذا الطبيب قردة اسمها «حماحم» يأنس بها، ولا يصبر عنها ساعة.



واتفق أن عظيم «النوبة» زار الخليفة «المعتصم»، وجلب معه هدايا، من بينها طائفة من القرود، وذلك فى القرن الثامن الميلادى.

وبينما الطبيب فى داره يوما، إذ دخل عليه غلام من غلمان «المعتصم» ومعه قرد من القرود التى أهداها ملك النوبة، وكان القرد عظيم الجثة، فقال الغلام للطبيب:

«يرغب إليك أمير المؤمنين فى أن يكون هذا القرد زوجا لقردتك حماحم ..»

فوجم الطبيب لذلك، وقال للغلام:

«قل لأمير المؤمنين: إن اتخاذى لهذه القردة لم يكن للهو، وإنما دبرت تشريحها لوضع كتاب على نحو ما وضع «جالينوس» فى التشريح، ولما كانت القردة ضئيلة الجسم، دقيقة العروق والأوراد والعصب، خشيت ألا يتضح الامر فيها كما يتضح فيما عظم جسمه، فتركتها لتكبر وتغلظ، فأما وقد جاءنى هذا القرد فسيعلم أمير المؤمنين أنى سأضع له كتابا لم يوضع فى الإسلام مثله.»

ثم عمد الطبيب إلى القرد الذى كان موعودا بحياة زوجية هانئة، فشرحه وصنع كتابا فى التشريح استحسنه أعداؤه فضلا عن أصدقائه...

لحوم محفوظة

أصبحت صناعة «التعليب» من الصناعات الكبيرة فى العصر الحديث وبات من الميسور حفظ الكثير من ألوان الأغذية، سواء منها الطعام والفاكهة.

وقد كان حفظ الأغذية ضرورة اجتماعية منذ العصور الماضية، والحاجة أم الاختراع كما يقال، فاستطاع الأقدمون أن يتفننوا فى حفظ الأشياء أطول مدة ممكنة.



وكذلك كان حفظ الأطعمة «ضرورة حربية» تلجأ إليها المدن التى تخشى الحصار فى الغزوات والحروب.

ومن أسبق المدن التى لجأت إلى حفظ الأطعمة مدينة «بغداد» فى نشأتها، حين كانت الدولة العباسية حديثة العهد.

وشاهد ذلك أن الخليفة «المهدى» حين تولى الأمر بعد الخليفة «المنصور» قال لحاجبه «الربيع»:

«قم بنا حتى ندور فى خزائن أمير المؤمنين».

وفيما هما يدوران ويفتشان، وقفا على بيت فيه أربعمائة وعاء كبير من الفخار، وقد سدت رءوس الأوعية بالطين، فسألا خازن البيت:

«ما هذه؟»

فقيل لهما: «هذه أوعية فيها أكباد مملحة، أعدها الخليفة «المنصور» احتياطا لما عسى أن يقع على المدينة من حصار ...».

جيش من الصبيان

كان التجنيد فى عهد الفتوحات الاسلامية مقصورا على من بلغوا مبلغ الرجال..

ولكن «الحجاج» - أمير العراق فى دولة الأمويين - رأى ضرورة تجهيز جيوش متعددة للفتح أو لصد غارات الثائرين على الدولة، ولا سيما «الخوارج»

لذلك لم يجد بدا من أن يضرب البعث - أى يفرض التجنيد - على الغلمان ممن بلغوا الحلم ..

وكان من الإجراءات المتبعة أن يجرد الغلمان من ثيابهم للاطلاع على عيوب



أجسامهم، حتى لا يجند الا السليم. فكانت الأم تجيء إلى ابنها، وقد جردوه من ثيابه فتضمه إلى صدرها وهى تقول جزعا عليه:

«بأبى، بأبى...»

أى أفديك بأبى!

وقد أنفذ «الحجاج» تجهيز جيش من أولئك الغلمان الذين لم يتجاوزا سن الحلم، وبعث به إلى ميدان القتال، فكان الناس يتنادرون على ذلك الجيش ويسمونه:

«جيش بأبى!»

القرآن ... لماذا نزل مفرقا؟

لم ينزل القرآن على الرسول جملة واحدة، وإنما نزل متفرقا فى سنوات متعددة، فهل كان لنزوله متفرقا حكمة وتعليل؟

عالج ذلك العلماء الاقدمون، ومن أجمع ما قيل فى هذا الصدد تلك الأسباب التى أجملها «السيوطى» فى كتاب منسوب اليه، يسمى «الكنز المدفون» وهذا بيانها:

ومن ضروب الحكمة فى ذلك أن تكون الرسالة متصلة بين الله ورسوله، فلا ينقطع عن الرسول وحى الله، فإن فيه ايناسه فى الفينة بعد الفينة.

ومن ضروب الحكمة أن القرآن لو نزل دفعة واحدة لما قدر على حفظه لكثرة آياته، ولما قدر أيضا على القيام بما فيه من التكاليف، إذ هى جديدة على من دخلوا فى الإسلام، فكان من الخير أن ينزل القرآن شيئا فشيئا ليحفظ، وأن تفرض التكاليف شيئا فشيئا لتنفذ.

ومن ضروب الحكمة أيضا أن تظهر معجزته فى الإخبار بالكوائن والاحداث،



فكلما أريد شيء نزل بيانه فيكون لذلك من الأثر فى النفوس ما لا ينكر.

ومن ضروب الحكمة كذلك أن يكون فيه جواب المسائل التى تعرض فى شئون الحياة، وأن تكون فيه الأحكام التى تضبط ما تكشف عنه الكوائن والأحداث فى نشأة الدولة الإسلامية.

وأخيرا من الحكمة نزول القرآن متفرقا لأنه لو نزل جملة ليئس المسلمون من حياة الرسول، فهم قد علموا أنه باق ما لم يتم القرآن...» .

لكيلا يستجدى

لم يخل عصر من العصور من أناس لهم من عزة النفس واستشعار الكرامة ما يربأ بهم عن السؤال والاستجداء.

وهذه قصة «كناس» يرويها لنا العالم النحوى اللغوى «أبو عمرو بن العلاء»، قال:

«اجتزت بكناس ينشد:

اذا أنت لم تعرف لنفسك قدرها ... هوانا بها كانت على الناس أهونا

فقلت له: «سبحان الله! أتنشد مثل هذا البيت وتتعاطى مثل هذه المهنة؟»

فقال الكناس:

«إن إنشادى لذلك البيت، أصارنى إلى ما أنا فيه، لكى أنجو بنفسى من ذل الاستجداء!».

للمجلة تاريخ

من الكلمات العصرية الموفقة كلمة «المجلة» التى أصبحت ذات دلالة خاصة فى

التعبير، إذ تطلق على الصحف الدورية التى تصدر أسبوعية أو شهرية أو سنوية أو موسمية. والكلمة عربية فصيحة، لها فى اللغة تاريخ!

أما اشتقاقها فهو من جل الشىء: أى عظم قدره وارتفع شأنه.

وأما حياتها اللغوية فقد مرت بمراحل مختلفة:

أطلقت أولا على الكراسة أو الكتاب، وفى ذلك يقول «أبو عبيدة»: «كل كتاب عند العرب: مجلة» وحدثنا «ابن الأعرابى» عن نفسه أنه كانت فى يده كراسة، فلقى أعرابيا فسأله: ما المجلة؟ فأجابه: التى فى يدك!

وقد اشتهر إطلاق المجلة فى العصور الأولى على كل ما فيه حكمة، فسميت أمثال «لقمان» الحكيم: «مجلة لقمان»، وسمى شعر «أمية بن أبى الصلت» - وكان شعره زاخر بالحكم -: «مجلة ابن أبى الصلت». ويقول «الراغب»: «سمى المصحف مجلة».

وبقيت الكلمة فى هذا النطاق، إلى أوائل النصف الثانى من القرن التاسع عشر. فمنذ مائة سنة رأت الدولة العثمانية أن يدون كتاب يتضمن أحكام القوانين المدنية، مستنبطة من أحكام الشريعة، بحيث يستغنى بها عن القوانين الاوربية، فألفت الدولة لذلك جمعية اسمتها: «مجلة جمعيتى» أى «جمعية المجلة» أو لجنة المجلة»، ولما فرغت الجمعية من تدوين الأحكام فى مواد قانونية، أصدرتها الدولة باسم «مجلة الأحكام العدلية»، وقد تعاقب عليها الفقهاء والعلماء يشرحونها ويتولون تدريسها فى جملة من البلاد الاسلامية، وأطلق لقب «أستاذ المجلة» على من يقوم بتدريس أحكامها للطلاب فى بعض معاهد الحقوق.

وفى أثناء ذلك طاب للرعيل الاول من رجال الصحافة الحديثة أن يسموا الصحف الاسبوعية أو الشهرية باسم «المجلة» ... فشاعت الكلمة بهذا المعنى الحديث، ولم يعد لها مدلول سواه.



وحدة طبية متنقلة

شهدت «بغداد» فى القرن الثالث الهجرى نهضة اجتماعية، كانت شاملة لمختلف مرافق الحياة، وبخاصة الطب. ويذكر التاريخ للوزير «على بن عيسى الجراح» أنه أول من فكر فى انشاء وحدات طبية متنقلة، لمعالجة الأهلين المقيمين فى أطراف البلاد، إذ ليس لديهم أطباء، وليس فى مقدورهم أن يتنقلوا إلى المدينة للعلاج ... وقد أوحى بفكرته إلى «سنان بن ثابت» رئيس الاطباء فى عهده، ورغب إليه فى تحقيقها.

وقد حفظ لنا «القفطى» فى كتابه «أخبار العلماء» نسخة الرسالة التى وجهها الوزير «ابن الجراح» إلى رئيس الاطباء «سنان» فى هذا الشأن. واليك نصها:

«فكرت فيمن «بالسواد» من أهله، وأنه لا يخلو من أن يكون فيه مرضى، لا يشرف متطلب عليهم، لخلو «السواد» من الاطباء، فتقدم - مد الله فى عمرك - بانفاذ متطببين، وخزانة من الأدوية والاشربة، يطوفون فى السواد، ويقيمون فى كل صقع منه، مدة ما تدعو الحاجة إلى مقامهم، ويعالجون من فيه، ثم ينتقلون إلى غيره...»..

ويقول «القفطى»: «ففعل سنان ذلك» ... وبذلك يعتبر الوزير «ابن الجراح» - فى القرن الثالث الهجرى - منشىء الوحدات الطبية المتنقلة فى عصر الحضارة العربية.

سفسطة !

تعقدت أسباب الحياة ومرافقها فى عهد الحضارة اليونانية، فكثر فى شأنها



الخلاف والجدل، وأصبح اكتساب المهارة فى الدفاع والهجوم من مقتضيات العيش، ولذلك نشأت طائفة من المعلمين يتلقى الناس على أيديهم أساليب المحاورة والمغالطة، وتلفق الأدلة، وقد أطلق على تلك الطائفة اسم «السفسطائيين» وسمى فنهم فن «السفسطة!».

وقد اتفق شاب من أهل الثراء والنعمة مع معلم من السفسطائيين على أن يجلس إليه ليعلمه من أساليب الجدل ما يمكنه من أن يجعل الحق باطلا والباطل حقا، فإن بلغ الشاب ذلك المبلغ كافأ معلمه بمال جزيل. ورضى المعلم أن يقوم بهذه المهمة على ذلك الشرط، ولما فرغ من تعليمه طالب بالمال، فماطله الشاب، وانحسم الأمر بينهما بهذه المحاورة:

التلميذ: أحق ما تطالبنى به من المال؟

الأستاذ: ألم أعلمك ما اتفقنا عليه؟

التلميذ: لقد اتفقنا على أن تبلغ قدرتى فى الجدل مبلغا أستطيع به جعل الحق باطلا والباطل حقا. فإن كان حقاما تطالبى به، ولم أستطع ابطال هذا الحق بالجدل والمغالطة فإنك لا تستحق من المال شيئا، واذا كنت قد بلغت هذه الدرجة، واستطعت أن أجعل حقك باطلا، فليس لك عندى إذن من حق!

الأستاذ: لقد استطعت الآن أن تجعل الحق باطلا، والباطل حقا، فأنا إذن أستحق المكافأة التى وعدتنى بها حين تبلغ هذه الدرجة من السفسطة!

ولم يملك الشاب إلا أن يوفر المال لمعلمه الذى تغلب عليه بحجة سفسطائية أيضا.

السمك الحى

مما تعمد إليه بعض المطاعم فى البلاد المتحضرة أن تعرض السمك فى أحواض



يموج فيها الماء، فإذا السمك فيها حي يتحرك، فيطلب الآكلون منه ما يشتهون، فيطهى لهم طازجا على الفور ...

وكان «المعز لدين الله» منشىء «القاهرة» - ينعم بأكل السمك على هذا النحو الذى ينعم به أهل العصر الحديث ... فكان - وهو فى مقر خلافته - يأكل سمك البحر المحيط، إذ يجلب إليه السمك حيا طازجا يتحرك ...

وذلك أن الخليفة «المعز» رفع قائد جيشه «جوهر» إلى رتبة الوزارة، وبعث به فى حملة لفتح البلاد، فسار «جوهر» بجيش عظيم، حتى وصل إلى «فارس» والى «سجلماسة»، ويقول «المقريزى» فى كتابه «اتعاظ الحنفا»: «إنه مضى إلى البحر المحيط، فأمر أن يصاد منه سمكه، وبعثه فى قلال الماء إلى المعز ...».

وهكذا اغتبط الخليفة بوصول قائده إلى البحر المحيط، ونعم بأكل سمكه حيا يتحرك فى مائه!

نعمة الشكر

قال «الجاحظ» : رأيت رجلا يروح ويغدو فى حوائج الناس؟

فقلت له: «لقد أتعبت بذلك بدنك، فما لك راحة ولا قرار، فلو اقتصدت بعض الاقتصاد!»

فقال الرجل: «سمعت تغريد الأطيار، وغناء القيان، فما طربت لشيء منها طربى لنغمه شاكر، أوليته معروفا، أو سعيت له فى حاجة. أفتلومنى بعد ذلك على غدوى ورواحى فيما تطرب به نفسى؟»

فقلت له: «لا لوم عليك ولا تثريب»!



إخوان المروءة...

كان «الواقدى» من أوائل من صنفوا فى التاريخ الإسلامى، وهو من أهل القرن الهجرى الثانى. وقد حدث عن نفسه، فقال:

«كان لى صديقان، وكنا كنفس واحدة، فنالتنى ضيقة شديدة، وحضر العيد، فقالت امرأتى: «أما نحن فى أنفسنا فنصبر على البؤس والشدة، وأما صبياننا هؤلاء فقد قطعوا قلبى اشفاقا ورحمة، لأنهم يرون أنفسهم على هذه الحال من الثياب الرثة، ويرون صبيان الجيران وقد اصلحوا ثيابهم، واتخذوا زينة العيد، فلو احتلت بشىء نصرفه فى كسوتهم؟».

فكتبت إلى أحد الصديقين، أسأله التوسعة على بما حضر، فوجه إلى كيسا مختوما ذكر أن فيه ألف درهم، فما استقر قرارى حتى كتب إلى الصديق الآخر، يشكو مثل ما شكوت إلى صاحبى، فوجهت إليه الكيس بحاله، وخرجت من البيت مستحييا من امرأتى، فلما رجعت إليها ليلا أخبرتها بما فعلت، فاستحسنت ما كان منى، ولم تعنفنى عليه.

وبينما أنا كذلك، إذ وافانى الصديق الأول، ومعه الكيس كهيئته، فقال لى: «أصدقنى عما فعلت فيما وجهت إليك من المال. فعرفته الخبر على وجهه، فقال: «انك كتبت إلى فى طلب التوسعة، وما أملك على الأرض إلا الكيس الذى بعثت به إليك، وقد كتبت بعد ذلك إلى صديقنا الآخر اسأله المواساة، فإذا هو يوجه إلى كيسى بخاتمى!»

فتقاسمنا الكيس بيننا أثلاثا.

ونمى الخبر إلى الخليفة «المأمون»، فدعانى، فشرحت له الخبر، فأمر لنا بسبعة



آلاف دينار لكل واحد ألفان، ولزوجتى ألف!».

السآمة من الناس

جلس «المنصور بن أبى عامر» - ملك الأندلس - يوما إلى وزيره يبادله الحديث فيما يبلغ سمعه من سيئات الذين يكل إليهم الأعمال، وقال الملك فى ختام حديثه:

«لقد سئمت من يلى أمور الدولة من هؤلاء الناس!».

فقال الوزير:

«اصبر عليهم أيها الأمير، فإنه لابد من السآمة، وانما تكون السآمة على حالتين:

إما أن تسأم ممن يكون أمرك إليه، وإما أن تسأم ممن يكون أمره إليك فاحمد الله الذى رفعك عن الحالة الأولى، إذ جعل أمر الناس موكولا إليك. فأنت تسأم منه، فتكون وطأة السآمة عليك أشد، وطعمها عندك أمر؟».

لمحات خالدة

■ صناعة الخطيب:

قيل «لسقراط» الفيلسوف:

«ما صناعة الخطيب؟»

فقال:

«أن يعظم شأن الأشياء الحقيرة، وأن يحقر شأن الأشياء العظيمة!»



■ الشكر الزائد:

دخل «يحيى الطالبى» على «المأمون» يشكره على معروف أسداه اليه، فقال له:

«حيرتنى يا أمير المؤمنين عارفتك، حتى ما أدرى كيف أشكرك...».

فقال «المأمون»:

«لا عليك، فإن الزيادة فى الشكر على الصنيعة ملق ورياء!».

■ هذا النحو:

وقف أعرابى على مجلس «الأخفش» النحوى، فسمع كلامه فى النحو، فحار وعجب، وأطرق ووسوس، فقال له «الأخفش»: «مالك يا أخا العرب؟».

فأجابه: «أراك تتكلم بكلامنا، فى كلامنا، بما ليس من كلامنا!».

تزوير التاريخ

من بلغاء القرن الرابع الهجرى «أبو إسحق الصابى» وكان يكتب باسم الخلفاء والوزراء والأمراء رسائل ديوانية فى عهد «بنى بوية».

ولهذا الأديب البليغ مؤلفات شتى، منها كتابه المسمى «التاجى» فى أخبار بنى بويه».

أما كيف ألف هذا الكتاب فالجواب عن ذلك ينطوى على قصة من قصص الحياة فى العهود الغاشمة التى يتلاعب فيها الحكام برقاب الناس، ويستكرهونهم على كل شيء، حتى التأليف!

والقصة هى أن «عضد الدولة» لما قدم «بغداد» مستوليا عليها نقم من «الصابى» أشياء، فأمر بالقبض عليه، ولما كلمه فيه بعض الشفعاء، قبل أن يسكت

عنه، فلا يوقع به، ولكن يظل فى محبسه، ويشغل نفسه بتأليف كتاب فى مآثر الدولة الديلمية - دولة «بنى بويه» - وهى التى منها «عضد الدولة»، حتى إذا فرغ من تأليف الكتاب أذن له الخليفة فى الانطلاق من محبسه!

وقبل «الصابى» ذلك الشرط ... وشرع فى تأليف الكتاب المطلوب، وكان إذا فرغ من جزء منه حمل إلى «عضد الدولة» حتى يقرأه، ويتصفحه، و يزيد فيه، وينقص منه ... فلما تكامل الكتاب على نحو ما أراد «عضد الدولة» قرىء عليه جملة فى أسبوع.

وعلى الرغم من وفاء «الصابى» بالشرط، فإنه بقى فى محبسه بعد تأليف الكتاب، فلم يطلقه الخليفة إلا بعد أن مضت سنة.

وقد دخل على «الصابى» وهو فى محبسه، بعض أصدقائه، وكان مشغولا بتبييض وتسويد صحائف هذا الكتاب، فسألوه:

«ماذا تكتب يا أبا إسحاق؟».

فأجابهم: «أباطيل أنمقها، وأكاذيب الفقها!».

البخل بالصوت

هو «أحمد بن عبد ربه» - صاحب كتاب «العقد الفريد» - بقصر من قصور «قرطبة» لبعض الرؤساء، فسمع منه غناء أذهب لبه، وألهب قلبه، فوقف تحت القصر ينصت للغناء.

وبينما هو واقف، إذ رشه أهل القصر بماء من أعاليه، فاستدعى رقعة، وكتب إلى صاحب القصر هذه الأبيات الرقاق:



يا من يضن بصوت الطائر الغـــرد
ما كنت أحسب هذا الضن فى أحد
لو أن أسمـاع أهل الأرض قاطبــة
أصغت إلى الصوت لم ينقص ولم يزد
فلا تضـــن علـى سمعـــى ومن بــه
صوتا يجول مجال الروح فى الجســـد

تماثيل للغادرين !

مما قاله المؤرخون فى تعليل اتخاذ الأصنام عند العرب فى عصرهم الجاهلى، أن ذلك نشأ تحقيقا لفكرة تعظيم الموتى وتخليد الذكرى، إذ كان أصحاب هذه الأصنام - أمثال «ود» و «سواع» و«يغوث» - قوما صالحين مذكورين بالخير، فقال بعض من حضر موتهم:

«هل لكم أن أعمل أصناما على صورهم، غير أنى لا أقدر أن أجعل فيها أرواحا ؟».

قالوا: «نعم».

فنحت لهم تلك الأصنام، وظلت منصوبة حتى ذهب ذلك القرن، وجاء قرن آخر، فعظموا الأصنام أشد من تعظيم القرن الأول، ثم جاء من بعدهم، فقالوا:

«ما عظمها الأولون إلا وهم يرجون منها الشفاعة!».

وهكذا انتقلت الأصنام من عهد التقدير والتكريم، إلى عهد العبادة والتقديس...

وليس بالغريب أن تقام التماثيل للاخيار الطيبين من الناس، ولكن الطريف أن



العرب فى ذلك العصر الجاهلى كانوا يقيمون تماثيل للاشرار الغادرين الذين لا يحفظون العهود، إعظاما لفضيلة الوفاء، وتنفيرا من رزيلة الغدر.

فقد ذكر مؤرخو الأدب أنه كان إذا غدر الرجل فى الجاهلية، وأخفر الذمة، جعلوا له مثالاً من طين، ونصبوه، وقالوا: «ألا إن فلانا قد غدر فالعنوه»!

ومما يدل على ذلك قول شاعرهم:

فلنقتلن بخــــالـد سرواتكــم

ولنجعلن «لظالــم» تمثـــــالأ

النفس والجسم

استفاضت اليوم الدراسات الطبية والنفسية فى بيان العلاقة بين مشاعر النفس وأحوال الجسد، وما يتبادلانه من الأثر.

وقد تنبه طبيب فيلسوف عربى قديم، هو «أبو بكر الرازى» إلى أمرين يخشى ضررهما على الإنسان، وهما «الحرمان» و«اليأس»، وذلك لما ينجم عنهما من إضرار بالغ بصحة الجسم وسلامته، إلى جانب ما يسببانه من ضرر نفسى كبير.

فهو يقول فى تجنيب المريض أثر الحرمان:

« ... الناقهون من المرض إذا اشتهوا من الطعام ما يضرهم، فيجب على الطبيب أن يحتال فى تدبير ذلك الطعام، وصرفه إلى كيفية موافقة، ولا يمنعهم ما يشتهون البتة ... ».

وهو يقول فى تجنيب المريض ضرر اليأس:

« ... وينبغى للطبيب أن يوهم المريض أبدا الصحة، ويرجيه بها، وإن كان غير



واثق بذلك. فمزاج الجسم تابع لأخلاق النفس».

يؤثر الخلود

من النفائس فى تراثنا العلمى واللغوى كتاب «النهاية فى غريب الحديث» للعلامة الكبير «ابن الأثير» ... وله غير هذا الكتاب مؤلفات كثار.

ولم يكن «ابن الأثير» فى أول أمره مشغولا بالتأليف، وإنما شغلته مناصب الدولة، إذ كان من الرؤساء والكبراء.

ثم عرض له مرض كف يديه ورجليه، فانقطع فى منزله، وترك المناصب، وعزف عن مخالطة الناس، وأقبل على الدرس والبحث.

ويروى «ابن الجوزى» أن أحد الأطباء عاد «ابن الأثير» ومناه بأن يزيح عنه علته، وأن يعيد إليه سالف صحته، فيقدر على الحركة والتنقل واستئناف ما قطع من العمل. ولكن «ابن الأثير» قال لطبيبه: «امض لسبيلك». فلامه أصحابه على ذلك، وقالوا له: «هلا أبقيت الطبيب يعالجك حتى تبرأ؟» فقال لأصحابه: «إنى متى عوفيت، طلبت المناصب، ودخلت فيها، وأما ما دمت على هذه الحالة فإنى لا أصلح لها، واذن فلا سبيل لى إلا أن أصرف وقتى فى تكميل نفسى، ومطالعة كتب العلم، ولا أدخل فيما يشغلنى عنه ...».

وهكذا اختار «ابن الأثير» عطلة جسمه، ورضى بها، لكيلا يعاود اشغاله بالمناصب، ولكى يفرغ للعلم والتأليف فيه. وفى تلك المدة ألف الكتب التى أبقت له اسما بعيد الصيت كريم الذكر بين الأحياء حتى اليوم ...!



الأقــــدار

شاع فى التعبيرات المستحدثة قول الكتاب: «سخرية القدر» و«قسوة القدر» و«اعاجيب القدر»، ونحو ذلك مما يشتم منه رائحة الحمل على الأقدار.

وربما تحرر المتزمتون من مثل هذه التعبيرات، إذ يهولهم أن تنسب الأقدار إلى قسوة أو سخرية أو عجب أو غير ذلك من الصفات التى لا تليق نسبتها إلى القوى السماوية فى تصريفها للكون وسلطانها على حياة الناس.

وقد كان الحمل على الأقدار مما عمد إليه الشعراء القدامى، فتصدى لهم أهل التزمت يعيبونهم، ولكن الشعراء وجدوا من يدافعون عنهم، ويبيحون حرية الحديث عن الأقدار.

فمما ينشد للشاعر الغزلى «العباس بن الأحنف» قوله:

اذا أردت ســــلوا كان ناصركــــم

قلبى ومالنــا من قـلبى بمنتصـــر

فأكثـــروا أو اقـلوا من اساءتكـم

فكل ذلك محمــول على القـــدر

وكان «ابن المرزبانى» إذا سمع هذا الشعر جن واستغاث وقال: «يا قوم، أما ترون إلى هذا الشاعر ما يكفيه أن يفجر حتى يكفر. حتى كانت العيوب والذنوب محمولة على القدر؟ ومتى قدر الله هذه الأشياء وقد نهى عنها؟ ولو قدرها كان قد رضى بها، ولو رضى بها لما عاقب عليها. لعن الله الغزل إذا خالطته مجانة، ولعن الله المجانة إذا قورنت بما يقدح فى الديانة»!



وقد رد عليه «أبو صالح الهاشمى» بقوله: «هون عليك، فليس هذا كله على ما تظن. القدر يأتى على كل شيء، ويتعلق بكل شيء ويجرى بكل شيء. وهو سر الله المكتوم، كعلم الله الذى يحيط بكل شيء، وكل ما جاز أن يحيط به علم، جاز أن يجرى به قدر ... وما هذا التضايق والتجارح فى هذا المكان، والشاعر يهزل ويجد، ويقرب ويبعد، ويصيب ويخطىء، ولا يؤاخذ بما يؤخذ به الرجل الديان، والعالم ذو البيان»!

وهكذا بين حرية التعبير وحرمة الأقدار، تختلف الآراء وتحتار الأفكار.

منذر... بين يدى الخليفة

اسمه «منذر»، وهو من أهل الأندلس، عاش بين القرن الثالث والقرن الرابع الهجرى .. وكان خطيبا بليغا لا يتعاصى عليه القول فى مقام.

وقد ظهرت براعته الخطابية فى موقف حرج، وذلك يوم الاحتفال بوفود ملوك الفرنجة على الخليفة، ولقائهم إياه فى قصر «قرطبة»، إذ تقدم العلامة الأديب «أبو على القالى» للكلام، فارتج عليه، وانقطع .. فلما رأى ذلك «منذر» قام متطوعا، ووصل كلام «القالى» بما بهر العقول، وأحسن ما شاء، ففرح به الخليفة، وولاه الصلاة والخطابة فى المسجد الجامع «بالزهراء»، ثم ولاه قضاة «قرطبة» ..

وكان «منذر» صليبا فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، فإذا خطب تناول الخليفة بالعظات وغير هياب ولا محتشم.

ومن ذلك موقفه حين رأى الولع بإنشاء القصور، وزخرفة الدور، أمثال «الزهراء»، فأراد التنبيه والتوجيه، فمضى فى خطبته يوم «الجمعة» - والخليفة بين المصلين - يذم تشييد البناء وزخرفته، والإسراف فى الإنفاق عليه. ولم يغب عن الخليفة أنه المقصود، فوجد فى نفسه شيئا مما ناله به «منذر»، فأقسم ألا يصلى



خلفه صلاة «الجمعة» خاصة، فقيل له:

- ماذا يمنعك يا أمير المؤمنين من عزل «منذر» إذ كرهته؟

فزجر القائل وانتهره، وقال له:

- أمثل هذا الرجل فى فضله وخيره وعمله يعزل لإرضاء نفس؟ إنى لأستحى من ذلك، ولكن «منذرا» أحرجنى فأقسمت، فليصل بالناس حياته وحياتنا، فما أظننا نعتاض منه أبدا!

ألف الكتابة

كان الشعراء فى العهود المتأخرة يعمدون إلى «المعلومات» التى تتصل بالعلوم، فيجعلون منها مدارا للأخيلة والمعانى الشعرية التى يتناولونها.

وأكثر ما تركوا من هذا الشعر بارد غث، والقليل منه لا يخلو من طرافة ..

ومن أمثلة ذلك «ألف الكتابة»، فقد التفت أحد الشعراء - وهو «أبو زكريا النحوى» - إلى استقامة هذا الحرف، واعتدال قوامه، فجعل منه معنى شعريا فى قوله:

وعهدى بالصبا زمنـــا، وقـــدى
حكى ألف «ابن مقلة» فى انتصـاب
صـــرت الآن منحنيـا كـــأنى
أفتش فى التــراب على شبـــابى

والتفت شاعر آخر - وهو «يحيى الشيبانى» - إلى أن حرف الألف يتقدم سائر الحروف، وذلك لأنه مستقيم غير ذى عوج، فجعل منه معنى شعريا أخلاقيا فى قوله:

ان كنت تسعى للسعادة فاستقـم
تنل المراد وتغـد أول من سمـــا
ألف الكتابة وهو بعض حروفهـــا
لما استقام، على الجميع تقدمـــا!



الإلهام في الفن ...

يعجب الناس من أمر العباقرة فيما يأتون من الروائع التى تتعذر على غيرهم من ذوى القرائح والافهام ..

والعباقرة أنفسهم لا يقلون عجبا عن غيرهم من الناس، فهم يحسون بما يفاض عليهم من آثار العبقرية، وما يلقى فى روعهم من أفكار باهرة، ولا يحسنون لذلك تعليلا.

وقد جرينا فى عصرنا الحديث على أن نسمى ذلك «الإلهام» وكان القوم فى سوالف العصور ينسبونه إلى الجن ... شأنهم فى كل ما يخفى عليهم أمره، حتى إن كلمة «العبقرى» نفسها نسبة إلى «عبقر»، وهو اسم وإن يزعمون أن الجن تسكنه، وحتى أن كل شاعر كان يتوهم أن له «تابعا» من الجن يوسوس له بما يقول.

ويحكى عن «إبراهيم الموصلى» - أمير الموسيقى فى عصر بنى العباس - أنه صنع لحنا بديعا، فلما سئل فى شأنه إعجابا به، قال: «لقد طارحتنى الجن اياه»!

وكذلك كان شأن «زرياب» الموسيقى المغنى الذى ملأ صيته المشرق والمغرب، فى القرن الثانى للهجرة، فقد ذكره «الرشيد» بعد فراغه من غل كان منغمسا فيه، فأمر باحضاره، فقالوا له: «ومن لنا به يا أمير المؤمنين؟ فما يرى فى الدنيا من يعدله»!

ويتحدث «زرياب» عن نفسه، فيقول إن الجن كانت تعلمه كل ليلة صوتا من أصوات الغناء، يغنى لحنا من ألحانه، وذلك فى أثناء رقاده، فيهب من نومه سريعا، ويدعو بجاريتيه «غزلان» و«هنيدة»، فتأخذان عوديهما، ويأخذ هو عوده، فيطارحهما ليلته، ثم يكتب الشعر، ثم يعود عجلا إلى مضجعه!



وما كذب «زرياب» .. فذلك هو «الإلهام» عينه، نسبه ذلك الفنان إلى الجن... عجزا عن التعليل!

المنتــزه

من الألفاظ التى غضب عليها النقاد اللغويون فى العصر الحديث، لفظ «المنتزه».

ذلك لأنهم لم يجدوا فى المعجمات فعل «انتزه»، ولكنهم وجدوا الفعل «تنزه»، فأوصوا بترك «الانتزاه»، وإحلال «التنزه» محله. ومن ثم جعل الكتاب الموفقون يستعملون «المنتزه».

ومنذ قليل نشرت مخطوطة ديوان «بشار بن برد» الشاعر العباسى المقدم، فقرأنا له من شعره قوله:

وملعب لجوار ينتقــدون به وكل منتــزه للهــو منتقــد

وقيل فى شرحه: «ينتقدون به، أى يشببن به، يقال: انتقد الولد: شب، والمنتزه: ما جاور بيوت الحى من الأرض ذات الشجر، ينتزه إليه: أى يبعد إليه. ومعنى «منتقد» أنه ملهى للشباب عن القوم».

ولا ريب أن ورود اللفظ فى شعر «بشار» شاهدا لسلامته، فقد كان «بشار» بين الفصحاء، يستأنس بقوله ..

على أن لفظ «المنتزه» ورد أيضا فى شعر «حميد بن منقد» المولود فى القرن الخامس الهجرى، فقد أثبت له «ياقوت» قوله فى وصف «دمشق»:



ما بعد ««جلق» للمرتاد منـــزلة

ولا كسكانها فى الأرض ســـكان

فكلها لمجال الطـــــرف منتـــزه

وكلهم لصـــروف الدهـــر أقـــران

أفما آن لنا أن نرد لكلمة «المنتزه» اعتبارها، بعد أن تنزه الكتاب المجودون بأقلامهم عنها حينا؟

إنما يدعونا إلى هذا أن «المنتزه» أخف نطقا، وأشبه بمعناها لطفا!

علاج الفقر

كان الحكام فى العصور الإسلامية الأولى لا يقدمون أحد لأعمال انقضاء، حتى يطول اختباره، وتعقد له مجالس المذاكرة، ويكون ذا مال فى أغلب الأحوال، فإذا كان من الدين ما يصده عن محارم الله، ومن العلم ما لا يجهل به التصرف فى الشريعة، ومن الغنى ما يكف عن أموال الناس، أباحوا له الفتوى والشهادة وإصدار الأحكام...

وقد أراد «الحكم» - أحد ملوك الأندلس أن يقدم شخصا من الفقهاء ليتولى القضاء، فسأل فيه أعلام العلماء، فقالوا له: «هو أهل، ولكنه شديد الفقر، ومن يكون فى هذه الحال لا تأمنه، وأنت تريد دخوله فى المواريث والوصايا وأشباهها»

فبقى «الحكم» مهموما، لا يدرى ماذا يفعل، وسأل ولده الذى ولى الملك من بعده فى هذا الأمر، فقال: «أما كون العلماء لم يقبلوا هذا الرجل لشدة فقره، فالعلة فى ذلك تنحسم، وذلك بأن تعطى الرجل قدر ما يلحق به من الغنى ما يؤهله لتلك



المنزلة، وتكون هذه مكرمة ما سبقك إليها أحد ...»

فارتضى «الحكم» ما أشار به ولده، وتولى الرجل الفقيه القضاء، بعد أن أعطى من المال ما صيره من الأغنياء!

من أجل سمرة العرب

فى عصور ازدهار الحضارة العربية، كان أهل المدن يحرصون على ارتياد البوادى، لمشافهة الأعراب، والأخذ عنهم، واستظهار ما تجود به قرائحهم من روائع الأدب الموفورة الحظ من صفاء الفطرة، ونقاء الطبع.

وقد بلغ الحرص على ذلك مبلغ الهيام عند بعض الناس، وبخاصة من كانوا عربا..

وفى معجم «ياقوت» أن رجلا من غندجان - أحد بلاد فارس - كنيته «أبو الندى» غاب عن أهله مدة، وأقام فى بادية لأعراب سنين عدة، ليقتبس من الأعراب الذين يسكنون الخيام .. ثم عاد إلى بلده يروى وينشد، حتى شهد له بسعة العلم ورجاحة المعرفة باللغة وأخبار العرب وأشعارها.

وقد بلغ به شغفه بالعزويه أنه عمد إلى ابنه، فأخذ يطليه بالزيت ويوقفه فى شمس القيظ، وذلك ببلده «غندجان» وهى شديدة الحرارة، ولم يزل يصنع بابنه هذا الصنيع، ليكون أسمر البشرة كالعرب!

دقائق

أين الرقعة؟

بينما كان الإمام «على» كرم الله وجهه فى المسجد، إذ جاءه رجل فشكا إليه



الحاجة، وكثرة العيال، واستنكر الإمام على من الرجل أن يصارح بشكواه شفاها لا كتابة، فقال له:

«يا عبد الله، أما كان من رقعة تستر بها وجهك؟!».

عالم وأديب

كان «أبو عبيدة» و«الأصمعى» فرسى رهان فى المعرفة بفنون الآداب ونوادر الأخبار والأشعار، وقد سئل «أبو نواس» رأيه فى المفاضلة بينهما فقال: «أبو عبيدة عالم ما ترك مع أسفاره يقرؤها، أما «الاصمعى» فهو بمنزلة بلبل فى قفص، تسمع من نغمه لحونا، وتستطيب من ملحه فنونا ...».

نخب الموت

عرفنا من يتقارعون بكئوس الصهباء، يشربون النخب فى صحة الأصدقاء أو على اسم الأصحاب، فى مجلس الشراب ... ولعل الشاعر «بشارا» هو الذى انفرد فى سخريته من الحياة بشرب نخب الموتى، وذلك فى قوله:

فاشرب على موت اخوان رزئتهـم   باب المنية باب غير مســدود!

الأدب والذهب

رغب أحد طلاب الحاجات إلى «بديع الزمان الهمذانى» فى أن يجود له بشئ، وعاوده غير مزة، فلم يظفر منه بطائل، فكتب إليه:

«لم لا تجود بالذهب، كما تجود بالأدب؟».

فأجابه «البديع الهمذانى» برسالة طريفة، قال فيها:

«لا قرابة بين الأدب والذهب، فلم جمعت بينهما؟ والادب لا يمكن ثرده فى



قصعة، ولا صرفه فى ثمن سلعة .. لقد جهدت جهدى بالطباخ، أن يطبخ لى لونا من ديوان الشاعر «الشماخ»، فلم يفعل. وجهدت جهدى بالقصاب، أن يذبح لى كتاب «أدب الكتاب»، فلم يقبل .. واحتيج فى البيت، إلى شىء من الزيت، فأنشدت ألفا مائتى بيت، من شعر «الكميت»، فلم تغن فتيلا، ولم تبعث من الضوء كثيرا أو قليلا .. وأنت لم تقنع، فما أصنع؟ ... فراحتك وراحتى، ألا تطرق ساحتى، والسلام، ختام الكلام!»

حمام ... بغدادى

عرفت «بغداد» - على عهد الدولة العباسية - بما توهج فيها من ألوان الترف، وبكثرة ما كان فيها من حمامات خاصة وعامة، تفنن أصحابها فى إبداعها للترفيه والامتاع.

وقد وصف لنا «الحسن بن زفير» أحد هذه الحمامات فى بيوت المترفين، وصور من محتوياته وروائع لا يكاد يبلغها حمام فى العصر الحديث، واليك قوله:

« ... رأيت ببغداد فى دار «شرف الدين» ابن الوزير «شمس الدين الجوينى» حماما متقن الصنعة، حسن البناء، كثير الأضواء، قد حفت به الأزهار والأشجار، فطغت عليه .. وأبصرت مياهه وشبابيكه وأنابيبه المتخذ بعضها من فضة مطلية بالذهب وغير مطلية، وبعض هذه الأنابيب على هيئة طائر، إذا خرج منها الماء صوتت بأصوات طيبة ... ومنها أحواض رخام بديعة الصنع، والمياه تخرج من سائر الأنابيب إلى الأحواض، ومن الأحواض إلى بركة حسنة الإتقان، ثم تخرج المياه من البركة إلى البستان ...

ورأيت فى الحمام عشر خلوات، كل خلوة منها صنعتها أحسن من صنعة أختها، حتى انتهت

إلى خلوة مخصوصة لسيد الدار، عليها باب مقفل بقفل حديدى، فلما فتح لى بابها دخلت إلى دهليز طويل كله مرخم بالرخام الأبيض الساذج، وفى صدر الدهليز خلوة مربعة تسع أربع أنفس، وحيطانها الأربعة مصقولة صقالاً لا فرق بينه وبين صقال المرآة، يرى الإنسان فى أى حائط شاء منها .. ورأيت أرضها مصورة بفصوص حمر وصفر وخضر ومذهبة، وكلها متخذة من بلور مصبوغ، والصور لنساء ورجال على هيئات مختلفة شائعة ... وفى صدر الخلوة حوض من رخام مضلع، وعليه أنبوب مركب فى صدره برسم الماء الفاتر، وأنبوب آخر برسم الماء البارد، وعن يمنة الحوض ويسرته عمدان صغار منحوتة من البلور، عليها مباخر الند والعود!»

رضا الناس

حكى الكاتب الشاعر الرحالة «ابن سعيد» عن نفسه - فيما بين القرن السادس والسابع الهجرى - انه كان يتحدث إلى أبيه يوما فى اختلاف مذاهب الناس، وأنهم لا يوافقون أحدا فيما اختار، ولا يرتضون ثمنه ما ارتضى. فقال أبوه: «متى أردت أن يوافقك كل واحد على ما تصنع دون أن يعترض عليك، أتعبت نفسك باطلا، وطلبت غاية لا تدرك ..».

واستطرد الأب يضرب لولده مثلا، يدله به على صواب رأيه، فقال:

إن رجلا من عقلاء الناس كان له ولد، فقال له ذات يوم: لا يا أبى، ما للناس ينتقدون عليكَ أشياء، وأنت عاقل، ولو سعيت فى مجانبتها سلمت من النقد» فقال له الأب: «يا بنى، إنك غر، لم تجرب الأمور، وان رضا الناس محال، وأنا أقفك على حقيقة ذلك ..».

وعمد الأب إلى حمار، وقال لولده: «اركب هذا الحمار، وأنا أتبعك ماشيا»،



ففعلا، وبينما هما كذلك إذ سمعا رجلا يقول: «انظروا، ما أقل أدب هذا الغلام، يركب هو ويمشى أبوه!»

وبعد مرحلة، قال الوالد لولده: «انزل لأركب أنا وتمشى أنت خلفى»،

ففعلا، وبينما هما كذلك إذ صاح شخص يقول: «انظروا، ما أقل شفقة هذا الرجل، يركب ويترك ابنه يمشى!»

وبعد مرحلة، قال الوالد لولده: «اركب الحمار معى». فما أن رآهما أحد السابلة، حتى قال: «يا لقسوة الأب وابنه. كيف يركبان الحمار معا، وفى واحد منهما كفاية!».

وبعد مرحلة، قال الوالد لولده: «انزل بنا» فنزلا، ومشيا، وقدامهما الحمار، ليس عليه راكب، فانبرى شخص يشير بأصبعه، قائلا: «ما أحمق الرجل والصغير، ولا خفف الله عنهما، انظروا كيف تركا الحمار فارغا، وجعلا يمشيان خلفه!».

«يا بنى، لقد سمعت كلام الناس، على اختلاف الأحوال، وعلمت أن الاعتراض فى طبع البشر، ولا يسلم منه أحد، على أية حال كان....».

الترسم والارتسام

من التعبيرات التى تجرى على أقلام الكتاب المحدثين قولهم: «وهو يترسم خطاه»، ويريدون أنه يتبع هذه الخطى ويسايرها.

وقد جرى التعبير سهلا على الأقلام، ولا يشك فى صحته كاتب.

والبحث فى اللغة عن معنى الترسم يدفع بهذا التعبير الشائع المقبول إلى قفص الاتهام أمام محكمة الفصاحة!



تقول اللغة:

فلان يترسم كذا: أى يتذكره دون أن يتحققه.

وفلان يترسم الدار: أى ينظر إلى رسومها ويتأملها.

وهو يترسم الرسم: أى ينظر إليه.

والقنافذ تترسم فى الأرض: أى تنظر أين تحفر فيها.

وليس فى واحد من هذه المعانى ما يحمل عليه معنى المسايرة والاتباع، وهو المعنى الذى جنح إليه كتابنا المحدثون.

ويمكن أن يصحح هذا التعبير بشيء من التغيير فى صيغته، بأن يقال مثلا: ارتسم خطاه، بدلا من ترسم خطاه.

فمن معانى الارتسام فى اللغة: ارتسم هذه الخطى، أى كان فى طاعاتها، ممتثلا لها، وفى التعبير مجاز مستساغ.

وقديما كان نقاد اللغة يترصدون لما ينشأ من الألفاظ والتعبيرات على غير أقيسة اللغة، وما ينحرف عن دلالتها. وفى فجر نهضتنا الأدبية نشطت حركة النقد اللغوى، ثم ركدت ركودا شديدا أتاح لكثير من الألفاظ والتعبيرات الظنينة أن تشوب فصاحة الكتابة.

فهل ينشط نقادنا اللغويون لتنقية الكتابة العربية من شوائبها؟

نظرة إنسانية

تولى «عبد الرحمن بن هشام المروانى» إمارة «الأندلس» ويوما جلس يتحدث إلى ابنه فى تجارب حياته، فإذا هو ينظر نظرة فلسفية إنسانية رفيعة إلى صراع الخير والشر فى نفوس البشر، فهو لا يرى الناس من الشياطين لا يراهم من



الملائكة، وإنما هو فى رأيه بشر يترنحون بين خطأ وصواب، وإساءة وإحسان، وذلك يقتضى الرفق بمن ضل. والصفح عمن زل.

وإليك حديثه إلى ولده ... قال له:

«من تكن عنده همة ومطمع، فعليه أن يصبر ويغض ويتحمل، ويبدل العقاب بالثواب، ويجعل الأعداء من قبل الأصحاب، ويتجاوز للشخص عما يسوء فقد يرى منه بعد ذلك ما يسر. ولقد بلوت أننى ربما قاسيت فى يوم من فعل بعض الناس ما لو قطعتهم عضوا، جزءا ما ارتكبوه معى، ما شفيت منهم غيظى، واذا هم بعد الاقتدار - أولى وأحق، ولقد نظرت إلى جميع من حولى ممن يحسن ويسىء، فوجدت القلوب متقاربة بعضها من بعض، والمسىء يعود محسنا، والمحسن يعود سيئا، وصرت أندم على من سبق له منى عتاب، ولا أندم على من سبق له منى ثواب، ومن لا يتغاضى لا ينال ما تترقى إليه مهمته، ولا يظفر بأمله، ولا يجد معينا حين يحتاج إليه ..».

يمشى للفضلاء

كان «عبد الملك بن سعيد» والى «الجزيرة الخضراء» من بلاد المغرب فى القرن السادس الهجرى، وكان يرعى التأليف فى الأدب والتاريخ.

وبلغ من اجتهاده فى ذلك، أنه علم بأن شخصا من المنسوبين إلى البيوتات النابهة، عنده كراريس من شعر الشعراء، وأخبار الرؤساء، فى عهد دولة «بنى عبد المؤمن» التى تولت حكم «المغرب» زمنا، فأرسل والى الجزيرة إلى ذلك الشخص، راغبا فى استعارة تلك الكراريس منه، وكان ذلك الشخص من أهل الجهل والسذاجة، فلما بلغته رسالة الوالى أبى أن يستجيب لرغبته، وقال:



«على يمين لا تخرج عن منزلى هذه الكراريس، فإن كانت للوالى حاجة إليها، فليأت بنفسه ليستعيرها».

وسمع الوالى بما قاله الرجل، فضحك، وقال:

«أسير إليه»

فقال له ولده: «ومن يكون هذا حتى تذعن لإرادته، وتمشى إليه؟»

فأجاب الوالى: «إنى لا أمشى له، ولكنى أمشى للفضلاء الذين تضمنت الكراريس أشعارهم وأخبارهم، أتراهم لو كانوا أحياء مجتمعين فى موضع أكنت آنف أن أمشى إليهم؟ فتلك آثارهم تنوب عن أشخاصهم، والأثر ينوب عن العين»

واستصحب ولده فى الذهاب إلى ذلك الشخص، فلما قضى غرضه من الكراريس، انصرف من عنده، وهو يقول لولده:

«إنى والله يا بنى ما سررت بأنى توليت حكم الجزيرة كما سررت بالحصول على محتويات تلك الكراريس!».

هدى طباع الناس

كان للأمير الأندلسى «عبد الرحمن الأوسط» ولد يسمى «المنذر»، كثير الإصغاء إلى أقوال الوشاة، مفرط القلق مما يقال فى حقه. وقد ظل يشتكى من ذلك لولده، فضاق الأمير به، وقال لنفسه:

«لا سبيل إلى قطع شكوى «المنذر» إلا بإفراده فى مكان يعتزل فيه الناس، فيريح ويستريح ...».

وطلب الأمير إلى أحد وكلائه أن يختار بقعة من الجبل، وأن يبنى فيها بناء



حسنا، ليسكن ابنه فيه، منفردا، لا يزوره إنسان، ولا يتكلم معه أحد.

ولما نقل «المنذر» إلى تلك البقعة، وبقى وحده، وفقد من كان يستريح إليه، ضجر. فقال لمن هو موكل بالنفقة عليه فى ذلك المعزل:

«متى يصل أصحابى وإخوانى، للاقتناس بهم؟»

فأجابه بقوله: «إن الأمير رسم ألا يصل إليك أحد، وأن تبقى وحدك لتستريح مما يرفع لك أصحابك من الوشايات»

فكتب «المنذر» إلى أبيه يقول: «إنى قد توحشت فى هذا الموضع توحشا ما عليه من مزيد، وعدمت فيه من كنت آنس إليه، فإن كان ذلك عقابا لذنب كبير ارتكبته، وعلمه أبى ولم أعلمه، فإنى صابر على تأديبه، ضارع إليه فى عفوه وصفحه»

فلما وقف الأمير على الكتاب، استدعى ولده، وقال له:

«ما فعلت ذلك عقابا لك، وإنما رأيناك تكثر الضجر والتشكى من القيل والقال، فأردنا راحتك، بأن نحجب عنك سماع النمائم، والوشايات»

فقال «المنذر» لأبيه: «سماع ما كنت أضجر منه، أخف على نفسى من التوحيد والتوحش والتخلى من التصرف فى الأمور مع الناس»

فقال له أبوه: «أما وقد عرفت ذلك، فارجع إلى ما اعتدته، وعول على أن تسمع كأنك لم تسمع، وترى كأنك لم تر. والزم يا بنى معالى الأمور، ورأس المعالى التغاضى، ومن لا يتغاضى، لا يسلم له صاحب...!»

وكأن الأمير الأندلسى كان فى صنيعه مع ولده يترجم عن قول الفيلسوف «المعرى»:

هذى طباع الناس معروضـــة فخالطوا العالم أو فارقـــوا



ما أكثر هبات المحن، وما أوفر بركاتها على أصحابها ...

هبات المحن

لقد أشرت فى حديث مضى إلى أن كثيرا من المؤلفين لم يفرغوا لكتبهم التى خلدت ذكرهم إلا حين دهمهم المرض، وألزمهم عقر الدار. فإمام الأدب «الجاحظ» ألف كتابيه العظيمين: «البيان والتبيين» و«ابن الأثير» العالم صاحب كتاب «جامع الأصول» و«النهاية فى غريب الحديث» وغيرهما من الكتب النافعة لم يؤلف هذه النفائس التى عاش بها بين الأحياء حتى اليوم، إلا بعد أن ترك المناصب، وناله مرض بطلت به حركة يديه ورجليه.

ولم يكن هذان وحدهما، أفاءت عليهما المحنة هباتها ...

فهنالك علم من أعلام القضاء، وكوكب من كواكب الشريعة الإسلامية، أدركته محنة، فوهبته هبة سخية .. وذلك هو «محمد بن أحمد السرخسى» الذى عاش فى القرن الخامس الهجرى، وترك لنا كتابة «المبسوط»، وهو من أوسع كتب التشريع الاسلامى وأوفاها فى الاصول والفروع ..

لقد كان «السرخسى» رهين السجن فى بلد من بلاد «فرغانة» فى أقصى حدود الدولة الإسلامية فى عصره، وأتاح له الفراغ أن يملى كتابه هذا إملاء، فخرج فى عشرين مجلدا، وأصبح موردا لكل باحث ومؤلف فى فقه الحنيفة، ينقل منه، ويستشهد به، ويعول عليه.

وهكذا نفح السجن ذلك العالم الفقيه نفحة الخلود!



هكذا شفيت ...

تطالعنا كتب التاريخ العربى فى العصور الاولى من قصص الحياة بما يكشف عن وعى مبكر وتجارب سديدة فى شتى الميادين.

قال المؤرخون إن إحدى حظايا الخليفة «الرشيد» كانت تتمطى وترفع يدها، وإذا يدها تظل منبسطة لا تستطيع ردها، ولم يدخر الأطباء وسعا فى محاولة شفائها بالتمريخ والأدهان، ولكن لم يكن له جدوى.

وشكا «الرشيد» الأمر إلى وزيره «جعفر»، فقال له الوزير: «نخاطب «ابن بختيشوع» فى معنى هذا المرض، فلعل عنده حيلة فى علاجه».

وأحضر ذلك الطبيب الفذ بين يدى الخليفة، فقال له:

«ما مبلغ معرفتك بالطب؟»

فأجابه: «أبرد الحار، وأسخن البارد، وأرطب وأيبس، وأبيس الرطب!»

ولما شرح له حال تلك الجارية، قال «ابن بختيشوع»: إن لم يسخط على أمير المؤمنين، فلها عندى حيلة».

قال «الرشيد»: وما حيلتك؟»

قال الطبيب: «تخرج الجارية، وتقف هنا بحضرة الجمع، حتى أصنع ما أريد، وعلى الخليفة أن يتمهل ولا يعجل بالنقمة متىإذا رأى ما ينكره ..».

فرضى الخليفة وأمر بإحضار الجارية وما كاد يراها الطبيب حتى وثب اليها منكسا رأسه، وأمسك بذيلها كأنه يريد أن يكشف عن جسدها، فانزعجت الجارية، وأرسلت يدها إلى أسفل تحمى نفسها ممن عدا عليها.



فصاح الطبيب: «لقد برئت الجارية يا أمير المؤمنين من علتها».

فقال الخليفة للجارية: «ابسطى يدك يمنة ويسرة» ففعلت، كأن لم يكن بها علة.

فعجب «الرشيد» وسأل الطبيب عن جلية الأمر، فأجابه:

«هذه الجارية أصيبت ببغتة جعلت حركتها تسكن، وحرارتها تفتر، فكان لابد لها من بغتة تعود فيها الحركة، وتنبسط الحرارة. وذلك فعلته حين هجمت عليها، وكان من أمرها ما رأيت»!

محمد شوقي أمين

* مواليد القاهرة فى يونيو ١٩١٠.

* عضو مجمع اللغة العربية منذ ١٩٧٣

* مقرر لجان الأصول واللهجات والألفاظ والأساليب وعضو لجنة الأدب.

* عضو لجنة التراث فى المجلس الأعلى للثقافة.

* عمل محاضراً لطلاب الماجستير والدراسات العليا بمعهد الدراسات الإسلامية بالزمالك.

* أخرج ١٥ مطبوعة تحوى محاضر جلسات مجمع اللغة العربية،وأخرج كتاب مجموعة القرارات العلمية، وكتاب أصول اللغة الأول والثانى،وكتاب الألفاظ والأساليب لمجمع اللغة العربية.

* شارك فى إعداد المعجم الوسيط والمعجم الوجيز لمجمع اللغة العربية

* شارك فى تحقيق ديوان بشار بن برد بأجزائه الأربعة وكذلك جملة المؤلفات التيمورية فى اللغة وغيرها

* له عشرات البحوث فى تيسير النحو والضوابط اللغوية نشرت جميعها فى مجلات المجمع اللغوى ومحاضر جلساته.

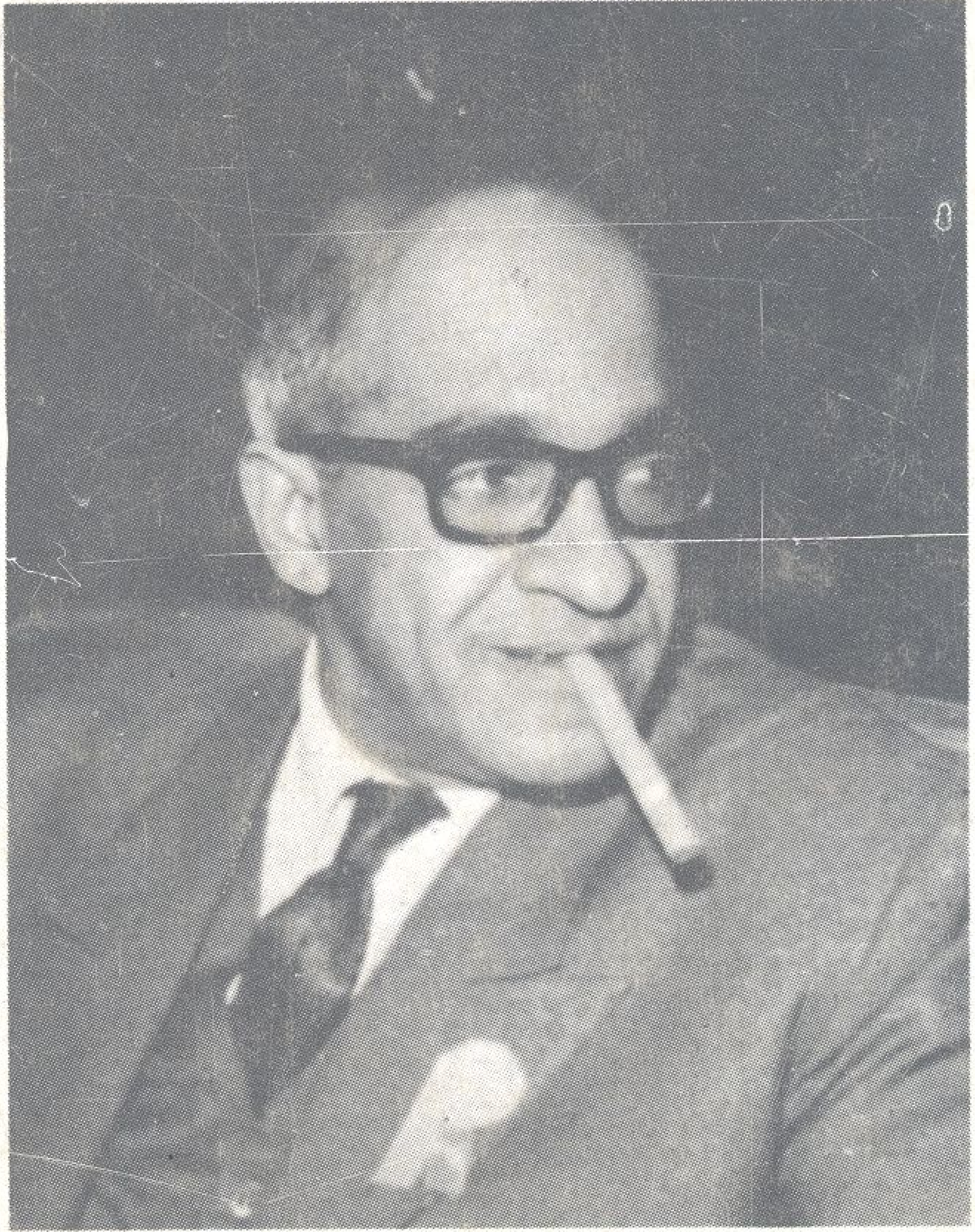




رقم الايداع : ٤٧٧٥/١٩٩٠

I.S.B.N 977-221-011-8





هــــذا الكتـــاب

رحلة فى أعماق تراثنا العربى الاسلامى، رحلة، فى قلب المكتبة العربية، قديمها وحديثها، بحثاً عن كنوز الطرائف والفكاهات. على أنها ليست طرائف أو فكاهات سطحية أو تسليات خاملة، بل هى عصارة العصارة لخبرة الثقافة العربية فى مواجهة الحياة، ولتجسيدها فى تعابير مختلفة سياسية واجتماعية وفقهية وفلسفية ولغوية وأدبية وفنية. إنها رحلة فى لمعات الذكاء وحضور البديهة والحكم النادرة، والمواقف الجريئة والحقائق الرهيفة والأساليب والتعابير اللغوية المبدعة.

كتاب على تنوع وتناثر عناصره، يقدم صورة مبتسمة مستبشرة عذبة عميقة لتراثنا الثقافى، تجمع بين الفائدة والترويح ...



دار الثقافة الجديدة